

رحلة سويله مز أوغلي
إلى بلاد الشام

دراسة وترجمة وتحقيق

فاضل مهدي بيات

الإصدار رقم (918)

2023

تاريخ وحضارة

رحلة سوليه مز أوغلي

إلى بلاد الشام

دراسة وترجمة وتحقيق

فاضل مهدي بيات

إرسيكا/ منظمة التعاون الإسلامي

البرنامج الوطني للقراءة
مكتبة الأسرة الأردنية

سلسلة تصدرها وزارة الثقافة الأردنية منذ العام (2007)، ضمن البرنامج الوطني للقراءة وتهدف (مكتبة الأسرة الأردنية) إلى نشر المعرفة وإثراء مصادر الثقافة وتنمية التفكير الناقد ورفع مستوى الوعي لدى الأسرة الأردنية من خلال توفير الكتاب بجودة عالية وبأسعار رمزية. تضم السلسلة ستة حقول أساسية: دراسات أردنية، تراث عربي وإسلامي، آداب وفنون، فلسفة ومعارف عامة، علوم وتكنولوجيا، وأدب الأطفال.

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2023/10/5436)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب

عنوان الكتاب : رحلة سولية مز أوغلي إلى بلاد الشام

تأليف : البيات ، فاضل مهدي

بيانات النشر : عمان: وزارة الثقافة ، 2023

رقم التصنيف : 915.604

الواصفات : /الرحلات الجغرافية//الرحالة//العثمانيون//الحجاز//بلاد الشام//العصر العثماني/

الطبعة : الطبعة الأولى

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية.

ردمك: (978-9957-94-989-1) ISBN

- الطباعة : مطبعة حلاوة النموذجية

المحتويات

هذا الكتاب
صاحب الرحلة سويله مز أوغلي
مذكراته في جريدة الأهرام القاهرية
الرحلة وعرض محتوياتها
منهج سويله مز أوغلي في الرحلة
لماذا كتب سويله مز أوغلي
الباحثون والرحلة
العرب والبلاد العربية في منظور سويله مز أوغلي
حبه وإعجابه بالعرب والتقاليد العربية
انطباعاته عن الأماكن التي مرّ بها في بلاد الشام وتقييمه للأوضاع
أهمية مذكراته في التعرّف على أوضاع البلاد العربية
السنجق الشريف
الصرة السلطانية
النص المترجم
الفصل الأول: من إسطنبول إلى دمشق
بعض المعلومات عن قبرص
ولاية بيروت
جبل لبنان
المواقع المشهورة في جبال الدروز
الفصل الثاني: من دمشق إلى المدينة المنورة
دمشق
معلومات متعلقة بالمعارف في ولاية سورية
مكتبة دمشق
عرض الصرة السلطانية في دمشق وإخراج المحمل

القدم الشريف
علم السعادة والمحمل
الانطلاق من دمشق مع القافلة
غباغب
مزيريب
السفر إلى الشيخ سعد
التحرك من مزيريب
الرمثا
عين الزرقاء
الانطلاق من عين الزرقاء
العكامة الخيامون
قلعة البلقاء
قلعة القطرانة
قلعة الحسا
قلعة العنيزة
معان
قلعة الجوف
العشائر المتنقلة في منطقة معان
ملاحق
المصادر والمراجع
الكشافات

هـــــذا الكتاب

سليمان شفيق سويله‌مز أوغلي من أهم رجالات الدولة العثمانية في مراحلها الأخيرة، وضع بصماته على أحداث جسام وقعت في البلاد العربية في أواخر العهد العثماني، وقام بخدماتٍ جليلةٍ، ليس على نطاق الدولة العثمانية فحسب، بل على نطاق البلاد العربية أيضاً، ولكنه لم يحظ بالاهتمام المطلوب من لدن الباحثين. ولولا المذكرات التي قام بنشرها تباعاً في جريدة الأهرام المصرية في سنة ١٩٢٤ . ١٩٢٥ لما تعرف عليه أي عربي رغم أنه قضى وقتاً طويلاً في البلاد العربية مسؤولاً إدارياً وعسكرياً، وأبدى في مذكراته آراءً سديدة أوصلته إلى مصاف المصلحين السياسيين والاجتماعيين على حد سواء.

أما رحلته التي قمت بترجمة القسم المتعلق منها بلبنان وسورية والأردن فتلقي الضوء على شخصيته الإصلاحية. إذ أنه لم يبق فيها في إطار منهج الرحّالين: يصف ما يشاهده ويدون انطباعاته عنه، بل تجاوز ذلك إلى إبداء آراء وملاحظات في كثير من المسائل التي تمس الأماكن التي مر بها والأشخاص الذين التقى بهم، وتقديم مقترحات وتوصيات بشأن تطوير هذه الأماكن وتحسين أوضاع الأهالي فيها. وكان بعمله هذا، كأنه يعدّ تقريراً ليقدمه إلى مركز الدولة عن الأوضاع التي تمر بها البلاد العربية.. ومن هنا فإن هذه الرحلة تحظى بأهمية استثنائية ؛ فهي تسلط الأضواء على جانب مهم من تاريخ البلاد العربية في أواخر العهد العثماني.

تعرّفت إلى مخطوطة الرحلة عن طريق الصدفة، ووجدت فيها معلومات وآراءً جديرة باطلاع القراء والباحثين العرب عليها وعلى وجه الخصوص المهتمين بتاريخ بلاد الشام في العهد العثماني، فقررت على الفور ترجمتها، دون أن أعرف عنها أو عن صاحبها أي شيء. وكنت واثقاً أنني سأجد الكثير الكثير عن المؤلف في المصادر، إذ أن رحلة بهذه الأهمية لا بد أن تحظى باهتمام جميع من تصدى للرحلات إلى البلاد العربية. وباشرت بالترجمة مستعيناً بالله، ثم عرضت الأمر على السيد رئيس جامعة آل البيت الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت الذي لم يشجعني على الترجمة فقط، بل تبنى الأمر. ولا أملك هنا إلا أن أقول: أدامه الله سنداً للعلم وكثر من أمثاله.

وفي الوهلة الأولى كنت أعرف جيداً أن عملية الترجمة من اللغة العثمانية إلى اللغة العربية هي في غاية الصعوبة لأسباب لا أرى مجالاً لذكرها هنا، وبإمكاني الترجمة من اللغة التركية الحديثة أضعاف ما أترجمه من العثمانية. ولكن حرصاً مني على كشف ما يغيّر التصورات الخاطئة عن الدولة العثمانية وعلاقتها بالبلاد العربية، ولا سيما الصادرة من بعض الباحثين العرب

المشرقيين، ساقني إلى خوض غمار هذا العمل، دون الأخذ بنظر الاعتبار ما يعتريني من صعوبات، وبخاصة ما يتعلق بالتعابير والتراكيب المعقدة التي استخدمها الرحالة. وكنت إلى جانب قيامي بالترجمة، أبحث في المصادر التركية المتوافرة في المكتبات عن ترجمة حياة الرحّالة. ولكن ما عقدت من آمال تلاشى بعد أن اصطدمت مع الواقع الأليم، فلم أجد عنه شيئاً في هذه المصادر سوى ما يتعلق به بعد تقلده وزارة الحربية العثمانية. ولشد ما كان سروري عندما عرفت أن أحد الباحثين العرب وهو عبد الفتاح حسن أبو عليه تناول جزءا من الرحلة، وهذا الجزء يتعلق بالمبحثين التاريخيين المتعلقين بالمذهب الوهابي وإمارة آل الرشيد والملحقين بالرحلة، وفضلا عن هذا فان مجلة العرب الصادرة في الرياض قامت بإعادة نشر مذكرات الرحالة المنشورة في جريدة الأهرام. إلا أنني وجدت أن ما قام به الباحث أبو عليه لا يتعدى تعليقات على بعض المعلومات الواردة في المبحثين، ولهذا لم يبق أمامي في هذا الصدد إلا أن أعتمد على المذكرات المنشورة. وإني أعترف هنا، بل ينبغي أن أعترف، أنني بعد أن قرأت هذه المذكرات تأثرت كثيراً، لإهمال مصلح كبير ومحب للعرب كمؤلفنا من قبل الباحثين العرب وذلك لوجود عناصر جديرة بالدراسة والتحليل في أفكاره وطروحاته. ولهذا السبب وجدت أن الواجب يستدعي أن أتلافى هذا النقص، وذلك بتجاوز حدود هذه الرحلة إلى تناول آرائه وطروحاته في المذكرات، ولا سيما أنها تأتي مكملة لما طرحه الرحالة في الرحلة.

وفي الدراسة التي استهللت بها الترجمة، تناولت الرحالة وشخصيته وما يتعلق بالرحلة من خلال مباحث وجدتها ضرورية للرحلة وهي :

١. **سويلەمز اوغلي صاحب الرحلة :** حيث تطرقت إلى سيرة حياة الرحالة مبتدئاً بعائلته ومنتهياً بمذكراته في جريدة الأهرام .
٢. **الرحلة وعرض محتوياتها:** وتناولت فيه الرحلة ومخطوطتها وعرضت المراحل التي قطعها في الرحلة بدءاً من استانبول وحتى الحرمين، ثم العودة عن طريق مصر.
٣. **منهج سويلەمز اوغلي في الرحلة:** وتوقفت فيه عند منهجه موضحاً أهمية الرحلة وكيفية تدوينها والمصادر التي استعان بها الرحالة في إيراده معلومات تاريخية.
٤. **لماذا كتب سويلەمز اوغلي رحلته:** وتناولت فيه مسألة يمكن إثارتها حول الرحلة وهي: هل كان الرحالة مكلفاً بالقيام بهذه الرحلة لتكون بمثابة تقرير عن أوضاع الأماكن التي زارها وليقدمه إلى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني؟ أم كتبها بمحض إرادته؟ كما أخذت في هذا المبحث بنظر الاعتبار دور الباحث التركي خليل ساحللي اوغلو(١) في الكشف عن هذه المخطوطة وتعريفه المختصر لها.
٥. **العرب والبلاد العربية في منظور سويلەمز اوغلي:** وخصصته للآراء والملاحظات التي طرحها في رحلته ومذكراته بشأن الأوضاع السائدة في الأماكن التي مر بها خلال الرحلة في

(١) آثرتُ الإبقاء على اسم الباحث كما يرد في الأصل التركي دون تعريبه أي كتابته بلام واحدة وبشكل (ساحلي أو الساحلي) وذلك لأن لاحقة النسبة في اللغة التركية هي (لي).

لبنان وسوريا والأردن وانطباعاته عنها. ونظراً لتعلق الآراء والأفكار التي أوردها في مذكراته بما أورده في رحلته والتي جاءت مكملاً لها، فقد توقفت عندها بشكل واسع.

٦. **الصرة السلطانية** : ويعود وضع هذا المبحث ضمن مباحث الدراسة إلى أن سويله مز اوغلي بدأ برحلته بالإشارة إلى الدافع الذي حدا به إلى القيام بالرحلة، وهو تولي والده أمانة الصرة السلطانية، وأورد في رحلته معلومات مهمة عن الصرة وكيفية استخراجها من القصر السلطاني، والاحتفالات التي تقام بهذه المناسبة في كل من استانبول وبيروت ودمشق، وكيفية تسليم الصرة إلى الأمراء والشيوخ في الجزيرة العربية. واستكمالاً لما ذكره سويلهمز أوغلي في هذا الخصوص توقفت عند الصرة السلطانية في هذا المبحث المستقل. وقد استعنت هنا بالدرجة الأولى بما ذكره الباحث الموسوعي التركي محمد زكي باكالين الذي أدرج نصوصاً مهمة عن باحثين شهدوا الاحتفالات التي جرت في استانبول بهذا الخصوص.

وينبغي أن أشير هنا إلى أنني عانيت الكثير من فهم بعض الألفاظ والتعابير والجمل التي استخدمها الرحالة، وكذلك من ضبط أسماء بعض المدن والمواقع الواردة في الرحلة، إذ أخطأ الرحالة أحياناً في ضبطها، فجاءت مصحفة. وكان لا بد لي من الرجوع إلى مختلف المعاجم والمصادر والأبحاث المتوافرة للتحقق منها. وقد أوردت كل ذلك في هوامش الرحلة .

صدرت الطبعة الأولى من الكتاب في سنة ٢٠٠٠م ضمن إصدارات جامعة ال البيت بعد أن حظي باهتمام خاص من لدن الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت الذي كان يترأس الجامعة. ونظرا لنفاد النسخ المطبوعة من الكتاب والطلب المستمر عليه فقد ارتأت وزارة الثقافة الأردنية إعادة طبعه وطلبت مني بيان الرأي، ولم أتردد في الموافقة إلا أنني رأيت أن الدراسة التي أجريتها عن الرحلة ومؤلفها بحاجة إلى إعادة النظر فيها وخاصة بعد أن قمت بإجراء دراستين عن الرحالة بعد صدور الطبعة الأولى وقد تسنى لي في هذا الوقت الالتقاء بابنة المؤلف وحصولي على معلومات جديدة عن والدها، أما الدراستان اللتان نشرتهما فهما:

١. سليمان شفيق باشا في البلاد العربية، نشر في مجلة العرب/ الرياض ج ٣ – ٤، السنة ٤٢ ص ١٦٩ – ١٧٣

٢. العرب والبلاد العربية في منظور سليمان شفيق باشا، نشر في مجلة "الدارة" السعودية، العدد ١ السنة ٣٦، الرياض محرم ١٤٣١هـ ص٥١– ٨٣

ولكن ونظرا لقصر المدة الممنوحة لي لإعادة النظر في مسودة الطبعة الأولى من الكتاب فقد اكتفيت بتضمين الكتاب ببعض الفقرات المهمة الواردة فيهما. وقبيل البدء بإجراء بعض التعديلات في هذه المسودة حالفني الحظ في الحصول على نسخة رقمية حديثة من اصل المخطوطة، وقد ازداد إعجابي بالمؤلف عندما وجدت أن الرسوم والمخططات التي رسمها المؤلف والواردة فيها ملونة وواضحة على عكس النسخة المصورة التي اعتمدت عليها في الطبعة الأولى.

وأخيراً لا بد لي من أن أسجل شكري وامتناني إلى وزارة الثقافة الأردنية متمثلة باللجنة العليا لبرنامج مكتبة الأسرة الأردنية برئاسة معالي وزيرة الثقافة لقيامها بإعادة نشر الكتاب ليكون في متناول القرّاء والباحثين على حد سواء ممن لم يحظوا بالحصول على الطبعة الأولى.

وأُنهي هذا المدخل بالوقوف إجلالاً وإكباراً لروح سويلهمز اوغلي وأدعو الله عزّ وجل أن يتغمده برحمته الواسعة.

أ.د. فاضل مهدي بيات

إرسيكا/ منظمة التعاون الإسلامي

استانبول ٢٠٢٣

صاحب الرحلة سويله مز أوغلي

ينحدر مؤلف الرحلة سليمان شفيق من عائلة سويله مز أوغلي[١] المشهورة في مدينة أرضروم التركية. وقد أنجبت هذه العائلة عدداً من الشخصيات السياسية والثقافية وضعت بصماتها على الحياة السياسية والثقافية في الدولة العثمانية ثم في الدولة التركية الحديثة. وكان جد مؤلفنا سويله مز أوغلي محمد تيمور فني أفندي شاعراً من أشراف مدينة أرضروم. أما أبوه سويله مز أوغلو كمالي باشا فكان من رجالات الدولة العثمانية، ولد في أرضروم سنة ١٨١٨م وتلقى تحصيله الدراسي في المدارس الدينية في طرابلس واستانبول، وبعدها انخرط في السلك الإداري في ولاية طرابزون ثم اصبح متصرفاً في أكثر من لواء، ومنح لقب باشا وعين والياً على طرابلس الغرب (ليبيا) ومناستر والموصل على التوالي، وتوفي عندما كان يتقلد ولاية قونية (١٨٩٧). وكوالده عرف كمالي باشا بقرضه للشعر الذي نظمه على طراز الأدب الديواني[٢].

كما اشتهر من عائلة سويله مز أوغلي أخو الرحالة غالب كمالي (أرضروم ١٨٧٣ . استانبول ١٩٦٠) وهو من رجال السلك الدبلوماسي التركي، إذ أصبح سفيراً لبلاده في كل من طهران وموسكو واستوكهولم وكوبنهاكن، وله عدة مؤلفات سياسية وثقافية نشرها باللغتين الفرنسية والتركية[٣].

أما مؤلفنا سليمان شفيق سويله مز أوغلي، فلا نعرف عنه شيئاً قبل قيامه بالرحلة سوى أنه ولد في سنة ١٨٦٤[٤]، ولا تتجاوز معلوماتنا عنه عما ذكره هو عن نفسه في هذه الرحلة وفي مذكراته التي نشرها فيما بعد في جريدة الأهرام المصرية . والتي سنتوقف عندها فيما بعد.. ونعرف

---

[١] سويله مز أوغلي بضم السين وسكون الياء وفتح اللام والميم، لقب تلقب به عائلة سليمان شفيق وتعني: " أوغلي" إبن، آل، وتكتب في العثمانية على شكل (أوغلي) أو (أوغلو).

[٢] الأدب الديواني : إحدى مراحل الأدب التركي، نشأ بعد اعتناق الأتراك الدين الإسلامي. وتعود بداياته في ما وراء النهر إلى القرن ١١ إلى عهد القرة خانيين وفي الأناضول إلى القرن ١٣ م. واتبعت فيه النظم والأساليب الأدبية واللغوية العربية والفارسية. للتفصيل يراجع. Yeni Rehber Ansiklopedisi. Istanbul , 1993. 5: 365-372.

[3] Turk Ansiklopedisi, Ankara, 1980, 29: 360, Meydan, Larousse, Istanbul, 1993, 18:255-256.

[٤] ورد هذا التاريخ في الجزء الملحق بخطب مصطفى كمال أتاتورك. أنظر :

Gazi Mustafa Kemal (ATATURK) , Nutuk- Soylev, (T.T.K) , Ankara, 1989 , 3: 1937

أنه عندما كان في مقتبل عمره، رافق والده عند تقلده ولاية طرابلس الغرب، فأصبحت له "صلة ودّ قلبي مع الأمة العربية في حداثة " سنه .كما يقول في مذكراته[٥].

وأكمل تحصيله الدراسي في الكلية الحربية العثمانية (= الكلية العسكرية) باستانبول وتخرج ضابطاً.

وفي سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٩٠ م) انتدب والده علي كمالي باشا لأمانة الصرة السلطانية لنقل الصرة من استانبول إلى الحرمين الشريفين فرافق والده[٦]، وكان في هذا الوقت برتبة قول أغاسي[٧] للسرية الثانية لكتيبة المدفعية المتنقلة[٨] وكان ما يزال في مقتبل عمره[٩]. وبعد إكمال رحلته التي نحن بصدد الدراسة عنها . ورجوعه من الحج، نقل إلى اليمن حيث عمل ضابطاً برتبة قائد الف[١٠] أي (مقدم) وذلك بين سنتي ١٨٩٣ – ١٨٩٥م [١١].

وربما أن آراءه المتعلقة بالبلاد العربية والتي أوردها في رحلته هي التي دعت الدولة إلى نقله إلى اليمن. ولا نعرف كم استمر في وظيفته باليمن. ويبدو انه اصبح فيما بعد من الاتحاديين[١٢] ففي سنة ١٩٠٨ حيث حدث الانقلاب العثماني المشهور على السلطان عبد الحميد الثاني، عهد

---

[٥] بلاد العرب في مذكرات سليمان شفيق كمالي باشا، مجلة العرب (الرياض) ج ١١ سنة ٥ تموز ١٩٧١ ص ٩٩٩ وسنشير الى هذه لاحقاً بشكل (المذكرات، مجلة العرب). ومجلة العرب تصدر عن دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض.

[٦] انظر : سويله مز أوغلي سليمان شفيق بن علي كمالي : حجاز سياحتنامه سي، نسخة مكتبة جامعة استانبول، ص ٢ وسنشير إليها لاحقاً بشكل (الرحلة)، والصفحات المؤشرة تقابل هذه النسخة.

[٧] قول أغاسي : رتبة عسكرية عثمانية تعادل رتبة رائد تحتل موقعاً وسطاً بين يوزباشي (نقيب) وبيكباشي (مقدم) أنظر : Hayat Buyuk Turk Sozlugu, Istanbul , tarihsiz, S. 738

[٨] انظر : الرحلة، صفحة الغلاف

[٩] المذكرات، مجلة العرب جـ ١١ سنة ٥ تموز ١٩٧١ ص ٩٩٩.

[١٠] قائد ألف، ترجمة حرفية لـ (بيكباشي) وتقرأ الكاف هنا كالنون الصادرة من الأنف وتسمى في اللغة العثمانية (الكاف الصماء) أي بينباشي (بيمباشي).

[١١] م. ن ص ٩٩٩ . ١٠٠٠

[12] Ali Fuad Turkgeldi: Gorup Isittiklerim, (T.T.K), Ankara, 1987, 234.

إليه قيادة منطقة اسكدار في استانبول وذلك إثر إعلان النظام الدستوري في الدولة العثمانية. ولم يستمر طويلاً في هذه الوظيفة، إذ وقع عليه الاختيار ليكون متصرفاً على لواء عسير بالجزيرة العربية وقائداً للجيش هناك. وكان لواء عسير يشهد في هذا الوقت بالذات اضطرابات خطيرة تمثلت في ثورة الادريسي التي كانت تستهدف الدولة العثمانية. ويبدو أن سبب اختياره لهذا يعود إلى صلته بالعرب منذ حداثة سنه عندما كان والده والياً على طرابلس الغرب ومرافقته والده عندما تولى (أي والده) أمانة الصرة السلطانية، وما كان يتمتع به من شخصية إدارية وعسكرية[١٣]. وبقي في عسير أربع سنوات[١٤]، وكانت مهمته فيها صعبة إذ واجه تحدياً استهدف سلطة الدولة وتمثل ذلك في حركات عصيان واضطرابات في المنطقة.

وقد ذكر سليمان شفيق باشا عن نفسه في هذه الفترة الحرجة في مقدمة مذكراته التي نشرها فيما بعد . كما سيأتي . قائلاً : "وفي الواقع انه قد سبق لي تقلد مناصب مهمة في بلاد العرب ولا سيما في اليمن وعسير وسوريا والعراق، فشهدت حوادث على غاية من الخطورة، وكان ذلك داعياً لي إلى إبداء الرأي بشأن تلك الديار. فمن ذلك أنني كنت في قيادة عسير من سنة ١٩٠٨ إلى أواسط سنة ١٩١٢، فشهدت بنفسي وقائع الإدريسي بأكملها من أولها إلى آخرها، ثم كنت في قيادة سوريا في الدور الأخير من حرب البلقان، فاطلعت على وقائع سوريا وعلى الرأي العام فيها، ثم توليت ولاية البصرة وقيادتها سنة ١٩١٣م [١٥].

وفي الوقت الذي كان والياً على ولاية البصرة وقائداً للفيلق العثماني المرابط فيها، فوضته الدولة العثمانية للتفاوض باسمها مع السلطان عبد العزيز ابن سعود، وقد نجح في التوفيق بين الدولة العثمانية وابن سعود وذلك بتأييد نفوذ الدولة في نجد وحفظ إمارة شمر لآل الرشيد. وتوصل إلى اتفاقية مع ابن سعود، ووقّع هو على الاتفاقية بصفته المفوض الأول عن الدولة العثمانية. ومن ذلك الحين وجهت الدولة العثمانية إلى السلطان ابن سعود رتبة الوزارة السامية وولاية نجد وقيادتها[١٦]. وبهذه المناسبة التقطت له صورة مع سعود بن عبد العزيز الرشيد أمير جبل شمر

---

[١٣] م. ن ص ٩٩٩.

[١٤] المذكرات، مجلة العرب جـ ١٢ سنة ٦ آب ١٩٧٢ ص ٩٥٤.

[١٥] المذكرات، مجلة العرب جـ ٩ سنة ٥ ص ٨٥٧ . ٨٥٨.

[١٦] م. ن ص ٨٥٧ . ٨٥٨ المقدمة.

وعجمي باشا السعدون (الزعيم العراقي المشهور) الذي كان له شأن كبير في حرب الإنكليز في العراق خلال الحرب العالمية الأولى، وحمد السعدون وناصر سبهان، وسعود سبهان من زعماء البادية، كما ظهر في الصورة أركان حرب سليمان شفيق باشا ومرافقوه وقد تزيّوا بزي البادية. وقد تم نشر الصورة في اللطائف المصورة في الصفحة الرابعة من عددها الصادر قبل ٨ ربيع الثاني ١٣٤٣ هـ (٥ نوفمبر / تشرين الثاني ٩٢٥م)[١٧].

ويبدو أن سليمان شفيق باشا علا شأنه وارتفعت منزلته بعد الإنجازات التي حققها في البلاد العربية، وأصبح من المقربين إلى جمعية الاتحاد والترقي التي تحكمت في الدولة العثمانية بعد انقلاب ١٩٠٨م، كما لم يفقد مكانته بعد فرار زعماء الاتحاد والترقي من تركية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، فأسندت إليه وزارة الحربية في سنة ١٩١٩م في وزارة داماد فريد باشا الثالثة، خلفاً لمصطفى ناظم باشا [١٨].

والمعروف أن الدولة العثمانية كانت تمر في هذا الوقت بظروف حرجة بعد خروجها منهزمة في الحرب العالمية الأولى، ودخول قوات الحلفاء إلى استانبول، فضلاً عن مواجهتها تحدياً كبيراً في الداخل تمثل في قيام مصطفى كمال بتحشيد القوى المحلية في الأناضول ضد الحكومة العثمانية. فأصبح سليمان شفيق باشا، باعتباره وزيراً للحربية، في مواجهة عسكرية مع مصطفى كمال وقواته ولا سيما بعد أن تلقى أمراً من رئيس الوزراء داماد فريد باشا في ٣ آب ١٩١٩ يدعوه لاتخاذ ما يلزم، للحيلولة دون تمكن مصطفى كمال من القيام بأي عمل ضد الحكومة، أو تحريضه الأهالي ضدها. وتسكت المصادر عن ذكر أي نشاط لسليمان باشا إزاء هذه المسألة، بل تكتفي بالإشارة إلى انه قام بتعميم هذا الأمر إلى مختلف الجهات[١٩].

واستمر سليمان شفيق في وزارة الحربية وهو يواجه هذا التحدي إلى أن استقال رئيس الوزراء داماد فريد باشا[٢٠]، وذلك في ٢ تشرين الأول ١٩١٩م [٢١] فترك وزارة الحربية، إلا أن دوره لم ينته

---

[١٧] م. ن، ص ٨٥٦

[18]Ali Fuad Turkgeldi, 234, Zeki Sarihan: Kurtulus Savasi Gunlugu, (T.T.K) Ankara, 1993, 1:390

[19]Kazim Ozalp, Milli Mucadelede 1919-1922, Ankara, 1988, 1:50

[20]Ibid, 1:59

بإبعاده عن الوزارة، بل تعاظم، ولا سيما بعد أن اختير قائداً عاماً لقوات الخلافة العثمانية المسماة (قواي انضباطية) [٢٢] والتي تأسست في مدينة آطه بازاري (بشمال شرق الأناضول) [٢٣] لمواجهة قوات مصطفى كمال الذي كانت تخشاه حكومة استانبول وتحسب له ألف حساب. ويبدو أن سليمان شفيق كان يقدر وضع مصطفى كمال الذي غدا بطلاً قومياً وازداد أنصاره يوماً بعد يوم، ولهذا كان يرى وجوب التفاهم معه[٢٤]. ألا أن مصطفى كمال كان يتهم سليمان شفيق وداماد فريد باشا بالتواطؤ مع اليونانيين وانهما يعدان العدة للقضاء عليه. وقد أورد اتهامه هذا في البرقية التي رفعها إلى مجلس المبعوثان العثماني المنعقد في استانبول بتاريخ ١٢/١/١٩٢٠م[٢٥].

وقد حاول مصطفى كمال جاهداً اعتقال سليمان شفيق باشا ورفاقه، بعد اتهامهم بالخيانة العظمى تجاه الوطن. ولهذا اصدر أوامره للحيلولة دون فرارهم إلى خارج تركيا[٢٦]. وبعد انتصار مصطفى كمال في (النضال الوطني) (١٩٢٢)، اعتبرت الحكومة الوطنية (ملي حكومت) ومجلس الأمة التركي مئة وخمسين شخصية من شخصيات الدولة العثمانية خونة للوطن، وذلك لثبوت خيانتهم تجاه الوطن، الأمر الذي يعني إعدامهم. وكان اسم سليمان شفيق يمثل التسلسل (١٨) في القائمة التي ضمت أسماء هؤلاء الـ ١٥٠، وقد وجد هؤلاء وبضمنهم سليمان شفيق باشا سبيل النجاة في الهروب إلى خارج البلاد. ويذكر الكاتب التركي فتحي تَوَه ت أوغلي، أن هؤلاء "الخونة " التجأوا إلى الإنكليز، فهربوا إلى الخارج[٢٧].

وبعد خروجه من تركيا، آثر سليمان شفيق العيش في البلاد العربية التي أحبها، معتبراً نفسه كواحد من أبنائها. ويبدو أن علاقته بالملك عبد العزيز بن سعود لم تنقطع، إذ اتصل (الملك) به

---

(21) Nutuk – Soylev, 1:261

(22) Tevfik Biyiklioglu; Trakyada Milli Mucadele, (T.T.K) Ankara, 1992 , 1:239, Fethi Tevetoglu: Milli Mucadele Yillarindaki Kuruluslar , Ankara 1991(T.T.K),91

(23) Mazhar Mufit Kansu: Erzurumdan Olumumune Kadar Ataturk´le Beraber, (T.T.K), Ankara, 1988, 2:376

(24) Tevfik Biyiklioglu, 1:239.

(25) Kazim Ozalp, 1:86

(26) Mazhar Mufit Kansu, 2:374

(27) Fethi Tevetoglu, 132-133.

بعد إدخال الحجاز تحت حكمه ، وعرض عليه العمل في حكومته الجديدة. وطبقا لما ذكرته ابنة المؤلف بريزات خانم فانّ والدها عاش في مصر ردحًا من الزمن بعد استقراره فيها، ثم اتصل به الملك عبد العزيز بن سعود ليعمل عنده، ولبّى طلبه فعمل في السعودية بين سنتي ١٩٢٤-١٩٢٩م مفتّشًا عامًّا.

ويقال أن أحد أثرياء مصر في ذلك الوقت وهو قليني باشا تزوج من ابنة سليمان باشا وكانت بارعة الجمال. وذكر كاتب مقدمة مذكرات سليمان شفيق انه سمع من الدكتور رمزي . الذي كان مدير الصحة في ينبع سنة ١٣٥٤ هـ . أن سليمان باشا "أصيب بداء الجذام، فكان يجري تجارب على القردة لبعض الأدوية وانه عالج نفسه فاستفاد بذلك "، كما ذكر أبو الحسن علي الطاهر صاحب جريدة الشورى "أنه شارك في حرب الحبشة ضد الطليان هو وطارق الأفريقي القائد المعروف[٢٨].

لم يرجع سليمان شفيق إلى تركيا إلا بعد شموله بالعفو العام الصادر بحق رجالات الدولة العثمانية وذلك في سنة ١٩٤١، وأمضى بقية عمره في استانبول حيث توفي في ١٣ شباط سنة ١٩٤٦م[٢٩].

---

[٢٨] المذكرات : مجلة العرب جـ ٩ سنة ٥ ص ٨٥٥ المقدمة.

[٢٩] للتفصيل عن حياته ينظر كذلك فاضل مهدي بيات، سليمان شفيق باشا في البلاد العربية، مجلة العرب ج ٣ - ٤، السنة ٤٢ ص ١٦٩ - ١٧٣، **يوسف حسن محمد العارف: أضواء على مذكرات سليمان شفيق كمالي باشا متصرف عسير، نادي أبها الأدبي، ١٤١١هـ ١٩٩٠م، ص٢٨- ٣٤**

مذكراته في جريدة الأهرام القاهرية

ويبدو أن ما قام به سليمان شفيق من إنجازات ومكاسب على الصعيدين السياسي والعسكري في الجزيرة العربية اكسبه شهرة واسعة ورسخ مكانته كشخصية عسكرية وسياسية فذة ظهرت نتائجه في توليه وزارة الحربية العثمانية في وقت اعتبر أحرج فترات التاريخ العثماني، فليس من المستغرب لكل ذلك، أن تطلب منه جريدة الأهرام القاهرية كتابة مذكراته عن الأحداث التي شهدها في الجزيرة العربية والبلاد العربية الأخرى. وبالفعل لبّى سليمان باشا طلب الجريدة وقام بإرسال مذكراته التي كتبها باللغة التركية إليها. أما سبب كتابة مذكراته بالتركية فيعود إما إلى معرفته المحدودة بالعربية الفصحى[٣٠] أو أن هذه المذكرات كانت معدة أصلاً باللغة التركية، إذ أن المعلومات الدقيقة التي ذكرها والأسماء التي أوردها لا يمكن أن يقوم بتدوينها بعد مرور حوالي خمسة عشر عاماً. وذكر معد هذه المذكرات للنشر في مجلة العرب أن محب الدين الخطيب هو الذي قام بترجمتها إلى اللغة العربية.

بدأت جريدة الأهرام بنشر هذه المذكرات اعتباراً من عددها ١٤٥١٩ الصادر في يوم الخميس ٦ ربيع الثاني سنة ١٣٤٣ هـ (٦ نوفمبر سنة ١٩٢٤م). ونشرت منها ٣٦ حلقة. وقد تم نشر الحلقة ٣٦ في العدد ١٤٥٧٦ الصادر في ٢٨ جمادي الآخرة سنة ١٣٤٣هـ (٢٣ يناير سنة ١٩٢٥) [٣١]، وحظيت هذه المذكرات باهتمام صاحب مجلة العرب المؤرخ المشهور الراحل حمد الجاسر وذلك لأهمية المعلومات الواردة فيها فأعاد نشرها معتمدة على الجذاذات التي جمعها خير الدين الزركلي من جريدة الأهرام، ونشرتها تحت عنوان : "بلاد العرب في مذكرات سليمان شفيق كمالي باشا "[٣٢] في ٢٤ حلقة، وقد نشرت الحلقة الأولى في العدد التاسع من السنة الخامسة أيار

---

[٣٠] يستدل مما أورده سليمان شفيق في رحلته، بأنه كان على معرفة الى حدٍ ما باللغة العربية، إذ أنه عندما كان في (الشيخ سعد) نجده يدعو أحد الواقفين حوله مبيناً رغبته لـه باللغة العربية (أنظر الرحلة ص ٦٨)، وينبغي ألا يستغرب من ذلك ولا سيما إذا عرفنا أنه كان يرافق والده عندما أصبح والياً في أكثر من ولاية عربية .كما أسلفنا.

[٣١] أنظر المذكرات، مجلة العرب جـ ٩ سنة ٥ ص ٨٥٦ – ٨٥٧ المقدمة.

[٣٢] ورد هذا الاسم محرفاً بشكل (كمال) في العدد الأول من المجلة (جـ ٩ سنة ٥ أيار (مايو) ١٩٧١ ص ٨٥٥)، وقد صحح في الأعداد التالية.

(مايو) ١٩٧١، أما الحلقة ٢٤ والأخيرة فتم نشرها في العدد العاشر من السنة السابعة أيار (مايو) ١٩٧٣م[٣٣]. ثم جمعها محمد بن احمد العقيلي في كتاب نشره تحت اسم "مذكرات سليمان شفيق باشا متصرف عسير"[٣٤].

ومما يجدر ذكره أن جريدة الأهرام توقفت عن نشر المذكرات في يناير ١٩٢٥م[٣٥]، ولا نعرف هل أن سويله مز اوغلو هو الذي توقف عن تزويد الجريدة ببقية المذكرات أم أن هناك سبباً آخر حال دون متابعة نشرها.

وذكر سويله مز أوغلي ذكر في معرض رده على مقترح صاحب جريدة الأهرام بشأن كتابة ما لديه من معلومات عن جزيرة العرب، أن ما شهد من حوادث خطيرة، كان داعياً له للتفكير ملياً بشأن تلك الديار[٣٦] كما مرّ، ولكن الذي يؤسف له أن سويله مز أوغلي لم ينشر من مذكراته هذه، سوى القسم المتعلق بالأحداث التي وقعت في لواء عسير خلال توليه المسؤولية الإدارية والعسكرية فيه.

وعلى الرغم من أن المعلومات المنشورة ضمن هذا القسم تتعلق بأحداث عسير وما يتعلق بها، إلا أننا نجد بين ثناياها آراء وملاحظات لا تتعلق بعسير فقط، بل بكل البلاد العربية. وهو يثبت هنا نفسه كمصلح أراد في البداية التقرب إلى الأهالي وتهدئة الأوضاع الساخنة التي شهدتها بعض المناطق، ومن ثم التوفيق بين الدولة العثمانية وأهالي هذه المناطق. كما قدم مقترحات قيمة لتحسين أوضاع البلاد العربية وتطويرها في ظل الدولة العثمانية، وأبدى طروحاته في الكيفية التي

---

(٣٣) يلاحظ أنه وقع خطأ في ترقيم هذه الحلقات، إذ وضع بعد رقم (١٥) (جـ ١ سنة ٧ آب (أغسطس / ١٩٧٢) رقم ٢٣ (في الجزء ٢ سنة ٧ أيلول ١٩٧٢) بدلاً من رقم (١٦). ولم تتنبه هيئة تحرير المجلة إلى هذا الخطأ إلا في العدد التاسع الصادر في السنة السابعة آذار (مارس) ١٩٧٣ فوضعت على الحلقة المنشورة فيه رقم ٢٣، ولهذا فقد تكرر الرقمان ٢٣ و٢٤.

(٣٤) محمد بن احمد العقيلي: مذكرات سليمان شفيق باشا متصرف عسير، نشر نادي أبها الأدبي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م

(٣٥) ذكر معد مذكرات سويله مز اوغلو، انه تصفح جريدة الأهرام من آخر يناير سنة ١٩٢٥ إلى نهاية إبريل (نيسان) من السنة نفسها، ولم ير فيها شيئاً عن المذكرات (أنظر مقدمة المذكرات جـ ٩ سنة ٥ ص ٨٥٦).

(٣٦) أنظر : المذكرات، مجلة العرب جـ ٦ سنة ٥ ص ٨٥٧.

يجب أن تكون عليها علاقة الدولة العثمانية بالعرب تحفظ لكلا الطرفين الحقوق والواجبات. ولأهمية هذه المعلومات والآراء والمقترحات التي أوردها سويله مز أوغلو في مذكراته، والتي جاءت ترسيخاً لآرائه التي سبق أن أوردها في رحلته، فقد آثرت التوقف عندها فيما بعد ضمن مبحث مستقل.

الرحلة وعرض محتوياتها

سمّى سويله مز أوغلي سليمان شفيق رحلته، كما ورد على غلافها، "حجاز سياحتنامه سي " أي "الرحلة الحجازية " أو "رحلة إلى الحجاز". والنسخة الفريدة منها محفوظة في مكتبة جامعة استانبول ضمن المخطوطات التركية وتحمل رقم (T4.4199) [(٣٧)]. وهي بلا شك نسخة الرحالة وذلك لورود المخططات والرسوم المائية فيها والتي رسمها الرحالة بنفسه. ولا تتضمن هذه النسخة خاتمة. ولم ترد في المقدمة أية إشارة إلى تاريخ النسخ، ولكن ورد على الغلاف تاريخ (١٧ ربيع الأول سنة ٣١٠ و٢٦ أيلول سنة ٣٠٨ دار الخلافة) (١٠ تشرين الأول / أكتوبر ١٨٩٢) أي بعد بدء الرحلة بثلاث سنوات. وقد يكون هذا التاريخ هو تاريخ البدء بنسخ المخطوطة أو الانتهاء منه. والمعروف أن الرحالة قد افصح في رحلته بأنه كان قد خصص "دفتر ضبط " ليدون فيه ما كان يشاهده خلال الرحلة[(٣٨)]، ولعل ما كان يدونه في هذا الدفتر لم يكن أكثر من رؤوس نقاط وملاحظات عامة. وتقع هذه النسخة في ٣٨٤ ورقة من القطع الكبير، بالإضافة إلى عشر صفحات تضم فهرسة تفصيلية للرحلة وما يتعلق بها. وقد وضعت في بداية المخطوطة. وورد في كل صفحة ١٥ سطراً. واستخدم في نسخ المخطوطة خط الرقعة.

وهذه الرحلة التي ألفها سويله مز أوغلي، كما هو واضح في الترجمة، عبارة عن مشاهدات الرحالة وانطباعاته عن المدن والمواقع الواقعة على طريق الحج السلطاني بدءاً من استانبول العاصمة وحتى الحرمين (مكة والمدينة). وقد بدأت هذه الرحلة في ١٣ رمضان سنة ١٣٠٧هـ (٣حزيران ١٨٩٠م) بإخراج الصرة السلطانية باحتفال مهيب في استانبول ونقلها إلى الباخرة

---

(٣٧) توجد نسخة مصورة منها في المكتبة الهاشمية بجامعة آل البيت وفي مكتبة إرسيكا باستانبول.

(٣٨) أنظر : الرحلة، ص ٢٥٧.

المخصصة لهذا الغرض لإيصالها إلى بيروت عن طريق البحر، وكما يرد في الرحلة أن الرحالة أسهب الكلام في وصف الاحتفالات التي كانت تقام لهذا الغرض في استانبول على النطاق الرسمي والشعبي، ويشارك فيها السلطان العثماني بنفسه، وكذلك الاحتفالات التي كانت تجري في القدم الشريف قرب دمشق لتوديع قافلة الحج. ولم يكتف الرحالة بوصف الاحتفالات فقط، بل وصف وصفاً دقيقاً كل ما يلفت انتباهه في الطريق السلطاني، خلال الرحلة من استانبول وحتى الحرمين الشريفين فنراه يصف الطريق والجبال والتلول والوديان والعيون والأنهار والمدن والبلدان والقرى والأهالي وبضمنهم العشائر ومعتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم والأوضاع العامة لكل منطقة من المناطق الواقعة على طريق الحج.

كما تتضمن الرحلة إضافة إلى كل ذلك مبحثين تاريخيين مستقلين خارج نطاق الرحلة وهما :

أ. تاريخ الوهابيين (من ص ٢٧٧ إلى ص ٣٥٦) ويتناول ظهور المذهب الوهابي وكيفية تشكيل حكومة نجد وتوسعها، وسيرة عبد الوهاب مؤسس المذهب.

ب. تاريخ جبل شمّر وعائلة آل الرشيد (من ص ٣٥٧ إلى ٣٨٤).

وأضاف الرحالة عشر صفحات إلى بداية الرحلة تتضمن محتويات الرحلة. وقد جاءت نقاطاً بارزة مفصلة لمراحل الرحلة وأوصافها والمواضيع التي تتضمنها، وقد سماها "مواد مندرجة " أي المحتويات، وهي كافية لتكوين فكرة عامة عن الرحلة، ثم تقويمها لبيان أهميتها لدراسة أحوال المناطق والأماكن التي زارها الرحالة من النواحي التاريخية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية ... الخ.

وفيما يلي عرض محتويات الرحلة وفق ما ذكرها الرحالة :

١ – التحرك من استانبول : معلومات وملاحظات متعلقة بـ (غليبولي).

٢ – نبذة عن قبرص.

٣ – مدينة بيروت، الكنعانيون، البضائع التجارية للكنعانيين، مخترعاتهم، معتقداتهم، نهايتهم.

٤ – حدود بيروت، مناخها، أهاليها، الجبال والأنهار، البحيرات، المياه المعدنية، الأشجار، المحاصيل الزراعية، الحيوانات البيتية، البضائع التجارية.

٥ – جبل لبنان.

٦ – مدينة الشام المعظمة (= دمشق) معلومات متعلقة بالمعارف في ولاية سورية، مكتبة دمشق، الحيوانات الأليفة الموجودة في سورية، الغابات.

٧ – المعادن، الفنون والتجارة.

٨ – عرض الصرة السلطانية في دمشق، إخراج المحمل، القدم الشريف، علم السعادة، المحمل الشريف.

٩ – التحرك من الشام بالقافلة والوصول إلى المنزل الأول المسمى خان دنون، أحوال الأراضي.

١٠– التحرك من خان دنون، أحوال الأراضي، قرية غباغب، أحوال الطريق، مدينة ثلاميس القديمة، تظلم العرب القرويين، الوصول إلى المنزل الثاني : كتبة أحوال الطريق، التحرك من هنا، قرية الشيخ مسكين.

١١– أحوال الطريق، الوصول إلى مزيريب، رسم قلعة مزيريب وبحيرتها، ملاحظات متعلقة بهذا المكان، سوق مزيريب، الأحوال غير الصحية في هذا المكان.

١٢– ذهابي منفرداً إلى شيخ سعد مركز سنجق حوران، معلومات متعلقة بالعساكر السلطانية والدرك والهجانة العرب المكلفين بالمحافظة على الصرة السلطانية. ثعبان قلعة شيخ سعد، رسم مسجد عمر، أحوال الطريق.

١٣– بحيرة مزيريب، فوج الخيالة الواصل إلى مزيريب، وفوج النقلية (البغال)، آراء شيوخ البدو في هذا الفوج.

١٤– التحرك من مزيريب، عدد الحجاج والحيوانات في قافلة الحج. أحوال الطريق. الوصول إلى قرية الطرة ومنزل الرمثا، أحوال وعادات أهالي الرمثا.

١٥- التحرك من الرمثا، سهل الرمثا، خريطة قرية مزيريب وسهل الرمثا، قلعة الفدين المهجورة، أحوال الأراضي والطريق، ملاحظات حول الحصول على الماء، الوصول إلى المرحلة المسماة خربة التمر.

١٦- خربة التمر، وادي الضليل، خريطة وادي الضليل، أحوال الأراضي والطريق، الوصول إلى منزل عين الزرقاء، دعوتنا إلى مضارب البدو وتوجهنا إليها، نهر عين الزرقاء، ملاحظات حول عين الزرقاء.

١٧-التحرك من عين الزرقاء، المرور من عقبة الشرشروح، خربة قلعة الرمدان، مقتول في السابق، وادي النقيرة، سهل البلقاء، بلدات زيزيا والمشتى العتيقة والمتهدمة، الوصول إلى قلعة البلقاء.

١٨- العكّامة الخيّامون، التحدث إلى شيخ عربي، ملاحظة حول العشائر العربية، تدابير بشأن توفير الماء، قلعة وحوض البلقاء، ملاحظات حول محافظي القلاع، احترام البدو للمحمل الشريف واعتقادهم به.

١٩-التحرك من قلعة البلقاء، أحوال الأراضي والطريق، المرور من أرض كنعان، الوصول إلى قلعة قطرانه.

٢٠- قلعة وحوض قطرانه، رسم قلعة قطرانه والمحمل الشريف.

٢١- التحرك من قلعة قطرانه، أحوال الأراضي والطريق، وادي الغول، الوصول إلى قلعة الحسا، جبال الكرك، أهالي المنطقة الذين نصفهم مسلمون ونصفهم الاخر نصارى، إفادات شيوخ هذا المكان، انتشار الجزويت، الوصول إلى قلعة الحسا.

٢٢- التحرك من قلعة الحسا، أحوال الطريق، وادي موسى، الوصول إلى قلعة العنيزة.

٢٣- زيارة قلعة العنيزة المهجورة، تهدم حوضها، التحرك من العنيزة، المرور من وادي السوادين[٣٩]، الوصول إلى معان.

---

[٣٩] في الأصل (اللوادين).

٢٤- قصبة معان، رسم معان الشامية، مهارة أهل معان في التهديف، أسلحتهم، أسباب ترك أهالي معان الزراعة، الموقع الجغرافي لمعان وأهميته في الوقت الراهن.

٢٥- قلعة الجوف في وادي سرحان والواقعة تحت حكم ابن الرشيد أمير شمّر، القلاع والعيون الموجودة في معان.

٢٦-قرية ونهر شورا الواقعان غرب معان، عشائر مهر التي تمضي مواسم الصيف هنا، خريطة معان، جدول بأسماء العشائر المتنقلة بجوار معان.

٢٧- التحرك من معان، وادي موسى، بئر الشيدية، المرور من وادي القلعة والوصول إلى وادي العقبة، أحوال الأراضي، الوصول إلى مضيق عقبة الشامية.

٢٨- معلومات مختصرة عن الجزيرة العربية، نبذة عن المذاهب الرئيسة المنتشرة في الجزيرة العربية: مذهب الشيعة، ومذهب الخوارج، ومذهب الزيدية، أسماء العشائر الرئيسية التي تدين بهذه المذاهب.

٢٩- العبور من عقبة الشامية والدخول إلى صحراء الجزيرة العربية المسماة نفود، منزل بطن الغول، الحادثة الغريبة لفتاة وجدت في الصحراء، خريطة وادي القلعة والعقبة، جبال الهراة، سمح البرية وهو نوع من العشب المالح ذي البذور، نوع من الثعابين المسمى سمناك، نوع من العنكبوت، رسوم جبال الهراة المأخوذة من منزل بطن الغول.

٣٠- التحرك من منزل بطن الغول، أحوال الأراضي والطريق والعشائر الساكنة في هذه الأرجاء، الوصول إلى قلعة المدورة، معلومات متعلقة بهذه الأرجاء، رسوم هذه القلعة.

٣١- التحرك من قلعة المدورة، رسم واجهة قلعة المدورة، الوصول إلى قلعة ذات الحج، معلومات متعلقة بهذه الأماكن، رسم المعسكر، الباعة المرافقون لقافلة الحج، صد تعرض البدور للمعسكر، ملاحظات متعلقة بنظام قوافل الحج وتنظيمها وحسن محافظتها، التحرك من قلعة ذات الحج، الوصول إلى منزل قاع الصغير.

٣٢- أصول حمل الماء في قافلة الحج، ملاحظات في هذا الخصوص، التحرك من قاع الصغير، أحوال الأراضي، رسم سلسلة الجبال المسماة منبر الرسول، الوصول إلى تبوك ... الخ.

ومن خلال هذا الفهرست من الممكن وبسهولة رسم الطريق الذي سلكه الرحالة بدءاً من استانبول إلى بيروت بحراً ومنها إلى الحرمين براً عبر دمشق والمحطات والمنازل الواقعة في شرقي الأردن.

وعند العودة لم يسلك الرحالة الطريق نفسه، بل استقل سفينة إلى مصر ومنها إلى استانبول، إذ يذكر في الرحلة أنه في ١٤ أيلول ترك مكة المكرمة بسبب وفاة والدته وتفشي مرض الكوليرا فيها، وسافروا إلى جده، واضطر إلى البقاء هنا حتى ٢٥ تشرين الأول حيث حصل على الشهادة الصحية، فاستقل سفينة تابعة للشركة الخديوية إلى السويس، ومنها سافر إلى الإسكندرية بالقطار. وهنا يبدي إعجابه بالأراضي (المعمورة) الواقعة على الطريق وتقسيمها الجميل بواسطة الجداول، ثم يبدي أسفه لقيام الإنكليز بشراء المزارع الغنية يوماً بعد يوم بدفعهم مبالغ طائلة اكثر من قيمتها الحقيقية. وبعد أن مكث في الإسكندرية حوالي ثلاثة أيام في أحد فنادقها، ركب السفينة المسماة (دقهلية) التابعة للشركة الخديوية، وتوجه إلى استانبول حيث وصل ميناءها في يوم الاثنين من شهر تشرين الثاني وبهذا "انتهت الرحلة بنجاح" [٤٠].

---

[٤٠] أنظر الرحلة، ص ٢٧٠ . ٢٧٣.

منهج سويله مز أوغلي في الرحلة

أعدّ سويله مز أوغلي رحلته على شكل مذكرات يومية، ولهذا نراه عندما يصل إلى مكان ما أو ينطلق منه، يبدأ بالتاريخ فيثبت اليوم والشهر والسنة، وغالباً ما الساعة والدقيقة. ولهذا فائدة كبيرة إذ يبين عادة المسافة التي تقطعها القوافل ولا سيما قوافل الحجاج من منزل إلى آخر، أو من مكان إلى آخر. وفضلاً عن هذا يذكر أحياناً المسافة بين منزل وآخر أو منطقة وأخرى بالساعات أو بالكيلومترات أو بالاثنين معاً.

لم يهتم سويله مز أوغلي عند تدوين مشاهداته بشيء معين، بل حظي باهتمامه كل ما كان يشاهده أو يتوقف عنده : طبيعة الأرض، صخرية كانت أم سهلية، مستوية أم متعرجة.. الخ. الجبال، الأنهار : بدءاً من منابعها إلى مصابها وكمية المياه الموجودة فيها وهنا يقيس كمية المياه بالديسمتر آخذاً قطرها بنظر الاعتبار، الأحواض وأبعادها، الغابات والأشجار الموجودة فيها، المحاصيل الزراعية، المناخ ولا ينسى هنا الحالة الجوية للأماكن التي يمر بها إذ يذكر درجات الحرارة عند وصول القافلة إلى مكان من الأماكن. ولهذا أهمية كبيرة بالنسبة للأجواء الجوية إذ بواسطة البيانات التي ذكرها بهذا الصدد، يمكن معرفة مناخ المنطقة قبل قرن من الزمان والتغييرات التي طرأت على درجات الحرارة، وقلما نجد مثل هذه المعلومات في المصادر الأخرى.

وفضلاً عن كل ذلك أولى سويله مز أوغلي اهتماماً بالحيوانات الموجودة في الأماكن المختلفة متناولاً أنواعها، ووصفها وصفاً دقيقاً مبيناً ألوانها وأحجامها وأطوالها.. الخ.

كما تناول الأهالي وتوقف عند عاداتهم وتقاليدهم وأوضاعهم العامة وكل ما يثير انتباهه وذكر العشائر الموجودة على الطريق السلطاني، وكذلك المواد التجارية التي تتعامل بها كل مدينة أو قصبة من المدن والقصبات التي زارها وأهم المعادن والمصنوعات التي تشتهر بها هذه المدن.

ونجده يقدم أحياناً معلومات دقيقة عن مرفق من مرافق الأماكن التي زارها. ونذكر هنا على سبيل المثال المعلومات المتعلقة بالمعارف في ولاية سورية، إذ أورد إحصائيات مهمة عنها، فذكر أن فيها عند زيارته لها 394مدرسة للمسلمين تضمن ١٤٦١٩ تلميذاً وذكر أن :

أ. إحدى هذه المدارس عسكرية وثلاث منها إعدادية تضم ١٧٣ تلميذاً،

ب. 18 مدرسة رشدية عسكرية وملكية (مدنية) فيها ١٠٩٤ تلميذاً،

ج. 362 مدرسة ابتدائية للذكور فيها ١٢٧٢٦ تلميذاً.

د. 11 مدرسة خاصة بالإناث فيها ٦٢٦ تلميذة.

وجميع هذه المدارس كانت خاصة بالمسلمين فقط. أما ما يتعلق بالنصارى فذكر أن لهم في ولاية سورية 195 مدرسة بين صغيرة وكبيرة فيها ٩٠٢٥ تلميذاً، وذكر أن :

أ. 32 منها مدرسة عالية، فيها ٢٠٦٥ تلميذاً،

ب. 13 مدرسة من هذه المدارس العالية للإناث فيها ١٦٥٥ تلميذة،

ج. 129 مدرسة ابتدائية للذكور فيها ٤٢٤٥ [٤١] تلميذاً،

د. 21 مدرسة للإناث فيها ١١٦٠ تلميذة.

فيكون عدد الذكور في المدارس النصرانية ٦٢١٠ [٤٢] وعدد الإناث ٢٨١٥.

وبعد أن يورد كل ذلك، يجري مقارنة بين مدارس المسلمين ومدارس النصارى، فيذكر نسبة الذكور إلى الإناث، ففي مدارس النصارى يقابل كل تلميذين تلميذة واحدة، أما في مدارس المسلمين فيقابل كل ٢٣ تلميذاً تلميذة واحدة[٤٣].

وكان سويله مز مغرماً بمشاهدة المواقع الأثرية، إذ يلفت انتباهه كل المواقع الواقعة على الطريق ويولي اهتماماً خاصاً بها، فنراه يتقدم القافلة في سبيل الوصول إلى خربة للتمتع بمناظرها فيتفقدها ويقضي فيها مدة من الزمن، يتجول فيها ويتفحص فنونها المعمارية، ويصفها وصفاً دقيقاً ثم يقوم برسمها بفرشاته أو عمل مخطط لها ولا ينسى ذكر أبعادها بالمتر والسنتمتر.

---

[٤١] يحتمل انه ٤١٤٥، أنظر هامش ٣، ص ٦٩ من قسم الرحلة.

[٤٢] هكذا ورد في الأصل، والصحيح ٦٣١٠.

[٤٣] الرحلة ٣٤ – ٣٥.

والحقيقة أن سويله مز أوغلو لم يكتف بتدوين مشاهداته بالقلم، بل استعان بفرشاته ليرسم الأماكن والقلاع والجوامع والأحواض التي مرّ بها وتفقدها. وقد أفصح أحياناً عن هذا، فعلى سبيل المثال لا الحصر، نجده عندما كان في الشيخ سعد يذكر قائلاً : "ورسمت من شاطئ البحيرة، المعسكر وقلعة سنان باشا وقسماً من الجزيرة "[٤٤]. والرسوم التي رسمها في المخطوطة هي بالألوان المائية[٤٥]. وفي المخطوطة ما يقارب من أربعين صورة وخريطة. نذكر منها ما يتعلق ببلاد الشام والأردن : منظر الواجهة الأمامية لمسجد عمر في مدينة ثلاميس بسنجق الشام (بعد ص ٥٦)، منظر قلعة مزيريب وبحيرته (بعد ص ٥٨)، مخطط قرية الشيخ سعد (بعد ٦٤) رسم مسجد عمر في الشيخ سعد (بعد ص ٦٨)، مخطط مدينة مزيريب (بعد ص ٧٤)، مخطط يبين موقع قلعة عين الزرقاء ووادي عين الزرقاء ويظهر فيه موقع مضارب البدو (بعد ص ٨٢)، مخطط قلعة قطرانة مع مخطط الأحواض الموجودة خارجها (بعد ص ٨٤)، مخطط قلعة البلقاء (بعد ص ٨٨)، رسم قلعة قطرانه (بعد ص ٩٠)، رسم محلة معان الشامية بمعان (بعد ص ٩٦)، مخطط مدينة معان حيث يظهر فيه موقعا محلة معان الحجازية ومعان الشامية (بعد ص ١٠٢).. الخ[٤٦]. ولم ينس الرحالة عند رسم الخرائط أو المخططات بيان مقياس الرسم لكل منها.

وعلى الرغم من كل ذلك لم يتوقف سويله مز أوغلي عند حدود الرحلة : يصف ما يشاهده ويعبر عن انطباعاته عن مكان من الأماكن أو وضع من الأوضاع فقط، بل تجاوز ذلك إلى إبداء آراء وملاحظات ومقترحات قيمة تتعلق بالأوضاع غير الطبيعية التي كانت تعيشه بعض الأماكن التي زارها وتوقف عندها ولفت انتباهه، وهذا ما يضفي إلى الرحلة أهمية استثنائية ويعطيها ميزة خاصة. ولهذا سنتوقف عند هذه الآراء والملاحظات ونتناولها . فيما بعد . في مبحث مستقل.

استند سويله مز أوغلي فيما يتعلق بما أورده في الرحلة، على مشاهداته الميدانية لكل الأماكن والمواقع التي زارها خلال الرحلة، ولكننا نجده أحياناً لا يكتفي بمشاهداته أو انطباعاته عما زاره،

---

[٤٤] الرحلة ص ٧١.

[٤٥] خليل ساحللي أوغلو : مخطوطات عن الجزيرة العربية، مجلة العرب، الرياض، ١-٢سنة ١٢، حزيران و آب ١٩٧٧ ص١٢٧، وانظر كذلك :

Sadettin Buluc: Turkce yazma iki Seyahatname, IX. Turk Tarih Kongresi, Ankara, 1989, 3:1513

[٤٦] وضعت قسماً من هذه الرسوم والمخططات مع ترجمة الرحلة.

بل يذكر أحياناً معلومات تاريخية تتعلق بذلك، ولهذا نراه يعتمد على مصادر في هذا الخصوص. فيشير إلى المصدر التاريخي الذي استقى منه معلوماته، فعند تناوله سور المدينة المنورة مثلاً يشير إلى الفيروز أبادي الذي يعتبره من (المؤرخين العرب) فيقول : ".. **استناداً إلى رواية الفيروز آبادي وهو من المؤرخين العرب، فانه بدئ ببناء سور المدينة في سنة ٣٦٣ أو ٣٦٨ هـ وذلك من قبل عضد الدولة..** "[٤٧].

ويبدو أنه كان على إطلاع واسع بالمصادر التاريخية العربية، ويستدل هذا مما ذكره عن مدينة جدة حيث يقول : "أن هناك اختلافاً كبيراً بين المؤرخين العرب فيما يتعلق ببداية بناء مدينة جدة، وعلى الرغم من هذا، فان ما ذكره المقريزي يحظى بالاعتماد، أكثر من الآخرين، مما ذكر في هذا الخصوص.." [٤٨].

وكان سويله مز أوغلي يسعى لأن يكون أميناً ودقيقاً في نقله أو ذكره للمعلومات. وكيف لا، وهو يفكر مسبقاً بأنه سيقدم عمله هذا إلى السلطان العثماني، فنراه يقر في رحلته : "ان الوقائع والأحوال المتعلقة بالجزيرة العربية ولا سيما بالحجاز، قد تم تدوينها بعد دراسة وتحقيق.."[٤٩] ، ولهذا كان يسعى دائماً إلى الحصول على المعلومات الموثوقة، فعندما كان في الحجاز انتشر وباء الكوليرا، ولكي يعرف أسباب ظهوره وانتشاره وانتقاله إلى المناطق المجاورة نراه يقول : "**استناداً إلى المعلومات الموثوقة التي جمعتها في هذا الصدد وما أفاد به الأطباء الحاذقون الذين أمضوا مدة طويلة في بلاد الحجاز..** "[٥٠]

وكان يريد التعرف على كل المناطق التي يمر فيها، ولا يتوانى عن طرح الأسئلة على أهالي المنطقة عن أي شيء يريد معرفته للوصول إلى الحقيقة، فيأخذ بنظر الاهتمام كل ما يروى عن قلعة أو حوض أو أي مكان، ولا يستبعد روايات البدو أيضاً [٥١].

---

[٤٧] الرحلة : ١٨٩.

[٤٨] م. ن : ٢٥٢.

[٤٩] م. ن : ٢٥٧.

[٥٠] م. ن : ٢٨٨.

[٥١] أنظر مثلاً ص ١٣٨ من الرحلة

وكان سويله مز أوغلي يدوِّن رؤوس نقاط أو ملاحظات عما كان يشاهده على أرض الواقع، فيسجلها في (دفتر) خصصه مسبقاً لهذا الغرض(٥٢).

ومما يجدر ذكره هنا فانه استخدم عند توثيقه الأحداث التاريخ الرومي/ المالي وهو التاريخ الرسمي للدولة العثمانية في ذلك الوقت وليس كما ذكر محمد بن احمد العقيلي بـ"أن صاحب المذكرات يؤرخ بالتاريخ الهجري التركي أو بالأصح العثماني." (٥٣) فليس هناك تاريخ هجري تركي أو عثماني، وكان على الباحث أن يلاحظ أن التاريخ الوارد في المذكرات (ص ٤٣) يتضمن شهر تشرين الأول وهو يقابل أكتوبر وهو من الأشهر الميلادية. والمعروف أن العثمانيين استخدموا أسماء الأشهر الميلادية في تاريخهم الرومي (وهي أسماء الأشهر نفسها المستخدمة اليوم في العراق وبلاد الشام) وتقيّدوا بأسماء الأشهر العربية ولم يغيروا منها أي شيء، واستخدموها في اغلب الأحيان إلى جانب التاريخ الرومي.

لماذا كتب سويله مز أوغلي رحلته :

يستدل من كل ما ذكرناه أن سويله مز أوغلي شأنه شأن جميع الرحالين، دوّن مشاهداته وانطباعاته عن الأماكن التي زارها، ولكنه لم يتوقف عند هذا الحد، بل تميّز عن الآخرين في :

أ. إلحاقه بالرحلة مبحثين تاريخيين عن الحركة الوهابية وإمارة آل الرشيد المار ذكرهما.

ب. إبدائه ملاحظات وآراء عن المناطق والأماكن التي مر بها.

وقبل أن نتناول هذه الملاحظات والآراء. نتساءل لم هذه الملاحظات والآراء؟ لقد افصح الرحالة عن هذا في مستهل رحلته، حيث اختصر منهجه وما يصبو إليه من كتابة هذه الرحلة على النحو التالي :

---

(٥٢) أنظر ص ٢٥٧ من الرحلة.

(٥٣) انظر هامش ٢ ص٤٣ من كتابه: مذكرات سليمان شفيق باشا

"إن هذه الرحلة، لما تحتويه من المواد، لائحة لمهمة خاصة أكثر من كونها رحلة، تجرأت عرضها وتقديمها إلى العتبة السلطانية وليس طبعها ونشرها "[٥٤] والمقصود بالعتبة السلطانية هنا مقر السلطان عبد الحميد الثاني . وذلك ليطلعه على أوضاع الجزيرة العربية بشكل عام، والحجاز بشكل خاص[٥٥].

ويرى الدكتور عبد الفتاح حسن أبو عليه الذي نشر مقتطفات من المبحثين التاريخيين أن المعلومات التي أوردها الرحّالة في هذا الجزء من مخطوطته أي الخاص بالجزيرة العربية جاءت "على شكل تقرير رفعه إلى السلطان عبد الحميد الثاني ليطلعه على الأوضاع العامة في الجزيرة العربية. من هنا فان المؤلف لم يلجأ إلى ترتيب معلوماته وتبويبها على شكل فصول أو أبواب، وليس على شكل حوادث مرتبة على الطريقة الحولية كما كان يفعل بعض من دونوا الأحداث التاريخية في عصره، بل اكتفى بوضع كلمة "استطراد" في منتصف السطر عند الكتابة في موضوع جديد كأداة فصل وتمييز. وتأسيساً على منهجية المؤلف في التدوين فإننا نقرر أنه لم يدر في خلد المؤلف أن تشكل معلوماته هذه كتاباً مطبوعاً، وإنما كان جل اهتمامه أن تشكل هذه المعلومات تقريراً مفصلاً عن أحوال الجزيرة العربية : السياسية والاقتصادية والدينية، يرفعه إلى السلطان عبد الحميد الثاني ليشبع رغبته في دعم مشروعاته الرامية إلى تقوية أواصر القربى والتقارب بين الولايات العثمانية في الدولة الأم من جهة وتقوية أواصر العلاقة بين الترك والعرب من جهة أخرى، بخاصة بعد قيام العديد من الحركات والمحاولات الرامية إلى تقويض دعائم الحكم العثماني في الولايات العثمانية العربية " [٥٦].

وقبل أن نعود إلى كلام الرحالة الآنف الذكر، أرى أن أتوقف قليلاً عند ما ذكره الدكتور أبو عليه، إذ يبدو لنا من هذا الطرح أن الدكتور (أبو عليه) لم يطلع من رحلة سويله مز أوغلي إلا على القسمين المتعلقين بالحركة الوهابية وإمارة آل الرشيد اللذين جاءا على شكل مبحثين مستقلين

---

[٥٤] الرحلة، ص ١.

[٥٥] خليل ساحللي أوغلو : مخطوطات عن الجزيرة العربية، ص ١٢٦.

[٥٦] أبو عليه، د. عبد الفتاح حسن، دراسة حول المخطوط التركي "حجاز سياحتنامه سي "، الرياض ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ ص ٨.

لا يمتان بصلة بالرحلة أو بأسلوب الرحالة في تدوين الرحلة من استانبول إلى الحرمين الشريفين، وهو بهذا لا يخرج عن المألوف في الرحلات الأخرى. أما قسما الحركة الوهابية وإمارة آل الرشيد فقد ألحقهما المؤلف بالرحلة لعلاقتهما بما كان يجري من أحداث في الجزيرة العربية في الوقت الذي قام الرحالة برحلته. ولهذا فإني أستغرب أشد الاستغراب من قيام الدكتور (أبو عليه) بتوجيه النقد إلى الرحالة لأنه "لم يلجأ إلى ترتيب معلوماته وتبويبها على شكل فصول أو أبواب، ولا على شكل حوادث مرتبة على الطريقة الحولية.. الخ ."

وعلى الرغم من اعتبارنا الرحلة، بمجملها، تقريراً أعده الرحالة ليقدمه إلى السلطات العثمانية وعلى وجه الخصوص إلى السلطان عبد الحميد، إلا أنها (أي الرحلة) تبقى رحلة دونت على غرار الرحلات الأخرى. كما ينبغي أن نذكر أن القسمين المتعلقين بالحركة الوهابية وإمارة آل الرشيد لم يأتيا كحادثتين تاريخيتين لكي يدوّنهما الكاتب على غرار (الطريقة الحولية) بل جاءا كمبحثين تاريخيين شاملين مستقلين عن قصد.

وبعد كل ذلك نتساءل: هل أن سويله مز أوغلي كان مكلفاً بكتابة تقرير عن رحلته ليقدمها إلى السلطان العثماني؟ أم أنه أعدها وقدمها طواعية من عنده؟ إن ما يستشف من الرحلة ولا سيما من بدايتها، نجد أن سويله مز أوغلي قام بمرافقة والده بعد أن انتدب لأمانة الصرة السلطانية، أي أنه استغل تعيين والده في هذه الرحلة فرافقه. ولو كان قد عيّن للقيام "بمهمة خاصة " لذكر ذلك دون تردد. هذا من جهة ومن جهة أخرى ذكر في مستهل رحلته أنه "تجرأ عرضها وتقديمها إلى العتبة السلطانية" أي رغبة منه لاطلاع المسؤولين العثمانيين ولا سيما السلطان عبد الحميد الثاني على أوضاع البلاد العربية في بلاد الشام والحجاز. ولكل ذلك يُستبعد أن يكون قد كلف مسبقاً بكتابة أي تقرير عن أوضاع المنطقة. ومما يؤكد هذا، أن سويله مز أوغلي عرف بوطنيته وحرصه الشديد على تطوير الدولة وتحسين أوضاعها المختلفة، ولهذا فانه اعتبر إطلاع المسؤولين على الأوضاع غير الطبيعية السائدة في بعض أجزاء البلاد، وتقديم مقترحات بشأن تطويرها واجباً لا يمكن التخلي عنه. وقد تبلور هذا بشكل أكثر في المذكرات التي نشرها لاحقاً والتي سنتوقف عند قسم منها.

كما ينبغي ألا يغرب عن بالنا بعد كل ما ذكرناه، أنه لو كان مكلفاً بعرض ما توصل إليه في رحلته (أو مهمته) على المسؤولين وبخاصة على السلطان عبد الحميد، لكان قدّمه على شكل تقرير وليس على شكل مذكرات يومية مطولة.

الباحثون والرحلة:

لم يول أحد من الباحثين اهتماماً بمخطوطة سويله مز أوغلي إلا في أواخر السبعينات من هذا القرن عندما أبرز الباحث التركي الدكتور خليل ساحللي اوغلو أهميتها لأول مرة، وذلك في بحثه الموسوم "مخطوطات عن الجزيرة العربية في مكتبة جامعة استانبول " والذي قدّمه في الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية التي نظمها قسم التاريخ والآثار بكلية الآداب بجامعة الرياض في الفترة ما بين ٥ -١٠ جمادي الأولى من سنة ١٣٩٧ هـ الموافق ٢٣- ٢٨ أيلول ١٩٧٧م [٥٧]. واعتبرها ساحللي أوغلو "من أطرف " ما في مجموعة الرحلات والمنازل والمناسك" التي تتضمنها مكتبة جامعة استانبول[٥٨].

وإثر تعريف الدكتور ساحللي اوغلو للمخطوطة، قام الدكتور عبد الفتاح حسن أبو علية بإجراء دراسة حول المخطوطة بعد أن تعرف عليها عن طريق ساحللي اوغلو، إلا أنه لم يأخذ كل المخطوطة بنظر الاعتبار بل لم يأخذ منها سوى المبحثين التاريخيين المتعلقين بالحركة الوهابية وإمارة آل الرشيد. ونظراً لجهله اللغة التركية فقد كلّف الأستاذ التركي الدكتور سليمان آتش بترجمة هذا القسم. وكان الأستاذ آتش يعمل حينذاك أستاذا بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض[٥٩]. وعلى الرغم من أن (أبو عليه) ذكر في المقدمة بأنه سيتناول الجزء الخاص بالجزيرة العربية من هذا المخطوط[٦٠]، وانه يستهدف "من هذه الدراسة الكشف عن محتوى

---

[٥٧] نشر هذا البحث فيما بعد في مجلة العرب جـ ١ . ٢ السنة ١٢، حزيران /آب ١٩٧٧ ص ١٢٣ وما بعدها.

[٥٨] م. ن ص ١٣٦.

[٥٩] أنظر عبد الفتاح حسن أبو علية : دراسة حول المخطوط التركي ص٧.

[٦٠] م. ن ص ٨.

هذا المخطوط وما ورد فيه من معلومات عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والدولة السعودية في مرحلتيها الأولى والثانية، وعما ورد من معلومات عن مناطق الجزيرة العربية الأخرى ذات الصلة باهتمامات المؤلف"[٦١]، إلا أنه لم يقتصر فقط على القسم المتعلق بالوهابية، بل ترك الجزء الأكبر من هذا القسم وأغفل أحياناً صفحات دون أن يتطرق إليها. ولم يذكر أي سبب لذلك. وكانت الأمانة العلمية تقتضي ألا يترك منه أي شيء، طالما أنه وجد من يترجم له النصوص بكاملها ومن ثم وضع نفسه مدافعاً عن الحركة الوهابية. وفضلاً عن كل ذلك فانه ذكر ضمن منهجه في الدراسة: "التقيّد بما ورد في النص العربي أو بالأحرى بما ورد في الترجمة العربية للمخطوط.. " و"عمل ملحق في آخر الدراسة يضم أوراق المخطوط في صورته التركية ثم الترجمة العربية لها [٦٢]. والحقيقة أن الباحث تقيّد بما ورد في الترجمة العربية للعينات المختارة من القسم الخاص بالوهابية وإمارة شمّر من المخطوط، إلا أنه لم يضع في الملحق غير صور الصفحات من ٢٧٧ إلى ٣٥٦ من المخطوطة أي دون ترجمتها العربية. وبعد كل هذا ناقض الباحث نفسه حينما ذكر فيما بعد: "ويبدأ الجزء الذي أتناوله بالدراسة بالورقة (٢٧٧) وينتهي بالورقة رقم (٣٨١). ويحمل هذا الجزء عنواناً له هو " ظهور المذهب الوهابي وتأسيس الدولة النجدية وتوسعها، وترجمة حياة زعيم المذهب ابن عبد الوهاب " [٦٣].

ويبدو أن البحث الذي ألقاه الباحث التركي خليل ساحللي أوغلو في الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية المار ذكره، لم يترك أي صدى إلا على نطاق ضيق. إذ ظلت رحلة سويله مز أوغلي غير معروفة عند الباحثين الأتراك، رغم كونها محفوظة في مكتبة جامعة استانبول التي تعتبر أكبر جامعات تركيا، إلى أن تناولها الباحث التركي سعد الدين بولوج في بحثه المعنون "رحلتان مخطوطتان بالتركية "الذي ألقاه في مؤتمر التاريخ التركي التاسع الذي انعقد في استانبول في الفترة بين ٢١-٢٥ أيلول ١٩٨١. وقد عرض للرحلة عرضاً سريعاً، إلا أنه لم يذكر

---

[٦١] م. ن ص ٩.

[٦٢] م. ن، ص ١٠.

[٦٣] م. ن، ص ١٤.

عن الرحالة أي شيء سوى ما ورد في الرحلة، واكتفى بنقل مقتطفات منها. وذكر أنه طبقاً لما أجرى من دراسات فان هذه الرحلة ما زالت غير معروفة(٦٤).

وعلى الرغم من الأهمية التي حظي بها سليمان شفيق وتوليه مهاما ومسؤوليات مهمة في الدولة العثمانية وإنجازه عدة مؤلفات مميزة، إلا أنه لم تسلط عليه أضواء كافية من قبل الدارسين إلى أن تولت ابنته بريزات برين بنشر مذكراته عن الانقلاب العثماني(٦٥). ثم قامت إحدى طالبات الدراسات العليا بإجراء دراسة ماجستير عنه(٦٦).

ثم ازداد الاهتمام بسليمان شفيق باشا في السنوات الأخيرة حتى نجد أن نادي أبها الأدبي يتولى نشر كتاب ثان عنه بعد كتاب العقيلي وهو: "أضواء على مذكرات سليمان شفيق كمالي باشا متصرف عسير"، لمؤلفه يوسف حسن محمد العارف الذي أعاد فيه صياغة المذكرات من أسلوب المتحدث إلى أسلوب الغائب، مفصلا في التعريف ببعض المواقع وسرد الأحداث(٦٧).

كما أثارت الرحلة انتباهي أنا العبد الفقير بعد أن اكتشفتُها عن طريق الصدفة، وذلك عندما كنت أستاذا في قسم التاريخ الإسلامي بجامعة آل البيت الأردنية، فتولّيت ترجمة القسم المتعلق ببلاد الشام مع إجراء دراسة وافية عن المؤلف ورحلته ومذكراته.

---

(64) Sadettin Buluc, III. Cilt, p. 1512 – 1513

(٦٥) نشرت هذه المذكرات بالحروف التركية الحديثة:

Suleyman Sefik Pasa, Hatiratim, Basima Gelenler ve Gorduklerim, 31 Mart vak’asi, aktaran, Humeyra Zerdeci, İstanbul, 2004

(66) Serife Ozkan, Yuzellilikler and Suleyman Sefik Kemali: A legitimacy and Security Isssue, University of Bogazici, Institute of Ataturk, Master Thesis , 2005

هذا الكتاب عبارة عن رسالة ماجستير تحت عنوان: "سليمان شفيق باشا والمائة الخمسينيون "تقدمت بها شفيقة اوزقان إلى جامعة بوغاز إيجي (البسفور) في استانبول، والمائة الخمسينيون هم ابرز شخصيات العهد الأخير من الدولة العثمانية والذين صدر الحكم بإعدامهم بعد تولي مصطفى كمال الحكم، وكان سليمان شفيق باشا واحدا منهم.

(٦٧) يوسف حسن محمد العارف: أضواء على مذكرات سليمان شفيق كمالي باشا متصرف عسير، نادي أبها الأدبي، ١٤١١هـ ١٩٩٠م،

العرب والبلاد العربية في منظور سويله مز أوغلي

لم تكن صلة سليمان شفيق بالعرب صلة عادية، بل ودية بدأت في مقتبل عمره، وقد أفصح عن ذلك بنفسه قائلاً: "كانت لي صلة ود قلبي مع الأمة العربية من حداثة سني، لأن والدي المرحوم على كمال باشا كان والياً على طرابلس الغرب وبنغازي أيام فتوتي، وكنت ضابطاً في مقتبل العمر. فصحبته من دمشق إلى مكة المكرمة من طريق البر، وخدمت ضابطاً في اليمن برتبة قائد ألف (بيكباشي) بين سنتي ١٨٩٣ و١٨٩٥ فهذه الأواصر ربطتني بالأمة العربية وجعلتني أفهم لغتها. وكان السبب في اختياري لهذا المنصب في عسير (متصرفاً وقائداً للجنود فيه) وقوفي كثيراً أو قليلاً على أحوال البلاد العربية وأهلها ورغبتي الشخصية في العمل ببلاد العرب"[٦٨].

عرف عنه بأنه كان يسجل مشاهداته وانطباعاته عن الأحداث التي شهدها أو الأماكن التي زارها بدقة وموضوعية. وقد اعترف بذلك في أكثر من مرة في كتاباته ففي المذكرات التي نشرها نراه يقول: "والمعلومات التي سأقدمها للقارئ، وإن لم تكن غاية في الكمال، غير أنها على كل حال تستند إلى المشاهدات لا إلى المسموعات، لذلك أنا مقتنع بأنها عارية عن الخطأ بقدر الإمكان، وستكون مفيدة[٦٩]،

ولكنه لا يكتفي بتدوين ما يراه، بل نراه يفصل في الحدث فيذكره بكل تفاصيله، يذكر أسبابه ونتائجه وأحياناً العبر منه وليس أدل على ذلك من قوله: "والآن سأعرض على القارئ زبدة آرائي التي اعتمد فيها على تجاربي ومشاهداتي. وسأبحث فيها بقدر الإمكان عن شؤون الإمام يحيى والسيد الإدريسي وأمير مكة وسلطان نجد مبيناً أسباب الحوادث في تلك الربوع – وهي الأسباب التي ظلت حتى الآن وراء ستار الخفاء – ورجائي أن يكون عملي هذا خدمة للتاريخ "ولي الثقة بأن "القراء يرون ذلك صادراً مني بحسن نية، وسيرون أن المعلومات التي أعرضها عليهم مؤيدة كلها بالمستندات الرسمية والوقائع الثابتة[٧٠].

---

(٦٨) المذكرات، مجلة العرب، الرياض ج ١١ سنة ٥ ص ٩٩٩ – ١٠٠٠

(٦٩) المذكرات، مجلة العرب ج ٩ سنة ٥ ص ٨٥٩

(٧٠) المذكرات، مجلة العرب ص ٨٥٩

ويبدو أنه كان يروم نشر كل مذكراته عن البلاد العربية والتي بدأها بثورة الإدريسي في عسير، ولهذا أخذ المستمسكات المتعلقة بها معه عندما غادر إلى الخارج ويفصح بذلك قائلاً:

"وإن عندي الآن معظم المستندات المتعلقة بمدة وجودي في بلاد العرب، غير أني لا أجد متسعاً من الوقت لجمع هذه المستندات وتصنيفها لتكون في شكل مذكرات منظمة. غير أن الحوادث الأخيرة العظيمة الأهمية التي وقعت في بلاد العرب والترغيب الذي لقيته من بعض الأصدقاء ومن القراء جعلني استمر في نشر قطع من مذكراتي اعتماداً على رؤوس أقلام مدونة عندي أكملها من ذاكرتي".[٧١]

من خلال ما تركه لنا سليمان شفيق باشا من كتابات يمكننا القول إنه صاحب أسلوب سلس بعيد عن الإطناب والتكلف في الكتابة، ويميل إلى الأسلوب الأدبي، واعترافه بغير ذلك لا يمكن تفسيره إلا من باب التواضع فيقول:

"وإني اعترف بعدم مقدرتي في صناعة الإنشاء والتحرير، لأن صناعتي هي الجندية، وأقول هذا طالباً العفو من القراء عما يرونه من عدم الارتباط بين أجزاء مقالاتي... وإني التزم الاختصار في كل ما أكتبه في هذه المقالات اجتناباً لملل القارئ، فإذا جاء الاختصار مخلاً بالمعنى في بعض الأوقات فأرجو ممن يلاحظ ذلك أن ينبهني إليه لأتوسع في البيان[٧٢].

وما يهمنا مما خلفه سليمان شفيق باشا من مذكرات أو مؤلفات هو الآراء والأفكار التي أبداها بشأن المسائل التي توقف عندها. وهي كثيرة ومتنوعة لكثرة المسائل التي تناولها، ورغم كثرتها نراه ينطلق انطلاقة مبدأ ويحافظ على موضوعيته ولا يتردد من توجيه الانتقاد لهذا الطرف أو ذاك عندما يراه يتصرف تصرفاً غير لائق، فلم يخلص من انتقاداته أركان الدولة العثمانية والزعماء العرب على حد سواء. وسأحاول هنا التوقف عند بعض من هذه الأفكار والمواقف التي أبداها تجاه بعض المسائل التي تخص العرب والبلاد العربية.

---

[٧١] المذكرات، مجلة العرب ج ٦ سنة ٦ ص ٤١٣

[٧٢] م.ن

حبه وإعجابه بالعرب والتقاليد العربية

لم يُخف سليمان شفيق باشا إعجابه بالعرب والعادات العربية فأعرب عن ذلك كلما وجد سبيلاً إليه، فعندما زار بيروت مع قافلة الحج في سنة ١٨٩٠ تعرّف على أهاليها عن قرب فذكر عنهم بأنهم "مجدّون في عملهم ويميلون ميلاً خاصاً إلى العلم والمعرفة والصناعة والتجارة، ويتميزون بالوقار في أوضاعهم وأطوارهم، يمارس المقيمون منهم على الجبال رعي الحيوانات، والذين في السهول مزارعون ماهرون، أما المقيمون في المدن فهم تجار وأرباب حرف ومعرفة. ومن طبائعهم التسابق في كل شيء، ولهذا فهم يستوعبون بسهولة ويمارسون مهنهم، وبمقتضى فطنتهم الطبيعية، مارسوا الأمور التجارية، ويتعاملون مع أشهر موانئ عالم التجارة، وأصبحوا بحق خير خلف يليقون بالفينيقيين.." [٧٣].

وعندما كان في ضيافة أحد شيوخ منطقة الزرقاء في لواء حوران لفت انتباهه أحد المتقدمين في السن وهو يقدّم الخدمة للضيوف ويظل واقفاً، فأشار إليه بالجلوس، إلا أن الشيخ اعترض على ذلك وذكر أنه ابن عمه، وأنه يتجاوز حدوده إذا جلس. ولم يبد كاتبنا أي امتعاض لذلك ولم يحنق على الشيخ، بل على العكس من ذلك أيده واعتبر هذا التصرف منه "عادة جميلة، وطاعة عجيبة" لأنه رأى "أن هذه الزعامة الطبيعية لو لم تكن قائمة بين العشائر لكان التعايش في مثل هذه البداوة صعباً لا يطاق"[٧٤].

وتوقف عند بعض الصفات التي يتحلى بها البدو وعلى رأسها الصدق والاحترام وإطاعة الأوامر والمروءة فنراه يقول: "إن من أعظم العار عند القبائل أن يقول الرجل الكذب أو أن ينكر أمرا وقع. وعلى ذلك كان من النادر جداً أن يحيد أحد المتقاضيين [في المحكمة] عن الحقيقة في تقرير دعواه. وحكم القاضي محترم جداً ومطاع من الجميع حتى أنه لا حاجة إلى قوة إجرائية في تنفيذه".

"إن شعباً هذه أخلاقه الفطرية وهذا مبلغه من الإخلاص والصفاء لا شيء أسهل من إدارته إذا عرفت حكومته مزاجه، وليس أصعب منه مراساً وأقوى شكيمة لمن يجهل ذلك". "العدل، وصدق

---

[٧٣] حجاز سياحتنامه سي ص ٢٦.

[٧٤] حجاز سياحتنامه سي ص ٧٩

القول، والإخلاص، والثبات في الوعد، والمروءة.. هذه الصفات هي أمضى من الأسلحة في جزيرة العرب"[٧٥].

كان يحز في نفسه أن يرى أبناء البدو وقد استشرى الجهل والتخلف بينهم، ولم يأخذوا نصيبهم من العلم والمعرفة، وتمنى نشر المعارف بينهم ليلحقوا بركب العلم. فعندما كان في طريقه إلى الحج مع القافلة استوقفه أحد شيوخ حوران ليسأله عمن يتولى السلطنة، فأجابه متأسفاً أنه "عبد الحميد"، تأسف لذلك لأن هذا الشيخ ما زال يجهل من هو السلطان. ثم سأله الشيخ عن جدوى أخذ بعض الشيوخ إلى دار السلطنة فأجابه سليمان شفيق: "إن الخليفة يستهدف معرفة أحوال كل رعاياه والتعرف على الزعماء والأعيان بينهم وتكريمهم، وبهذا يريد جمع المسلمين تحت راية واحدة، لأن "الكفار" اتحدوا واتفقوا وتفوقوا في الثروة والمعرفة وتقدموا من الناحية المادية على المسلمين، وآمالهم الخفية ومقاصدهم الشريرة هي محو الدين الإسلامي، ولتحقيق هذه الغاية قاموا بإرسال رجالهم إلى البلاد الإسلامية، سعياً لإيقاع المسلمين بعضهم ببعض وبث التفرقة والشقاق بينهم، وهم ينجحون أحياناً، ولهذا فإن الخليفة يهدف إلى إزالة هذا الأمر، وجمع المسلمين في نقطة واحدة وتحت راية واحدة امتثالاً للحديث الشريف "إنما المؤمنون إخوة" والتصدي للكفار بهذا الشكل. ولم يكن أمام الشيخ إلا القول: "والله عليك الحق".

ثم يعلّق سليمان شفيق باشا على هذا الحدث قائلاً: إن سؤال هذا العربي الذي نشأ في البادية ولم يأخذ نصيبه من كل العلوم والفنون وشعوره ملفت للنظر، ولو تم نشر المعارف في هذه المناطق فإن الأهالي وبسبب ذكائهم الخلقي والطبيعي وشجاعتهم الفطرية، يتمكنون من تحقيق النجاح في المعارف بحيث يوقعون العالم في حيرة واندهاش.

ثم يستدرك قائلاً: "ألم يكن هؤلاء العرب قد تمكنوا خلال مدة قصيرة من السيطرة على أجزاء كبيرة من آسيا وأوربا وأفريقيا وأحرزوا موقعاً رفيعاً في التعليم والحضارة؟"[٧٦].

---

[٧٥] المذكرات، مجلة العرب ج ٩ سنة ٦ ص ٧٠٣

[٧٦] حجاز سياحتنامه سي ٨٥ – ٨٦.

انطباعاته عن الأماكن التي مرّ بها في بلاد الشام وتقييمه للأوضاع

طرح سويله مز أوغلي آراءً وملاحظات ومقترحات مختلفة تتعلق بالأماكن[٧٧] التي زارها – كما ذكرنا – ولم يخصص مكاناً خاصاً بهذه الملاحظات والآراء، بل ساقها عرضياً وهي مبثوثة في مواضع مختلفة استدعت طرحها أسباب رآها ضرورية للتوقف عندها، وكأنه يريد عرضها بشكل مباشر على السلطات المختصة، ولا ينسى إيجاد حلول أو مقترحات لكل مسألة يراها سلبية، غير طبيعية، ولا يتردد من توجيه الانتقاد إلى سياسة الدولة في منطقة من المناطق التي تعاني من أوضاع متردية في مجال من المجالات السياسية أو الإدارية أو الاقتصادية أو الاجتماعية. والحقيقة أن ما ساقه سويله مز أوغلي بهذا الخصوص يسلط الأضواء على الأوضاع العامة للأماكن التي زارها من البلاد العربية في العهد العثماني قبل قرن من الزمن، ومن الممكن إيراد أمثلة مختلفة عن كل ذلك من الرحلة منها :

١ – عندما كان في الطريق اتصل به عدد من الأهالي يتظلمون به، إذ أن الأراضي التي يمتلكونها سيطر عليها بعض المتنفذين في دمشق. ويبدو أن هؤلاء الأهالي قدموا شكوى إلى ولاية سورية التي أرسلت عدداً من المحققين للوقوف على حيثيات الموضوع. إلا أن هؤلاء المحققين التزموا جانب المتنفذين فلم تلب مطالب المشتكين[٧٨]. وقد أورد سويله مز أوغلو هذا التظلم في الرحلة، دون أن يعلق عليه وهذا يعني أنه لم يكن متأكداً من حقيقة الأمر، وإلا لما كان يتردد من مطالبة الدولة بالتدخل لإحقاق الحق كما سنجد فيما بعد.

٢ – يسجل سويله مز أوغلو استغرابه من اتخاذ قرية الشيخ سعد مركزاً للواء حوران وذلك لكونها خالية من كل مظاهر التحضر، وهي صغيرة لا تتضمن سوى عدد من البيوت وعدد من الأبنية الحكومية التي أقيمت بعد اتخاذها مركزاً. ويرى أن أنسب مكان لمركز اللواء هو مزيريب، إلا أنه يقر في الوقت نفسه أن هذه البلدة أو القرية (يعني مزيريب)

---

[٧٧] للمزيد في هذا الموضوع يراجع: فاضل بيات: العرب والبلاد العربية في منظور سليمان شفيق باشا، مجلة "الدارة" السعودية، العدد ١ السنة ٣٦، الرياض محرم ١٤٣١هـ ص٥١– ٨٣)

[٧٨] الرحلة : ٥٦.

بحاجة إلى إصلاح وتنظيم. وهما في غاية السهولة لتوفر أسباب النهضة والعمران فيها وذلك لتجمع الحجاج فيها، وكونها مركزاً طبيعياً داخل سنجق حوران، وذات أراضٍ خصبة صالحة للزراعة، ومن الممكن أن تتحول مزيريب في غضون فترة قصيرة إلى بلدة معمورة. ويربط سويله مز أوغلي تطوير وإنماء مزيريب بمتصرف كفؤ وغيور وذي دراية [٧٩].

٣ – يطالب سويله مز أوغلي بإيلاء جبال الكرك الأهمية المطلوبة من قبل الدولة وذلك لانتشار الجزويت فيها، لأن هؤلاء قد يثيرون المشاكل ضد الحكومة [٨٠].

٤ – يتطرق سويله مز أوغلي إلى الأنهار الواقعة بين مزيريب والشيخ سعد ويتأسف لعدم الاستفادة من مياهها. ويتهم الموظفين والأهالي على حد سواء بأنهم لم يبحثوا عن وسيلة للاستفادة من النهر الكبير ولذلك لن يولوا أي اهتمام بنهرين صغيرين في المنطقة لذا تم تركهما مهملين. ولا ينسى سويله مز أوغلي توجيه نقد لاذع إلى من دعاهم بـ (أصحاب الآراء والأقوال السطحية) الذين يدعون أن هذه الأماكن صحراء ولهذا تبقى مهملة. ويرى هو العكس من ذلك فنراه يقول : إنها (أي الأنهار) لو أصبحت بيد إنسان غيور ونابه فإن الذهب سيتدفق من كل أرجائها[٨١].

٥ – ويتطرق إلى الوضع المتردي الذي كانت تعيشه قرية الشيخ سعد مركز لواء حوران، ثم ينتقد موظفي اللواء قائلاً : "**يا ترى، ألا ترى هيئة موظفي اللواء هذه الحالة؟ أم أنهم يرونها ولكنهم يلازمون الصمت. أصلح الله شأنهم !** " [٨٢].

٦ – يبدي أسفه متألما عندما يرى الإهمال الذي لحق بطريق الحج والمنشآت المدنية التي أقيمت لأجله. فبعد أن شاهد قلعة الفدين (المفرق) التي تحولت إلى أنقاض ذكر أن قلعة كهذه أقيمت ببذل التضحيات من أجل المحافظة على طريق الحج. ولم يخفِ امتعاضه من هذا فقال بعد أن شاهدها : "**عدت أدراجي متألماً، بطبيعة الحال !** " كما يبدي أسفه من جراء ترك الأماكن الشاسعة الواقعة بين الرمثا وخربة التمر دون زراعتها

---

[٧٩] الرحلة، ص ٦٢.

[٨٠] م. ن. ص ٩٣.

[٨١] م. ن. ص ٦٥.

[٨٢] م. ن. ص ٦٧.

بحجة عدم توفر المياه فيها. ثم قارن هذا الوضع الحالي بما كان عليه في السابق، حيث بذلت الجهود لإعمارها بإقامة الأحواض الكبيرة وحفر الآبار، فذكر أنه لو تم حذو السلف واتبعت نفس الوسائل التي اتبعت في السابق فلن يبق هناك أي عائق للإعمار. وعلاوة على إقامة الأحواض وحفر الآبار، اقترح بإقامة السدود في أماكن مناسبة لخزن مياه الأمطار التي تسقط بكميات كبيرة فيها في فصل الشتاء[٨٣].

٧ - كان سويله مز أوغلي ضد كل تجاوز أو ظلم يصدر من مسؤول في الدولة، كائناً من يكون، ولا يتورع من نقل صورة حية ناطقة عما يعانيه الأهالي وما يقع عليهم من ظلمٍ أو تعدٍ من جانب الدولة. ولم يكتف بنقل هذه الصورة، بل ينتقد وبشدة، أحياناً، هذه التصرفات غير المسؤولة. وخير مثال على هذا ما نقله عما شاهده في مزيريب عند اجتماع الحجاج فيها. فقد استغرب من الرسوم التي تستوفى من السوق التي كانت تقام هناك بمناسبة موسم الحج، إذ شبهها بما كان يفرضه الإقطاع في السابق على السوق والمسافرين (أي الباعة والمشترين) على حد سواء. ونقل صورة مؤلمة عن التجاوزات الرهيبة التي وقعت على ستة أشخاص من الأصناف عجزوا عن دفع ما طلب منهم من رسوم، والمعاملات الوحشية التي عوملوا بها. فقد تعرض هؤلاء إلى مضايقات شديدة ثم مسحت وجوههم بالعسل وربطوا بالأشجار وتركوا تحت أشعة الشمس حتى المساء وتحت حراسة جنديين.. وقد حدث كل ذلك على مرأى من المتصرف . وربما بأمر منه .. وقد سمّى سويله مز أوغلي هذا الأسلوب بالبربرية وشبهه بالمظالم التي كانت تقع في القرون الوسطى، ويستغرب أشد الاستغراب من "صدور مثل هذا التصرف البربري من شخص تم رفعه إلى مقام المتصرفية من قبل الدولة "، ثم يقول : أن هذا العمل يحير عقول المنصفين[٨٤].

وينبغي ألا تتخذ هذه الحادثة كمثال يمكن تعميمه على الدولة العثمانية ككل، أو نقلها من حالتها الفردية التي قد تحدث هنا وهناك في الدولة، إلى ظاهرة عامة تتميز بها

---

(٨٣) م. ن، ص ٧٥ - ٧٦.

(٨٤) الرحلة، ص ٦٣.

الدولة، إذ لو كانت كذلك، أي لو كانت هذه الحادثة ظاهرة معتاد عليها لما لفتت نظر الرحالة وتوقف عندها متألماً، ولما استغرب منها ووصفها بهذا الوصف الأليم.

٨ – ينتقد سويله مز أوغلي الحكومة العثمانية بشكل ضمني، لسياستها في منطقة معان وما آل إليه الوضع المتردي هناك بسبب عدم إشاعة الأمن والنظام وترك البدو للتحكم هناك. فعندما يتطرق إلى منطقة وادي موسى، يركز على ملاءمتها للزراعة لكون أراضيها سهلية ولسقوط الأمطار الغزيرة فيها وسهولة زراعتها، إلا أنها تركت دون زراعة من قبل الأهالي، بسبب اعتداء البدو عليها وعدم وجود ما يردعهم عنها، الأمر الذي يحول دون تمكن الأهالي من الزراعة. ثم يعلق على هذا الأمر قائلاً : "**من المعروف أن نهضة البلاد وإعمارها تتوقفان على التجارة والزراعة، ويتم تحقيقها بإشاعة الأمن، أما في هذه الأماكن حيث يحكم القوي الضعيف فلا يُعرف الحاكم أو الخادم. وما أن يعرف البدو أن الأهالي المتغلبين على أمرهم يمتلكون شيئاً، فانهم يقومون بالإغارة عليهم وسلبهم. ولهذا لا يجني الشخص ثمرة جهده، بل تدخل في جيوب البدو المتسلطين، الأمر الذي يؤدي إلى عدم رغبة أحد بالزراعة والفلاحة** "[٨٥]، وهذا دليل واضح على غياب السلطة الفعلية للدولة العثمانية في هذه المناطق وفقدان الأمن والنظام فيها، الأمر الذي تكون له انعكاسات سلبية على المنطقة برمتها وعلى الدولة والأهالي على حدٍ سواء. فالدولة، في وضع غير طبيعي كهذا، لا تتمكن من فرض أي نوع من الضرائب على الأهالي، أما الأهالي فتزداد معاناتهم سنة بعد أخرى عندما يبقون عاجزين عن توفير لقمة العيش لهم، فضلاً عن تعرضهم لاعتداءات البدو عليهم.

وهنا يقدّم سويله مز أوغلي حلولاً ومقترحات للدولة من أجل توطيد الأمن والنظام فيها :

أ. تعيين متصرف نزيه وفعال وكفوء.

ب. مرابطة قوات عسكرية فيها لإشاعة الأمن والنظام للحيلولة دون قيام البدو بأي تجاوز على الأهالي.

ج.إقامة وحدات إدارية منتظمة كالمتصرفية والقائمقامية في الأماكن اللازمة في مناطق جبال الكرك.

---

[٨٥] الرحلة، ص ٩٨.

د. إدخال البدو في دائرة السيطرة[٨٦]

ويتطرق سويله مز أوغلي إلى مسألة إلغاء النظام الإداري المتبع في معان، بعد أن اتخذ الباب العالي قراراً بهذا الخصوص بناءً على المقترحات المقدمة من ولاية سورية، وهو يبدي استغرابه الشديد من هذا القرار ويعتبره قراراً غير حكيم وذلك للاعتبارات الآتية :

أ. موقع معان المهم لوقوعها على خط يربط ساحل البحر الأبيض المتوسط بولايتي الحجاز واليمن الواقعتين على ساحل البحر الأحمر.

ب. كثرة العشائر الموجودة في أرجائها.

جـ. نصف أهاليها من النصارى.

د. قربها من جبل الكرك.

هـ. وقوعها في وادي سرحان الذي يستفاد منه في السوق والنقل العسكري إلى نجد ولا سيما إلى منطقة جبل شمر حيث إمارة الرشيد[٨٧].

ومما يجدر ذكره أن القائد والوالي العثماني عثمان نوري باشا قدم في ١٨٩٢/٥/١٨ مذكرة إلى الحكومة العثمانية اقترح فيها تحويل منطقة معان (الكرك والطفيلة) إلى متصرفية وذلك لأهميتها الاستراتيجية، ورأى أن وقوع المنطقة على طريق الحج وكونها مركزاً لتوريد السلاح والمعدات من مصر يشكل خطراً على المنطقة من الناحية الاستراتيجية والسياسية. ولهذا طالب بالإسراع في تأمين سلطة الدولة وذلك بتأسيس المتصرفية فيها[٨٨].

٩. تميّز سويله مز أوغلي بنظرة ثاقبة في رؤيته إلى مستقبل البلاد العربية في ظل الدولة العثمانية، فبعد أن عرض للأوضاع العامة للبلاد العربية وبخاصة شبه الجزيرة العربية، طرح أفكاراً مهمة بشأنها طرحاً ذكياً وكأنه يتنبأ عما تؤول إليه الأحوال في ظل القوى المحلية التي برزت إلى الوجود في الجزيرة العربية وأصبحت تشكل خطراً حقيقياً على الدول العثمانية، وبخاصة بعد تحالف

---

[٨٦] الرحلة، ص ٩٨، ١٠٠.

[٨٧] م. ن، ص ١٠٠، ١٠١.

[88]Akarli, Engin Deniz, Establishment of the Ma'an – Karak Mutasarrifiyya, 1891 – 1894, Dirasat , (Humanities), Vol. XIII, No 1, 1986, P. P. 29-30.

هذه القوى مع القوى الكبرى. فنجد سويله مز أوغلي يحاول تشخيص الداء الذي تعاني منه هذه البقعة من الدولة قبل إيجاد الدواء الشافي له، فيقول : "**إن ابن الرشيد لو سنحت له الظروف فانه سيستغل الفرص ويصبح قادراً على الاستيلاء على الحجاز. وسيشكل بدون شك، . لا سمح الله . خطراً عظيماً على الدولة العثمانية هناك كالوهابيين. ومن المصلحة اتخاذ التدابير اللازمة بهذا الخصوص، من قبل ولايات الحجاز والشام والعراق في الوقت المناسب. وذلك لأن ابن الرشيد يقوم منذ مدة ' باستقبال سواح من الدول الأجنبية كفرنسا وإنكلترا ويتبادل معهم الآراء، ويلمح بأنه يسعى أيضاً إلى إقامة علاقات سياسية مع الدول الأجنبية. حتى أن الحكومة الفرنسية قامت في السنة الماضية بإرسال ٢٤ بندقية ماوزر إليه على يد مبعوثين خاصين وسعت إلى إقامة علاقات بينهما. والمعروف أن ابن الرشيد لا خلف له، ولهذا من الممكن أن تقوم الدولة بمد سيطرتها على جبل شمر وذلك بالاستفادة من الفوضى الذي قد تحدث عقب وفاته.** "

ولأجل تحقيق هذا الهدف، يرى سويله مز أوغلي أنه ينبغي البدء من الإحساء التي كانت متصرفية[٨٩] ملحقة بولاية البصرة وإيلاء الدولة اهتماماً بإدارتها بشكل يتناسب مع العادات القبلية العربية ويتفق مع توجهات الدولة. والمحافظة عليها بشكل حقيقي وإجراء الإعمار والإصلاحات اللازمة فيها وحماية الأهالي من كل أنواع الظلم والتعدي واستمالتهم بالدولة. ولتحقيق كل ذلك يشترط سويله مز أوغلي على الدولة أن تختار في الإدارة من الحكام والنواب والموظفين وأمراء الجند والضباط ممن هم من ذوي التجارب وممن يتصفون بالعفة والشرف والحمية.

ويتوقف سويله مز أوغلي عند مسألة على جانبٍ كبير من الخطورة بالنسبة لأمن الدولة، وهذه المسألة تتعلق بالساحل الشمالي الشرقي للبحر الأحمر والممتد من منتهى خليج العقبة وحتى ينبع. ويبدو أن الشريط الساحلي هذا . كما يذكر سويله مز أوغلي . كان متروكاً لخديوية مصر. إلا أن الحكومة الخديوية لم تعيِّن فيه أي موظف لعدم وجود (علاقة ميدانية) معه. ويطالب سويله مز أوغلي الحكومة العثمانية بعدم ترك هذا الجزء من الساحل، ويعد هذا الأمر من المهام السياسية، كما يطالب بإعمار قصبتي الوجه والعقبة اللتين تشكلان نقطتين مهمتين على طول الساحل، وتوطين القبائل المجاورة واستخدامهم وتحويل قلعة (الجيفة) بشكلها الحالي ومعان التي يسكنها

---

[٨٩] كانت الإحساء، كما ذكر سويله مز أوغلي متصرفية تسمى نجد، أنظر الرحلة ص ٣٧٩.

(ضعفاء البدو) إلى متصرفية، والسيطرة على (الجوف) كما كانت في السابق. وهكذا يتم إعداد منطلق للعمليات لسوق الجند إلى المدينة المنورة ونحو أعماق الجزيرة العربية، ولأجل استكمال كل ذلك يرى سويله مز أوغلي أن تقوم الدولة بإخضاع الكرك وسائر العشائر العربية للسلطة المركزية العثمانية وتحصين سواحل البحر الأحمر، وتقليص وتحديد نفوذ ابن الرشيد وذلك بقطع علاقته بساحل البحر الأحمر.

ويشير سويله مز أوغلي إلى أن والي حجاز الأسبق عثمان نوري باشا[٩٠] قد أحس بأهمية قلعة الوجه فقام في الحال بمد نفوذ الحكومة العثمانية إلى العقبة، وبهذا "أبطل حكم التقسيم الغريب " الذي بموجبه ترك الساحل الشمالي الشرقي للبحر الأحمر للخديويين، إلا أن انفصال الوالي عن الولاية أبقى مشروعه دون تنفيذ.

ولا ينسى سويله مز أوغلي، وهو يُقيّم هذا الوضع، أن يضع في الحسبان ما سيؤول إليه الحال في حالة نشوب حرب بين الدولة العثمانية والإنكليز، أو أصبحت الدولة في حالة حرب مع الدول الأوروبية، فيرى أن قناة السويس ستغلق في هذه الحالة في وجه السفن العثمانية دون أن تراعى العهود والمواثيق. فتضطر الدولة العثمانية في وضع كهذا سوق العسكر إلى ولايتي الحجاز واليمن عادة عن طريق البر. وإذا أخذ بنظر الاعتبار كون الأحواض الموجودة في الطريق الممتد من الشام إلى نجد ومكة والمدينة غير كافية وغير صالحة، فان هذا الطريق لن يكون مجدياً للسوق العسكري الكبير.. وإزاء هذا الوضع يقدم سويله مز أوغلي طريقاً بديلاً لهذا الطريق وهو طريق يافا –العقبة البري ومن العقبة إلى المواقع اللازمة بحراً بواسطة المراكب، وذلك لأن الساحل الشرقي للبحر الأحمر حافل بالشعب المرجانية إلى غاية ١٠ كم منه، فلا تستطيع أية دولة بتسيير سفنها الحربية ومن ثم لا تتمكن من اعتراض السوق العثماني. ويقدم سويله مز أوغلي مقترحاً لتحقيق هذه الغاية وهو تأسيس أسطول صغير في ساحل البحر الأحمر وإعداد ملاحين وتعريفهم بالجوانب المجهولة من الساحل. فيرى أنه إذا بذلت جهود استثنائية وأقيم خط حديدي من ميناء مناسب على سواحل سورية وحتى خليج العقبة . والذي يمتد ٢٠ كم . وبوشر بإعمار هذه الأماكن،

---

[٩٠] عثمان نوري باشا : القائد والإداري العثماني (١٨٩٨–١٨٤٠)، تخرج من الكلية العسكرية سنة ١٨٦٢، عين قائداً ووالياً على الحجاز برتبة فريق سنة ١٨٨١، وكان من المقربين للسلطان عبد الحميد الثاني. تقلد ولاية حلب سنة ١٨٨٦ وولاية اليمن فسوريا سنة ١٨٨٧، وبعد فترة عزل من منصبه. أنظر : Meydan Larousse, 15:263

فانه سيتم ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر في غضون فترة قصيرة. وستجني الدولة . في حالة تحقيق هذا المشروع . مكاسب سياسية ومالية كبيرة للدولة العثمانية، إذ سيتم تحويل القسم المهم من السوق العسكري والبضائع التجارية من قناة السويس إلى هذا الطريق.

ويشترط سويله مز أوغلي على الدولة في إنجاز هذا المشروع أن تتبنى هي بناءه وألا تمنحه لشركة أجنبية، وذلك لأن الأراضي التي يمر فيها هذا الخط تقع عليها فلسطين، وهي مهيأة في وضعها الحالي لإثارة الفتن والشغب وذلك من قبل الأجانب الذين يتجوّلون هناك بحجج مختلفة كزيارة القدس الشريف والسياحة في الأماكن المقدسة والأماكن الأخرى[٩١].

* * *

والحقيقة أن هذه المعلومات والآراء التي أبداها سويله مز أوغلي عن البلاد العربية، أراد بها أن تكون صورة حية وناطقة للأوضاع التي تعيشها هذه البلاد والمشاكل التي تعاني منها، والسبل الكفيلة لتطويرها وتحسين أوضاع الأهالي فيها، وذلك بغية إطلاع السلطات العثمانية، ولا سيما السلطان عبد الحميد الثاني عليها. وعلى الرغم من أهمية هذه المعلومات، إلا أنها تبقى محاولات متواضعة لاستكشاف بعض الجوانب المتعلقة بالتاريخ العربي في العصر الحديث وذلك أمام الكم الهائل من المعلومات القيمة التي أوردها في مذكراته.

أهمية مذكراته في التعرّف على أوضاع البلاد العربية

والمعروف أن سويله مز أوغلي خصص مذكراته التي نشرها تباعاً في جريدة الأهرام، بالأحداث التي وقعت في الجزيرة العربية في فترة توليه متصرفية لواء العسير . كما مرّ .. ولم يكن هو مجرد شاهد عيان لما كان يجري هناك، بل كان طرفاً في الأحداث التي وقعت هناك، والتي كانت تستهدف الدولة العثمانية في هذا الجزء الحساس منها، كونه مسؤولاً إدارياً وقائداً عسكرياً ومفاوضاً من قبل الدولة. ففي القسم المنشور من مذكراته، نراه، يسهب الكلام في ثورة الإدريسي الذي تمكن من جمع العشائر العربية حوله ويثيرهم ضد الدولة العثمانية، وبذلك اشغل الدولة

---

[٩١] الرحلة ٣٧٨ . ٣٨١.

العثمانية ردحاً من الزمن. إلا أن سويله مز أوغلي لم يتوقف عند هذه الثورة فقط، بل تناول مسائل مختلفة.

والحقيقة أن القسم الأعظم من المعلومات الواردة في مذكراته لم يرد في أي مصدر من المصادر فظل في طي الكتمان رغم نشرها في جريدة الأهرام. وتكمن أهمية هذه المعلومات في أنها دونت من قبل شخص مسؤول كان يسعى جاهداً إلى التوفيق بين الأهالي والدولة العثمانية، وهو بين هذا وذاك يكنُّ شعوراً طيباً تجاه العرب. ولكي لا يوجه أدنى شك في صحة هذه المعلومات وانسجامها مع الواقع التاريخي نراه يقول في مستهل مذكراته :

والمعلومات التي سأقدمها للقارئ وإن لم تكن غاية في الكمال، غير أنها على كل حال تستند إلى المشاهدات لا إلى المسموعات، لذلك أنا مقتنع بأنها عارية عن الخطأ بقدر الإمكان، وستكون مفيدة، والنقائص التي قد تقع فيها، يمكن أن تتلافى بما يكملها العارفون ممن يطلع عليها، فيتسع البحث ويصبح كاملاً. والآن سأعرض على القارئ زبدة آرائي التي اعتمد فيها على تجاربي ومشاهداتي. وسأبحث فيها بقدر الإمكان عن شؤون الإمام يحيى والسيد الإدريسي وأمير مكة وسلطان نجد[٩٢]مبيناً أسباب الحوادث في تلك الربوع . وهي الأسباب التي ظلت حتى الآن وراء ستار الخفاء . ورجائي أن يكون في عملي هذا خدمة للتاريخ.

وأستأذنكم الآن في الشروع، واثقاً أن القراء يرون ذلك مني بحسن نية، وسيرون أن المعلومات التي أعرضها عليهم مؤيدة كلها بالمستندات الرسمية والوقائع الثابتة "[٩٣].

---

[٩٢] ذكر سويله مز أوغلي أماكن نفوذ القوى المحلية في الجزيرة العربية، عندما كان متصرفاً على لواء عسير، بهذا الشكل: "إمامة الزيدية في القسم الجبلي من اليمن والإمارة الإدريسية في أراضي الشافعية من تهامة اليمن وبعض تهامة عسير والسلطنة السعودية في جميع نجد وفيها إقليم عسير والحكومة الهاشمية التي انحصرت بين أسوار ثغر جدة ومن ثم إمارة آل الصباح في الكويت عند نهاية الخليج الفارسي وقبلها مشيخة حضرموت التي تحت الحماية الإنكليزية تليها سلطنة عمان المستقلة التي يسكنها الإباضية وبين نجد وقحط من قبائل يام التابعين لإمامة المذهب الإسماعيلي " المذكرات، مجلة العرب ج ٩ سنة ٥ ص ٨٦٠.

[٩٣] المذكرات، مجلة العرب جـ ٩ سنة ٥ ص ٨٥٩، والمعروف ان سويله مز أوغلي قطع مذكراته بعد أن نشر ٢٤ حلقة منها، ولم ينشر المستندات الرسمية المتعلقة بهذا الموضوع كما وعد بها.

ولا شك في أن المعلومات والآراء التي ساقها سويله مز أوغلي عن البلاد العربية في مذكراته، تدل دلالة قاطعة على اطلاعه الواسع على أوضاع الجزيرة العربية ورؤيته الثاقبة لمستقبل هذا الجزء من الدولة العثمانية. وفي البدء نراه يشكو من نقص المعلومات المتعلقة بالجزيرة العربية، ومن عدم كشف الوثائق في هذا المجال فيقول:

"إن المعلومات العامة والمعلومات الخاصة عن بلاد العرب . ولا سيما عن جزيرة العرب . ناقصة جداً. وان الأخصائيين لم يكتبوا عنها كتابات شافية تلم بالبحث في كل أطرافه على وجه يكفل الفائدة للجميع. وقد كان ولا يزال في خزائن الأوراق الرسمية سواء في تركيا ومصر مستندات ومعلومات مفيدة جداً. غير أنها لم تجمع، ويا للأسف، حتى الآن بشكل كتاب يعرض على أنظار الجمهور فيستفيد منه. ومع أنه قد نشر حتى الآن بعض رسائل في الموضوع، فإنها خاصة بمسائل معينة لا تفيد في تنوير أفكار الناس بشأن الجزيرة العربية. وعلى ذلك فليس في الأيدي الآن كتب تشفي الغليل عن أحوال جزيرة العرب الجغرافية والسياسية والأخلاقية والاقتصادية وغيرها، ولذلك نرى صحف الترك والعرب والإفرنج تنخدع كثيراً في الحكم على ما يحدث في تلك الأقطار. وكل ما تنشره من آراء وأفكار عن بلاد العرب تنشره تحت تأثير الانخداع. من أجل هذا أقول أن من الواجب أن أشفع مقالاتي هذه بخريطة للبلاد العربية صغيرة جامعة بقدر الإمكان، تساعد القارئ على فهم ما أكتبه فيما بعد في هذا الموضوع " [٩٤].

ومما طرحه من أفكار بشأن البلاد العربية، أنه كان يرى أن يتم تقسيم الجزيرة العربية إلى كيانات تتم إدارة كل كيان منها إدارة ذاتية يرتبط بمرجعية أعلى، وليس إدارتها من قبل أمير واحد، وذلك للخصوصية التي تتميز بها.. كما يقر في هذا الخصوص انه كان يظهر بين حين وآخر في القبائل العربية أمراء يجمعون شمل هذه القبائل أي يجمعونهم تحت زعامة واحدة، ولكن يطغى على هؤلاء الأمراء الحكم الفردي الذي يتحول إلى ظلم وعسف، فيستبد هؤلاء بالحكم، الأمر الذي

---

[٩٤] المذكرات، مجلة العرب جـ ٩ سنة ٥ ص ٨٥٨ . ٨٥٩، والمعروف أنه على الرغم من وعده بأنه سيشفع مقالاته بخريطة للبلاد العربية، إلا أنه لم يقم بذلك.

يؤدي إلى اشمئزاز نفوس الأهالي والسأم منه، ومن حقهم "أن يشمئزوا ويسأموا " . كما يقول سويله مز أوغلي[٩٥]. كما أن له رأياً خاصاً في الشخصية التي تتولى مقام الخلافة العظمى، وهو ينظر بهذا إلى الجزيرة العربية نظرة شمولية فيقول :

إن التقسيم السياسي الحاضر[٩٦] في جزيرة العرب هو بوجه عام غير طبيعي، ولأنه غير طبيعي أدى إلى ظهور الحوادث الحاضرة. فجزيرة العرب لم تدخل تحت سلطان أمير واحد لما فيها من اختلاف المذاهب واختلاف الرأي، والتفاوت في مستوى الحضارة ولافتراق المصالح. ثم ان لكل واحد من زعماء العرب ميلاً خاصً للانفراد بالإدارة والاستقلال بالحكم، فلا يحتمل بوجه من الوجوه أن يطلق أيدي رجاله في العمل بحرية واستقلال إلا إذا حصل كل منهم على استقلاله وحريته وكان مرتبطاً بمرجع أعلى. فما من أمير قام بدعوى القومية يستحق أن يقوم بأعباء الإدارة العظمى والخلافة، لأن مقام الخلافة العظمى ملجأ لأكثر من ثلاثمائة مليون مسلم. ومثل هذا المقام لا يبلغه رجل معلول بالأمراض الشخصية. أما لو وجد في الأمة العربية رجل سياسي رشيد يستطيع أن يجمع الأمة العربية حول غاية واحدة ويتولى من هذه الأمة مقام الهداية والإرشاد فيؤلف من البلاد العربية حكومة حِلفية، فان اليوم الذي يظهر فيه للعرب ذلك الرجل، سيكون بداية تاريخ جديد للحضارة العليا في جزيرة العرب"[٩٧].

ويرى سويله مز أوغلي أن المشاكل التي تحدث هنا وهناك بين الدولة العثمانية والعشائر العربية وما كان يرافقها من ثورات تستهدف الإدارة المحلية العثمانية برمتها كان مبعثها غياب التفاهم بين الطرفين وعدم تجسير الفجوات التي تتوسع إثر المواقف المتشددة لأحد الطرفين، ولهذا فان اتباع أسلوب التفاهم من قبل مسؤولي الدولة العثمانية مع الأهالي، يكون أنجح أسلوب لتحقيق الإدارة العثمانية السليمة في الأقاليم وليس اللجوء إلى القوة والسطوة. وهنا ينظر إلى المسألة نظرة

---

[٩٥] م. ن. جـ ١٢ سنة ٦ آب / أغسطس ١٩٧٢ ص ٩٥٠.

[٩٦] يقصد بـ (الحاضر) وقت توليه متصرفية لواء عسير (١٩٠٨ . ١٩١٢)

[٩٧] م. ن ص ٨٥٩ . ٨٦٠.

محل استراتيجي ويتوقع مسبقاً ما سيؤول إليه هذا الوضع أو ذاك عند وقوعه. فقبل التفكير بإيجاد أي حلٍ للمشكلة أو السبيل لإنهائها، ينبغي الأخذ بنظر الاعتبار الدواعي التي أدت إلى قيامها، وعدم ربط ما يقع هنا من أحداث بما يقع في مكان آخر، فقد تكون لكل منطقة ظروف خاصة تتميز بها، وهنا لا يتردد من اتهام الدولة العثمانية . رغم كونه ركناً من أركانها . بأن نظرتها إلى الأحداث التي وقعت في الجزيرة العربية كانت سطحية، واعتبار الثورات التي تفجرت هي ثورات عادية استهدفت الدولة ووجودها، أي أن الدولة العثمانية، كانت تخطيء في حساباتها، باعتبار أنها لم تكن تأخذ بنظر الاعتبار الدوافع التي أدت إلى قيام الثورات، لأنها لم تدرسها بإمعان.. وعلى الرغم من توجيهه هذا الاتهام إلى الدولة، نراه يدافع عنها أيضاً، ويرد على الذين يزعمون أن ثورة الإدريسي في عسير نشأت عن ظلم الحكومة للأهالي، قائلاً أن الدولة لم تكن قادرة على ظلم الأهالي لعدم تملكها قوة تفوق على قوتهم، بل ربط ذلك إلى عدم تقدير الأهالي بقوة الدولة ونظرتهم إليها بأنها ضعيفة عاجزة عن إشاعة الأمن والنظام، الأمر الذي يؤدي بهم إلى التصرف كما يشاؤون، فكان ذلك سبباً من أسباب بروز هذه المشاكل. فنراه يقول بعد أن نجح في توطيد الأمن والاستقرار في منطقة عسير بعد ثورة الإدريسي :

"إن انتهاء رحلتي . بمثل هذا النجاح . في ديار قحطان من مقاطعة عسير يرجع إلى وسيلة التفاهم مع الشعب، أكثر مما يرجع إلى القوة والسطوة. لأني كنت حريصاً على أن أفهم الأهالي وأقنعهم بأن الدولة إنما تبتغي من وجودها في بلادهم أن تحافظ عليهم وتحميهم لا أن تتخذهم أعداء تعمل على إضرارهم وتعذيبهم، وكنت أرمي من وراء إقناعهم بذلك إلى إيجاد ثقة متبادلة فيما بيني وبينهم.

إن الثورات التي كانت تنشب في بلاد العرب بين حينٍ وآخر ترجع إلى أسباب مختلفة. فالدواعي التي نشأت عنها الثورة في اليمن غير الدواعي التي نشأت عنها الثورة في سوريا. وثورة العراق ناشئة عن أسباب غير هذه وغير تلك.

فالدولة العثمانية لم تدرس بإمعانٍ بواعث هذه الأمراض الداخلية، وكانت تنظر إلى مظاهرها نظراً سطحياً، فتراها جميعاً بشكل ثورة عادية، من أجل ذلك كانت الدولة تبذل الضحايا في هذا السبيل دون أن تصل إلى نتيجة.

لمّا ذهبتُ إلى عسير لاحظتُ هذه الأمور فأخذتُ أدرس الدواعي التي دعت الأهالي هناك إلى إحداث الوقائع الماضية والحاضرة، معتقداً أنه ما لم يشخص الداء لا فائدة من وصف الدواء.

إن الدولة العثمانية منذ دخلت بلاد عسير إلى أن خرجت منها لم تكن لها فيها قوة راجحة على قوة الأهالي، وعلى ذلك فإنها كانت غير قادرة على أن تظلمهم. فثورات عسير إذن لم تكن ناشئة عن ظلم الحكومة للأهالي، بل عن كونها عاجزة ضعيفة إلى درجة أنها لا تستطيع تقرير الأمن العام والمحافظة عليه أي لأن الشعب كان بغير حكومة. فالأهالي لم يكونوا يرون الحكومة بمقام الولي لهم والوصي عليهم، بل كانوا يرونها أشبه بقوة مسلحة تهمل حقوق الناس وتحاول التسلط عليهم بالقوة..

... وفي الواقع أن الدولة [العثمانية] لم تصنع في بلاد عسير شيئاً غير تحصيل الزكاة من الأهالي بين حين وآخر، ولم تفكر قط في إيجاد أسباب العمران لإحياء هذه الجهات، ولم تتذرع بشيء من ورائه نفع للأهالي، وليس لها برنامج معين يسير عليه رجالها وموظفوها الذين يأتون إلى هذه البلاد، وهم لم يستطيعوا أن يفهموا الأمور التي يحتاج الشعب إليها، ولم يدرسوا أسباب ثورة الأهالي وتمردهم على الدولة، ولم يستطيعوا أن يقرروا الأمن، بل تركوا الناس وشأنهم يحارب بعضهم بعضاً والحكومة واقفة تتفرج عليهم، وكانت وظيفتها مقصورة على حراسة نفسها في الأماكن التي استولت عليها وأقامت فيها، وقد دفنت من أجل ذلك ألوف من أبناء القومية التركية في ديار الغربة "[٩٨].

ويخالف سويله مز أوغلي في طروحاته المفكرين العرب والغرب الذين يضفون إلى الثورات التي حدثت في البلاد العربية في أواخر العهد العثماني طابع القومية ويرون أنها نشأت عن مطالبة

---

[٩٨] المذكرات، مجلة العرب جـ ١١ سنة ٦، تموز ـ يوليه ١٩٧٢ ص ٨٤٨ ـ ٨٥١.

الأهالي بحقوقهم القومية. ومجمل طروحاته في هذا الخصوص ساقه أثر المعطيات التي أفرزتها ثورة عسير بالذات، إذ أنه لم يتوقف في إطار تقييم هذه الثورة، بل تجاوزها إلى الجزيرة العربية بشكل عام. وربط تمسك الأهالي بقادة الثورة بـ (العاطفة الدينية والجامعة المذهبية) مستبعداً بشكل كلي الشعور القومي لعدم وصوله إلى هناك بعد. وهو يقر أن هذا الشعور ولد في الغرب مع الثورة الفرنسية وأصبح العصر الذي وقعت فيه ثورة عسير "عصر القوميات "، إذ أن بني الإنسان لا يكتفون بالعاطفة الدينية والرابطة الإنسانية، بل يسعون جاهدين إلى إعلاء شأن لغتهم وازدهار وطنهم.

وأقر، وهو يسوق طروحاته بشأن العرب، أن هناك من يتهمه بالجمود والغفل فيذكر بأنه لا يسوؤه أن يجد شباباً تعلقوا بحب قوميتهم ووطنهم، بل يحتقر الذين لا يشعرون هذا الشعور، أي القومي والوطني، ولا سيما الذين يضعون منافعهم الشخصية فوق المصالح القومية، أي المتاجرة بالأفراد (أفراد الشعب) لأجل المآرب الشخصية. واعتبر هذا العمل من الأعمال الذميمة التي ينفر منها ويراها قبيحة، ولا أدل على كل ذلك مما ذكر في مذكراته بعد انتهاء ثورة عسير فيقول وهو يعيد أحياناً قسماً من آرائه السابقة ويوجه الاتهامات ذاتها للدولة :

"إن ثورة عسير لم تكن ناشئة عن مطالبة الأهالي بحق قومي لهم، ولا متسببة عن مظالم ارتكبتها الحكومة هناك، وإنما هي نتيجة إهمال من الدولة أدى إلى فوضى واختلال في الأمن العام، فقام السيد الإدريسي في صبيا مدعياً انه عامل على إعادة الأمن إلى نصابه، وأداء وظيفة الوصاية على الشعب حسب المنهج الشرعي، وإعلاء الحق في ديار عسير، وإدخال الطمأنينة على قلوب أهلها. وقد استطاع الإدريسي أن يبرهن بالفعل على صحة دعواه وصدقه فيما يقول، فاتبعوه جميعاً وصارت له فيهم الكلمة النافذة والأمر المطاع.

أما الشعور بالقومية العربية فلم يكن بعد قد وصل إلى جزيرة العرب، ولا سيما إلى مقاطعة عسير في ذلك الحين، فكانت العاطفة الغالبة على العقول والقلوب هي العاطفة الدينية والجامعة المذهبية.

لقد ولد الناس أحراراً، فميلهم إلى الحرية ميل طبيعي وفطري وقد كان الناس فيما مضى في عهد الجامعات الدينية والمذهبية، فكانوا يمثلون أدوار سياستهم

من وراء ستار الدين والمذهب. ولكن الأمم التي ترتقي في العلم والثروة والتفكير لا تلبث أن تشعر بثقل نير وصاية غيرها عليها، وقد نشأت عن هذا الشعور انقلابات في بلاد الأمم الأوروبية التي قطعت شوطاً في سبيل الترقي والكمال، فالشعوب نهضت لتكسير قيود الاستبداد في كل مكان حتى تخلصت من تحكم الأفراد فيها. وليس معنى هذا أنها زهدت بالدين أو تهاونت بأموره، بل ان نهضتها زادتها تمسكاً به لأن الأمم التي لا تخفق قلوب رجالها بخوف الله تظل بعيدة عن سعادة الارتقاء والكمال.

غاية ما في الأمر أن الأمم الأوروبية صارت لا تتخذ الدين والمذهب أحبولة للأغراض والمقاصد السياسية، فلم يعد في الإمكان تصور حدوث مجزرة (سن برتلمي)[٩٩] في أوروبا هذه الأيام من أجل اختلافات مذهبية، لأن طفل القومية الذي ولد مع الثورة الفرنسوية الكبرى قد بلغ اليوم سن الرشد، فأصبح عصرنا هذا يسمى (عصر القوميات) وقد أشرق فجره ولا يزال في دور إقباله ونمائه، ولا يبعد إذا اتسعت دائرته أن يؤدي في يوم من الأيام إلى الجامعة الإنسانية المنشودة التي دعا إليها الأنبياء الكرام توطئة لتعميم المودة والإخاء بين البشر جميعاً.

مما لا ريب فيه أن بني الإنسان أصبحوا اليوم على أبواب انقلابات عظيمة الشأن، لأن كل أرض أشرقت فيها أنوار الحضارة، وهبت في آفاقها نسائم الحرية، أضمر أهلها أنهم لا يكتفون بالعاطفة الدينية والرابطة الإنسانية، بل هم يرون من لوازم حياتهم إعلاء شأن لغتهم، والتقدم إلى الأمام ببلاغتها ودقائقها وتنظيم نكاتها، وإحياء أمثالها وخصائصها، وتمجيد إقليمهم ومساعدة الطبيعة فيه على إظهار مجالي جماله. وقد شغفهم حب جبال وطنهم ونجوده، ومروجه وغاباته،

---

[٩٩] مجزرة سن برتلمي أو مذبحة سان بارثلميو (Saint Barth□lmy) وقعت في ٢٤ أغسطس في باريس راحت ضحيتها حوالي ثلاثة أو أربعة آلاف من البروتستانت على يد الكاثوليك نتيجة للتعصب المذهبي، أنظر عنها : هربرت فيشر : أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية، ترجمة : د. زينب عصمت راشد و د. احمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف بمصر ١٩٦٢ ص ١٩٢.

ومزارعه وبواديه، وما فيها من أشجار ونبات وبرد وحر وما يجري فيه أو يتموج تحت سمائه من عذب المياه وأجاجها، فكل ما ينتسب إلى قومهم ولغتهم ووطنهم محبب إليهم حسناً كان أو قبيحاً، ومجذوبون إليه مهما كانت حقيقته المجردة. ذلك هو الواقع اليوم في كل أمة خطت خطوات في سبيل الحياة الاجتماعية، لا ينكر ذلك إلا جاحد أو غافل. من أجل ذلك لا يسوؤني أن أجد في أية أمة من الأمم شباباً تعلقوا بحب قوميتهم ووطنهم، بل احتقر الذين لا يشعرون هذا الشعور، ولا سيما الذين ينصرفون عن مصالح قوميتهم لقاء منافع شخصية خسيسة وفوائد سافلة، فيتلونون بألوان جاذبة ولكنها كاذبة متوسلين بذلك إلى العبث ببساطة الشعب وصفائه ليدفعوه إلى هوة الذلة والنكبة، فالفكرة القومية بذاتها شريفة محترمة، ولكن متاجرة الأفراد بها لمآربهم الشخصية إنما هي من الأعمال الذميمة التي أنفر منها وأراها قبيحة "[١٠٠].

عاش سويله مز أوغلي في الجزيرة العربية ليس كمسؤولٍ أداري أو عسكري فقط، بل كواحدٍ من أبنائها، يشارك أفراحهم وأتراحهم، يسعى جاهداً إلى تقريب وجهات نظر الدولة العثمانية معهم، ويبذل كل ما في وسعه من أجل توطيد الأمن والنظام وإسعاد الشعب العربي وإن كان ذلك على حساب مركزية الدولة. عاش بين أبناء العروبة وتقرب إليهم وأحبهم حباً صادقاً، فعرف الشيء الكثير عنهم : عاداتهم وتقاليدهم، ما يفرحهم وما يحزنهم حتى عدّ نفسه كأنه واحد منهم.. فعندما وقعت حادثة الإدريسي في عسير، سار مرة إلى لقائه. وفي الطريق اجتمع بالشيخ محمد غالي شيخ قبيلة الجهرة، وكان أول شيء خاطبه به الشيخ هو : "يا سليمان ؟ كنا نظنك كبيراً كالجبل، فإذا بك رجل مثلنا "، فأجابه : "أنا صغير مثلكم، ولكن محبتي لكم كبيرة، وكنتم ترون تمثال محبتي، فترون ذلك كبيراً ". فسرّ الشيخ كثيراً بهذا الجواب. ثم دعاه إلى موقع يسمى (جهينة) فجلسا تحت الأشجار وصار الرجال والنساء يأتون من كل الأطراف لمشاهدتهم. أما سويله مز أوغلي فكان يلبس ثوباً عربياً وعباءة على ملابسه العسكرية الصيفية وعلى رأسه كوفية وعقال. حتى نراه يقول : "فكان مظهري هذا يدعو إلى الاستغراب"[١٠١].

---

[١٠٠] المذكرات، مجلة العرب جـ ١٢ السنة ٦ آب/أغسطس ١٩٧٢، ص ٩٥٠ . ٩٥٢.

[١٠١] م.ن. جـ ٢ سنة ٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧١، ص ٩٦

ومما يدل على ما كان يكنه تجاه العرب من حب وتقدير، ما نراه في الأسلوب الذي كان يتبعه عند استقباله شيوخ العشائر العربية عندما كان متصرفاً للواء عسير فيقول:

ومسألة إطلاق المدافع للمشايخ أصبحت عادة جرينا عليها منذ كانت الثورة[١٠٢] قائمة، فانه إذا زارنا شيخ مشايخ إحدى القبائل، كنا نطلق له ثلاثة مدافع، فإذا زارنا شيخ أطلقنا له مدفعاً واحداً. وقد كان لذلك وقع عظيم عند مشايخ القبائل حتى صاروا يعدونني واحداً منهم ويحبونني كحبهم أنفسهم، وهذه المحبة المتبادلة لا يزول أثرها قط من نفسي، حتى أنني إلى هذا اليوم[١٠٣] لا أنسى عسير والعسيريين، وإنني واثق من أنهم هم أيضاً لم ينسوني.

ولما انتقلت من عسير إلى قيادة الجيش العثماني في سوريا ثم إلى ولاية البصرة بقيت المخابرة مستمرة بيني وبين مشايخ عسير ولم تنقطع المخابرة بيننا إلا بنشوب الحرب العظمى[١٠٤].

ومما يجدر ذكره أن حب سويله مز أوغلي وإعجابه بالتقاليد العربية لم يبدأ بعد توليه مسؤولية إدارية وعسكرية رفيعة في البلاد العربية، بل يعود إلى ما قبل هذا التاريخ، إذ عبّر عن ذلك في أكثر من موضع في رحلته، فعلى سبيل المثال نذكر أنه عندما كان في زيارة الشيخ دريبي بن زبن مع أركان قافلة الحج لفت انتباهه شيخ في الستين من عمره، وتقديراً لسنه أشار إليه بالجلوس معهم. إلا أن الشيخ دريبي اعترض على ذلك في الحال قائلاً : "إن هذا الشيخ هو ابن عمي (وصغيري) وجلوسه هنا خارج عن حدوده "، ولا يعتبر سويله مز أوغلي هذا، تكبراً أو سطوة أو غطرسة من قبل الشيخ دريبي، بل يبدي إعجابه بهذا ويعتبره عادة جميلة وطاعته واجبة. ويرى انه لولا هذه الرئاسة الطبيعية بين أفراد العشائر لما تمكنوا من مواصلة العيش تحت هذه الظروف القاسية من حياة البداوة[١٠٥].

---

[١٠٢] ويقصد بها ثورة عسير.

[١٠٣] أي وقت نشره مذكراته في جريدة الأهرام سنة ١٩٢٤ . ١٩٢٥

[١٠٤] المذكرات، مجلة العرب جـ ١١ سنة ٦ تموز ١٩٧٢ ص ٨٤٨.

[١٠٥] الرحلة ٧٩.

ويستشف من كل ما ذكره سويله مز أوغلي في مذكراته أنه سعى جاهداً على مر توليه المناصب المختلفة في البلاد العربية إلى العمل على تهدئة الأوضاع الساخنة وإشاعة الأمن والنظام، والتوفيق بين الشيوخ والوجهاء والزعماء العرب وبين الدولة العثمانية، وكان آخر عهده في البلاد في فترة توليه ولاية البصرة حيث انتدب في سنة ١٩١٣ لمفاوضة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود باسم الحكومة العثمانية للتوفيق بين الطرفين والتي تمخضت عن إبرام اتفاقية بينهما، ووقع سويله مز أوغلي على الاتفاقية بصفته المفوض الأول عن الدولة العثمانية، ومن ذلك الحين . كما يقول سويله مز أوغلي . "**وجهت الدولة إلى السلطان ابن سعود رتبة الوزارة السامية بفرمان سلطاني رفيع وولاية نجد وقيادتها وإمارتها، على أن تنتقل بالإرث إلى أولاده، وهي الخطوة الأولى لطريقة الحكم اللامركزي التي كان يجب أن تقرر في بلاد العرب** "[١٠٦].

ومما يلفت النظر في كلامه هذا، رؤيته المستقبلية للبلاد العربية والمتمثلة بتشديده على منح البلاد العربية الحكم الذاتي، ويبدو أن رؤيته هذه كانت مستمدة من الرؤية الاستراتيجية للدولة العثمانية والتي عبر عنها سويله مز أوغلي على النحو الآتي :

"**لو أن الدولة العثمانية لم تدخل في الحرب العظمى واحتفظت بحيادها، فقد كان في نية حكومتها وضع نظام خاص لطريقة الحكم في العراق وسوريا**[١٠٧].

إلا أن دخولها الحرب العظمى حال دون تحقيق هذا.

لقد استطاع سويله مز أوغلي برؤيته المتزنة وطروحاته السليمة وقدرته على إيجاد حلول لمسائل مستعصية استهدفت الدولة العثمانية في وقت تكالبت القوى الامبريالية الدولية عليها، استطاع أن يفرض نفسه كمصلح سياسي واجتماعي ترك بصماته على معظم الأحداث الساخنة التي وقعت في الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام وذلك في الفترة التي تولى المسؤولية في هذه الأقاليم، فلا غرو إذاً أن تقلده الدولة العثمانية وزيراً للحربية. وقد دوَّن طروحاته في رحلته وثم في مذكراته، إلا أن الذي يؤسف له أنه لم ينه مذكراته، بل قطعها دون أن نعرف السبب رغم انه

---

[١٠٦] المذكرات، مجلة العرب، جـ ٩ سنة ٥ أيار / مايو ١٩٧١ ص ٨٥٨.

[١٠٧] م. ن ص ٨٥٨.

اعترف . في مقدمة مذكراته . بأنه سيكتب في مواضيع مختلفة من بلاد العرب وانه سيتبع موضوعاته بصور فوتوغرافية للمستندات الرسمية المتعلقة بمسائل نجد وعسير والحجاز (١٠٨).

السنجق الشريف

السنجق الشريف أو علم السعادة ، هو السنجق المنسوب إلى الرسول (ص) وهو أسود اللون، اختلف المؤرخون في كيفية وصوله إلى استانبول، فتذكر إحدى الروايات أن السنجق كان في مصر ونقل من قبل السلطان سليم عند عودته من مصر. وتذكر رواية أخرى أن الأمير المملوكي خير بك الذي عين بكلربكي مصر هو الذي أرسله من مصر الى استانبول، ورواية ثالثة تذكر أنه تم استقدامه من دمشق. وذكر المؤرخ العثماني عالي أن السنجق الشريف كان محفوظاً في خزائن دمشق وكان يتردد مع الحجاج والصرة السلطانية بين دمشق ومكة، وقد استمر بهذا الوضع ٧٥ سنة أي إلى سنة ١٥٩٣ حيث تم جلبه من قبل انكشاريي دمشق بمناسبة الحملة على النمسا، وأرسل الى ميدان القتال. ويبدو أن السنجق أعيد فيما بعد الى دمشق، ولكن في أواخر تشرين الثاني سنة ١٥٩٤ م استقدم من الشام إلى استانبول للمرة الثانية وتم حفظه في الخزينة، ثم أرسل تحت حماية ألف فرد من الانكشارية إلى المجر عند وقوع القتال هناك. وأعيد إلى استانبول على يد انكشاريي الشام إثر عودة الجيش بمناسبة فصل الشتاء وتم حفظه في الخزينة.. ثم ارسل إلى محله أي إلى دمشق.

وفي سنة ١٠٠٣ هـ ١٥٩٥ جلب إلى استانبول لإرساله مع الحملات العسكرية فوضع في (اندرون همايون). وبعد الحملة العسكرية لم يرسل إلى دمشق مرة أخرى بل تم حفظه بين الأمانات المقدسة في القصر السلطاني.

وبعد هذا التاريخ أعتيد إرسال السنجق إلى الحروب التي كان يقودها السلطان أو الصدر الأعظم (رئيس الوزراء). ففي سنة ١٠٠٤ هـ ١٥٩٧م أرسل السنجق الشريف مع السلطان في الحملة على آغري، وكان الى جانب السنجق ٣٠٠ من السادة والشرفاء من أحفاد النبي (ص).

---

(١٠٨) أنظر المذكرات : مجلة العرب جـ ٩ سنة ٥ ص ٨٦٣.

ويذكر المؤرخ العثماني سلاحدار في تاريخه أن هذا السنجق كان يسمى عقاب وانه ارسل من قبل خير بك بكلر بكي مصر الى السلطان سليم. وقد تعرض هذا السنجق الى التمزق بمرور الزمن، ولهذا تم عمل ثلاثة سناجق على غرار الأصل، وخيط بكل واحد منها قطعتان أو ثلاث من السنجق الشريف الممزق. وهكذا تجزأ السنجق الى ثلاثة أجزاء. وكان أحد هذه السناجق المحفوظة في (دائرة خرقهء شريف) يتم أخذه من قبل السلطان عند قيامه بالحملات العسكرية أو ذهابه الى أدرنه الى جانب خرقة شريف (= خرقة النبي (ص). أما السنجق الثاني فكان يأخذه الصدر الأعظم عند قيامه بالحملة بدلاً من السلطان، أما السنجق الثالث فكان يتم حفظه في الخزينة[١٠٩].

ويبدو مما ذكره الرحالة سويله مز أوغلي انه تم فيما بعد حفظ السنجق في القلعة الداخلية بدمشق، وكان يتم عرضه قبيل تحرك الصرة السلطانية من الشام.. وعند وصول القافلة الى القدم الشريف يوضع السنجق في محفظته الخاصة[١١٠]، ولا نعرف هل كان هذا السنجق أحد السناجق الثلاثة التي ذكرها المؤرخ سلاحدار أم لا؟.

الصرة السلطانية

الصرة لفظة عربية تعني "ما يجمع فيه الشيء ويشد "، جمعها صرر[١١١]. واستخدمت من قبل العثمانيين كمصطلح بمعنى كيس النقود للدلالة على النقود وما شابهها، والتي اعتادت الحكومة العثمانية إرسالها إلى أهالي الحرمين(= مكة والمدينة) سنوياً وذلك في مواسم الحج. وأطلق العثمانيون على الصرة كذلك اسم "معلومية"[١١٢].

والمعروف أن النقود والهدايا التي كانت ترسل إلى الحرمين بمناسبة الحج لم يبدأ إرسالها في العهد العثماني، بل يمتد تاريخه إلى عهد العباسيين وذكر المؤرخ العثماني أيوب صبري باشا في

---

[١٠٩] للتفصيل يراجع :

Ismail Hakki, Uzuncarsili, Osmanli Devletinin Sary Teskilati , 248-260)

[١١٠] الرحلة ص ٤٧ وما بعدها

[١١١] مجمع اللغة العربية بالقاهرة : المعجم الوسيط، مادة صرة، ص ٥١٢.

[112] Pakalin, Mehmet Zeki : Osmanli Tarih Deyimleri ve Terimleri Sozlugu, Istanbul, 1993, 3:280

كتابه (مرآت الحرمين) أنه تم إرسال المبالغ النقدية (وسماها بالصرة أيضاً) إلى الحرمين لأول مرة في عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله وذلك في سنة ٣١١ هـ (٩٢٣/٩٢٤م). وكان مقدار المبالغ التي أرسلها المقتدر ٣١٥٤٢٦ فيلوري(١١٣). وعلى الرغم من معرفتنا أن الواثق بالله قد أرسل الهبات إلى فقراء الحرمين وذلك قبل ٨١ أو ٨٢ سنة من هذا التاريخ، إلا أن هذه الهبات لم تكن ترسل سنوياً إلى هناك. كما قام الفاطميون بإرسال الأموال إلى الحرمين بغية ربط الحجاز بهم. وخصصوا لهذا الغرض (١٢٠) ألف دينار سنوياً، وقد ارتفع هذا المبلغ في زمن الوزير اليازوري إلى (٢٠٠) ألف دينار. ولم يتجاوز مقدار ما أرسل إلى الحرمين فيما بعد هذا الحد حتى مجيء العثمانيين. وكانت الحكومات المصرية تعتني كثيراً بالمحمل الذي يرسلونه إلى الحرمين. وكان من الأصول المرعية عندهم أن يقوم كبار رجال الدولة بتقبيل أرجل الجمل الذي يحمل المحمل وذلك في المواقف التي يتوقف فيها. كما كان أمراء مكة يقبلونها أيضاً. وقد استمرت هذه العادة إلى عهد السلطان المملوكي جقمق، إذ ألغاها في سنة ٨٤٣ هـ ١٤٣٩/١٤٤٠م(١١٤).

والى جانب المماليك أخذ العثمانيون يرسلون الصرة إلى الحرمين الشريفين، ويعتبر السلطان محمد جلبي (١٤٠٤ . ١٤٢١) أول سلطان عثماني يقوم بذلك، فنعرف أنه أرسل مرتين، ثم حذا حذوه ابنه، ولكننا لا نملك أية معلومات عن مقدار المبالغ التي أرسلها السلطان محمد جلبي. أما ابنه فقد أترسل ٣٥ ألف فيلوري. وقد اتخذ هذا المبلغ أساساً للمبالغ التي تم إرسالها سنوياً فيما بعد. ثم توالى إرسال المبالغ في كل سنة. وبلغ مقدارها في سنة ٨٥٥ هـ ١٤٥١ م(٨٠١) كيسه(١١٥). كما أرسل شاهروخ بن تيمورلنك هو الآخر في سنة ٨٤٣ هـ ١٤٤٠ م مبلغاً من المال إلى الحرمين. وفي سنة ٨٨٦ هـ ١٤٨١ م أرسل السلطان العثماني بايزيد الثاني ١٤٠٠ صرة ذهب إلى الحرمين قسمها مناصفة بين أهل مكة وأهل المدينة. ثم بدأ المبلغ بالزيادة تباعاً سنة بعد

---

(١١٣) فيلوري أو فيلورين هو الاسم الذي اطلق على المسكوكات الذهبية المضروبة في مدينة فيلورنسة في القرن ١١م وانتشرت منها إلى الدول الأوروبية. ثم أطلق هذا الاسم على المسكوكات الذهبية وبهذا الشكل انتقل إلى العثمانيين واطلق على المسكوكات الذهبية المضروبة فيها، أنظر، Pakalin, 1:629

(١١٤) Pakali , 3: 284.

(١١٥) كيسه : وحدة نقدية عثمانية تعادل ٥٠٠ قرش، وتسمى كذلك كيسه آقجة. وكيسه ذهب تعادل عشرة آلاف قرش (أنظر (Meydan Larousse 11: 181) وكانت الكيسة المصرية تعادل ٦٠٠ قرش (Develioglu , 552).

سنة. ويذكر أن أحد شعراء المدينة وهو الشيخ شهاب الدين قد بعث بقصيدة شكر إلى السلطان بايزيد مع الشيخ محي الدين عبد القادر العراقي مطلعها :

خذوا من ثنائي موجب الحمد والشكر

ومن در لفظي طيب النظم والنثر

فنال على أثرها مكرمة سنوية من السلطان مقدارها ألف ذهب خصصت له إلى وفاته[١١٦].

ويبدو أن الصرة التي كان يتم إرسالها من قبل السلاطين العثمانيين الأوائل لم تكن تعتمد على وقت معين بل كانت بمثابة أعطية الغرض منها نيل الثواب وكسب قلوب المؤمنين والمؤمنات[١١٧]. وقد استمر هذا إلى نهاية عهد السلطان بايزيد الثاني بن السلطان محمد الفاتح. وفي عهد السلطان سليم الأول تغير الأمر، إذ أدخل إرسال الصرة إلى الحرمين ضمن المهام السياسية للدولة، أي أصبحت ترصد لها مبالغ معينة في خزينة الدولة. فقبل هذا الوقت لم يكن نفوذ الدولة العثمانية يمتد إلى الحجاز التي كانت تابعة إلى المماليك في مصر. ولكن بعد أن سيطر السلطان سليم على مصر (٩٢٣ هـ ١٥١٧م) أرسل شريف مكة أمانات النبي(ص) ومفتاح الكعبة إليه. ورافق هذا أن دعي للسلطان في الخطبة باسمه في الحجاز. وذكر اسم السلطان في الخطب بشكل "خادم الحرمين الشريفين "، وقد سرّ السلطان بهذا غاية السرور، وعرفاناً بالجميل أرسل إلى أهل الحرمين ٢٠٠ الف فيلوري وسبعة آلاف إردب[١١٨] من الحبوب[١١٩]. كما أمر بإرسال الصرة بشكل منتظم سنوياً، وقد أطلق أهل الحرمين على هذه الصرة اسم "الصدقات الرومية "[١٢٠]. وفي عهد السلطان محمود الثاني أرسلت ١٧ ألف إردب من الحبوب إلى الحرمين إلى جانب الصرة، وبلغ مقدار

---

(116) Pakalin 3: 284

(١١٧) الرحلة ٤٨

(١١٨) الاردب عبارة عن ١٠٨ قية قديمة (رحلة سويله مز أوغلي ٢٣٩)، وعن القية أنظر هامش ١، ص٧٢ من قسم الرحلة.

(١١٩) ذكر سويله مز أوغلي أن السلطان سليم خصص لمكة (٥) آلاف وللمدينة الفي اردب، الرحلة ٢٣٩.

(١٢٠) اسماعيل حقي اوزون جارشيلي : أمراء مكة في العهد العثماني، ترجمة خليل علي مراد، البصرة ١٩٨٥، ص ٢٧ وسنشير اليه لاحقاً بشكل أمراء مكة.

النقود الممنوحة من قبل السلطان عبد الحميد الثاني ٦١٥, ٥١٣, ٣ قرشاً [١٢١]. ويستدل من "لطيفة " أوردها الرحالة التونسي السنوسي في رحلته إلى الحرمين سنة ١٢٩٩هـ، أن المبلغ المخصص للحرمين من قبل الدولة العثمانية كان صغيراً قياساً لإحدى زوايا بغداد، حتى أن نقيب الأشراف في بغداد الشريف المشير السيد سلمان الجيلي استصغره جداً بعد أن عرف به من أمين الصرة، فقال له : "إن خطباء المسلمين في جميع الدنيا ينادون بأن السلطان خادم الحرمين الشريفين، وهذا المبلغ إذا اعتبرنا منه مصاريف الركب ونظرنا لمخصوص ما ينال أهالي الحرمين مع كون أوقاف المسلمين على الحرمين من الممالك العثمانية بعد نظارة الأوقاف لا نجد فيه نسبة معتبرة. وإني أنا بموجب نظارتي على زاوية جدي ببغداد يصلني كل سنة من زيارات أهل الأقطار مبلغ أكثر مما يصل الحرمين من الدولة فضلاً عن مداخل وقف الزاوية في سائر الجهات، وهي أيضاً في نفسها أكثر من هذا المبلغ تصل إلى النقباء والعلماء والمجاورين، وتصرف في الإيقاد والتحصير والإطعام العام على ممر الأيام. أ.هـ" [١٢٢].

وعلى الرغم من هذا فانه لم يرد على لسان أمراء مكة، أو شيوخ القبائل ما يشير إلى أن المبالغ المرسلة إلى الحرمين كانت قليلة، وفضلاً عن هذا فان نقيب الإشراف في بغداد ركز في كلامه على المبالغ النقدية فقط وأغفل ذكر الحبوب والهدايا المادية الأخرى المرسلة إلى جانب المبالغ النقدية

---

[121] Pakalin, 3:284.

ولم يذكر باكالين السنة التي ارسل فيها السلطان عبد الحميد هذا المبلغ.

القرش وحدة نقدية تم استعماله في الدولة العثمانية وسميت فيها (غروش) وفي مصر (قرشاً). وقد اختلفت قيمته على مر العهود، ففي سنة ١٦٣٧م كان يعادل تسعة دراهم فضية. وفي سنة ١٦٩٠ تم تحديد قيمة القرش بـ ١٢٠ آقجة (وحدة نقدية فضية). وفي عهد السلطان سليم الثالث خفضت قيمة النقود الفضية وعيارها، واستمرت قيمتها بالانخفاض حتى سنة ١٨٤٣ حيث أجري الاصلاح النقدي، فتم سك قرش جديد وحدد وزنه بـ ٢٠٢, ١ غرام وقطره بـ ١٥ ملم، كما تم ضرب نقود بقيمة ٥, ٢ و ١٠ و ٢٠ قرشاً. أنظر Meydan Larousse 12: 77

[١٢٢] علي الشنوفي : مكة المكرمة والكعبة المشرفة في كتب الرحالة المسلمين، تونس ١٩٨٩، ص ٢٨ والمعروف ان القسم المتعلق بالحرمين من رحلة السنوسي نشر في مجلة العرب أيضاً وذلك ضمن مبحث : في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات الى الحج، جـ ٣ و ٤ سنة ١٣، أيلول / تشرين الأول ١٩٧٨ ص ٢٥٠ وما بعدها.

ومما يجدر ذكره أن إرسال الصرة من قبل العثمانيين إلى الحرمين استمر دون توقف حتى وان كانت الدولة تعاني من مشاكل. واستمر إرسالها إلى مكة لغاية السنة التي سبقت ثورة الشريف حسين في سنة ١٩١٦. وبعد ذلك أصبحت ترسل إلى المدينة المنورة فقط[١٢٣]، واعتباراً من سنة ١٩١٧ اقتصر إرسالها إلى الشام فقط. وعلى الرغم من كل ذلك كان مقرراً إرسال ٢٧٢, ٦٤٠, ٣ قرشاً في سنة ١٩١٨، إلا أن النتائج التي تمخضت عنها الحرب العالمية الأولى حالت دون تحقيق ذلك.

وفي الوقت الذي ينتقد نقيب الإشراف في بغداد ضمنياً العثمانيين لقلة المبالغ المرسلة من قبلهم إلى الحرمين، نجد بعض الكتاب الأتراك يستغربون من قيام السلطان العثماني بإرسال هذه المبالغ بصفته خادم الحرمين الشريفين. فيقول الكاتب خالد ضيا أوشاقلي كيل في هذا الصدد : كانت الحجاز ولاية ومكة إمارة، وكان يفترض أن تؤمن ولاية الحجاز وإمارة مكة نفقات المؤسسات الإدارية والوحدات العسكرية المرابطة فيهما من الإيرادات المحلية، وعليهما دفع ضرائب معينة إلى الحكومة المركزية، وعلى الرغم من هذا فقد أخذت الحكومة نفقات ولاية الحجاز بكاملها على عاتقها، كما اعتادت إرسال مبالغ كبيرة من المال إلى الإمارة، وهذا المال كان يعرف بالصرة السلطانية. وكانت هذه المبالغ تؤمن النفقات المتعلقة بإدارة الحرمين، كما أن إمارة مكة توزع قسماً كبيراً منها لشيوخ القبائل ورؤساء العشائر[١٢٤].

وفضلاً عن المبالغ النقدية المرسلة إلى الحرمين، استمر توزيع الحبوب على الأهالي أيضاً، فقد ذكر سويله مز أوغلي أن كمية الحبوب التي أرسلت إلى الحرمين في أيامه بلغ عشرين ألف إردب، ١٢ ألف منها لمكة المكرمة وثمانية آلاف للمدينة المنورة[١٢٥].

ومما يجدر ذكره أن ما كان يرسل إلى الحرمين، لم يكن يقتصر على ما يتبرع به السلطان وأركان الدولة فقط، بل يضم أيضاً الهدايا التي يرغب بإرسالها المتصدقون من المتمكنين مادياً إلى الأماكن المقدسة. ولهذا فان نظارة الأوقاف (= وزارة الأوقاف) تقوم باستلام ما يتبرع به أي

---

[123]Pakalin, 3:284.

[124] Pakalin, 3:281, : عن

(Halit Ziya Usakligil, Saray ve Otesi, 3:55 ve devami)

[١٢٥] الرحلة ٢٣٩.

شخص وتضعها في حقائب جلدية خاصة تسمى (فراشت) يكتب على وجهها اسم المرسل وعلى ظهرها عنوان المرسل إليه. ويضع صاحب الحقيبة في داخلها مبلغاً من المال، وعند عودة القافلة يستلم حقيبته وفي داخلها بعض الهدايا المختلفة مثل : ماء زمزم وحناء ونبات الصبر وتمر وخاتم عقيق وغيرها. أما الذين يرسلون هذه الهدايا فهم ما يطلق عليهم "فراشت وكيللري " وهم جمع من الفقراء يقومون بأعمال الخدمة والدعاء في الكعبة، ويرسلون هذه الهدايا إلى (المؤمنين) الذين بقوا في استانبول ولم يتمكنوا من أداء فريضة الحج لسبب أو آخر، وهؤلاء الفقراء يعتمدون في تغطية أمورهم المعاشية طوال السنة على الأموال التي تأتيهم من المحسنين والمتصدقين[١٢٦].

وكانت الأموال المزمع إرسالها من استانبول تكون على شكل مسكوكات ذهبية وفضية وتوضع داخل أكياس قوية وتربط ثم تختم وتحمل على جمل ثمين.. وهذا الجمل يعد(النجم الرئيسي للمراسم) للمراسيم التي تقام بهذه المناسبة في استانبول ويتم اختياره من بين أكثر الجمال جمالاً ورشاقة ويبالغ في تجهيزه وتزيينه[١٢٧].

أما الهدايا المرسلة إلى الحرمين الشريفين فكانت توضع في صناديق صغيرة وتأخذ طريقها إلى الحجاز، وتتضمن السجاد الثمين والنادر والثريات المرصعة والشمعدانات والمصاحف التي لا تقدر بثمن واللوحات وحلقات الستائر الفضية وعدة أوقة من البخور وخلعاً مرصعة بالألماس واللؤلؤ وسيفاً مرصعاً وسبحة من اللؤلؤ لأمير مكة، وباختصار مواد لا تقدر بثمن[١٢٨]. وذكر الرحالة التونسي السنوسي انه قابل أمين الصرة عند زيارته الحرمين وسأله عن الصرة فأخبره : أن مبلغ ذلك نحو خمسة ملايين ونصف (المليون) قرشاً وذلك نحو إحدى عشرة ومائة ألف فرنك من خصوص المال عدا القفاطين والعوائد وأدوات الإيقاد وغيره، ومجموع مبلغ الصادر نحو المليونين ونصف (المليون) من الفرنكات والقفاطين تخرج لجميع خطباء الأراضي الحجازية ولخصوص شريف مكة قفطان مجوهر تبلغ قيمته نحو الستين ألف قرش أي أثني عشر ألف فرنك[١٢٩].

---

(126) Pakalin, 3:383, : عن
Ercument Ekrem Talur, (Dunden Hatiralar)

(127) Pakalin , 3: 281. : عن الكاتب العثماني Usakligil

(128) Pakalin , 3: 283 : عن الكاتب العثماني Talur.

(١٢٩) علي الشنوفي، مرجع سابق ص ٢٧

والى جانب النقود والهدايا المرسلة إلى الحرمين، كانت تنقل رسالة السلطان إلى شريف مكة. وكان رئيس الكتّاب (باشكاتب) هو الذي يحرر هذه الرسالة في السابق، ويعرضها على السلطان للتوقيع عليها. ولكن أصبحت فيما بعد المعاملات المتعلقة بالمبالغ النقدية تجري من قبل ناظر الأوقاف (وزير الأوقاف)، أما الرسالة السلطانية فكانت تعد في الباب العالي (رئاسة الوزراء العثمانية) [١٣٠].

ومما يجدر ذكره، أن إرسال الصرة من مصر لم ينقطع بقيام العثمانيين بأخذه على عاتقهم، بل استمرت الحكومة الخديوية بإرسالها فضلاً عن ستارة الكعبة والمحمل المسمى المحمل المصري والذي سماه سويله مز أوغلي "محمل السيدة فاطمة "[١٣١].

* * *

وكانت الصرة السلطانية يتم إرسالها وتسليمها إلى مستحقيها تحت إشراف وإدارة مسؤول يسمى "صرة أميني " (أمين الصرة) ويرافقه عدد لا بأس به من المرافقين والحرس. ويتم اختيار صرة أميني من العسكريين من ذوي الرتب العالية أو من الموظفين الإداريين أو من علماء الدين. ويشترط في اختياره أن يكون مشهوداً له بالتدين والصدق والخلق الرفيع. ويباشر بعمله مع عرض الصرة وخروجها إلى الطريق إلى الحرمين، ويقوم بتوزيع الأمانات إلى أصحابها ويؤدي فريضة الحج ثم يعود إلى استانبول. وعلى الرغم من أن أمانة الصرة كانت وظيفة مشرفة يتمنى كل

---

(١٣٠) Pakalin , 3: 285.

والى جانب النقود والهدايا المرسلة الى الحرمين ضمن الصرة والمحمل كان هناك صندوق يضم شعر السلطان، إذ أن رئيس الحلاقين يقوم بوضعه في صندوق خاص بعد قصه وغسله في صحن فضي ويمرر منه دخان البخور. وعند إخراج الصرة يتم ختم الصندوق ويرسل الى المدينة حيث يدفن الى جوار قبر النبي، أنظر :

Uzuncarsili : Osmanli Devletinin Saray Teskilati , Ankara , 1988, 327, dipnot : 4 (Enderun Tarihinden)

(١٣١) الرحلة : ٤٩

رجالات الدولة نيلها، إلا أن تخصيصاتها المادية من قبل الدولة كانت قليلة، فيضطر الأمناء إلى الصرف من أموالهم الخاصة. ولهذا السبب فان أمانة الصرة كانت توجه إلى الأغنياء. وفي العصور الزاهرة للدولة العثمانية حيث ازداد عدد ميسوري الحال، كان الأغنياء لا يترددون من صرف أموال طائلة عند تقلدهم هذه الوظيفة، ولكن عندما انخفض عدد هؤلاء فيما بعد ولا سيما في أواخر القرن١٢هـ/١٨م كان المرشحون لأمانة الصرة يلجأون إلى هذا وذاك من أجل التوسط بغية إعفائهم من هذه المهمة، الأمر الذي حدا بالدولة للتدخل، ففي سنة ١٢٠٧هـ ١٧٩٢ / ١٧٩٣ م وفي عهد السلطان سليم الثالث أضيف ٥٠ ألف غرش إلى مخصصات أمين الصرة، فأصبحت هذه الوظيفة كالوظائف الأخرى تلقى إقبالاً على تقلدها[١٣٢].

وكان يتم استخراج الصرة السلطانية وتوديعها في احتفال مهيب يقام في استانبول. وقد أطلق على ذلك اسم(صرة اخراجي) أي إخراج الصرة إلى الطريق، كما استخدم مصطلح (صرة آلايي) أي عرض الصرة للدلالة على المراسيم التي تقام بالمناسبة نفسها. ولا شك أن هذه الاحتفالات كانت قد جرت . لأهميتها الدينية . في استانبول عند البدء بإرسالها لأول مرة. وعلى الرغم من ورود ما يدل على قيامها في المصادر التاريخية، إلا أننا لا نملك معلومات عن كيفية إجرائها. ولعلها بدأت بسيطة ثم اتخذت شكلاً مميزاً فيما بعد. ولم تكن هذه المراسم تجري على نسق واحد، بل كانت تتغير من وقت لآخر. وفي ضوء الوثائق التي تم الكشف عنها، قسم الباحثون هذه المراسيم إلى قسمين رئيسيين :

أ. المراسم التي كانت تجري قبل عهد التنظيمات.

ب. المراسم الجارية بعد إعلان التنظيمات.

---

[١٣٢] وهذا الخبر مأخوذ من تاريخ جودت جـ ٦ ص ٥ حوادث سنة ١٢٠٧، وذكر الرحالة التونسي السنوسي أن مخصصات أمين الصرة هو "ستة الاف ليرة، يقوم منها بجميع لوازم أبهته من اتباع ومراكب وخيام ومطابخ وغير ذلك. أما وقف السلطان سليم فقد جعل فيه ستمائة قرش لأمين الصرة فقط، ولذلك لم تزل عادة السلاطين عند حضور خروج المحمل يعطون بأيديهم أمين الصرة ستمائة قرش من ريع الوقف على أنها أجر الواقف " أنظر : علي الشنوفي : مرجع سابق، ص ٢٧.

وكان عرض الصرة (صرة آلايي) قبل عهد التنظيمات يجري على النحو الآتي : يقوم دار السعادة آغاسي (آغا دار السعادة) وكتخدا بك بإرسال التذاكر إلى المدعوين لحضور الحفل، ويُبَلَّغ القبطان باشا بنقل الصرة من اسكدار. ويتم تزيين الديوان الهمايوني والأماكن اللازم تزيينها وفرشها وتوضع فيها الستائر وتنصب الخيام. وينتظر المدعوون في الديوان الذي يعقده آغا دار السعادة في غرفة الكتاب في السراي (القصر). وعند وصول الآغا، يسلم إليه رسالة السلطان (نامه همايون) الموجهة إلى شريف مكة وذلك بعد ختمها بحضور الصدر الأعظم، ويخلع على المدعوين بالخلع من قبل الآغا، كما تقام مأدبة كبيرة للمدعوين بهذه المناسبة. وخلال هذه الفترة يتم إعداد دفاتر الصرة السلطانية(١٣٣). ويقوم كاتب آغا دار السعادة (دار السعادة آغاسي يازيجيسي) بختمها، ثم يختمها بنقش الحرمين كما يضع الدفتردار شارته المذيلة محل توقيعه. ثم يقوم النيشانجي(١٣٤) بوضع الطغراء عليها(١٣٥). وكان أمين الصرة يأخذ هذا الدفتر معه ويقوم بتوزيع الأموال والهدايا بموجبه(١٣٦).

---

(١٣٣) اشار الباحث التركي خليل ساحللي اوغلو (ص ١٤٢) إلى عدد من هذه الدفاتر والرسائل المحفوظة في مكتبات استانبول، ففي مكتبة جامعة استانبول يوجد تحت رقم ٩١٩٤ و ٩١٩٦ دفتران لصرة ١٣١٦ ورسالة شكر بعد صرة سنة ١٢٩٤ تحت رقم ت ٩٥٢٩ وصرة ١٣٠٣ (رقم ت ٩٥٣٠) وصرة ١٢٩٥ (ع ٦٨٦٧) وصرة ١٢٩٩ (ع ٦٨٥٠) ورسالة شكر أخرى لعلها نموذج لهذه الرسائل لم تذكر سنتها (ع ٥٩٤٨). وفي مكتبة طوب قابي سرايي في مجموعة خزانة الأمانة (أمانت خزينة سي) دفتر صرة سنة ٩٩٨ (رقم ٣٠٥٥) ودفتر سنة ١٠٣١ (رقم ٣٠٧١) ودفتر سنة ١٣٣٥ ضمن مجموعة محمد الخامس (رقم ٥٨٧).

ويذكر خليل ساحللي اوغلو أن كل دفتر من دفاتر الصرة يتضمن قائمة بأسماء كل من يجب أن توزع عليه الصرة. فإذا ما وصلت المبالغ والدفتر وتم التوزيع بموجبه يرسل أمير مكة وقاضي الحرم وشيخ الحرم رسالة يشكرون بها السلطان. (أنظر خليل ساحللي اوغلو ص ١٤٢).

(١٣٤) النيشانجي : هو الموظف المسؤول عن حمل الطغراء ووضعها باسم السلطان على الفرامين والبراءات والرسائل الصادرة من قبل السلطان، أنظر :

Yeni Rehber Ansiklopedisi, Nisanci, maddesi, Istanbul. 1994, 14: 235

(135) Uzuncarsili 181-182

(١٣٦) خليل ساحللي أوغلو ص ١٤٢.

والحقيقة أن الاحتفالات التي كانت تقام في استانبول بمناسبة توديع الصرة تعتبر من أهم وأشهر الاحتفالات التي كانت تقام في استانبول في العهد العثماني، إذ كانت تحظى باهتمام القصر والناس على حدٍ سواء(١٣٧).

أما بعد عهد التنظيمات وخاصة في زمن السلطان عبد الحميد الثاني فكانت الاحتفالات تقام في سراي السلطان حيث كان (جمل المحمل) يقاد أمام المشاركين في الاحتفال والى جانبه أمين الصرة. ويقوم الموظفون والخدم بدق الجرس وهم يطوفون في حديقة السراي. وتتم هذه المراسم بحضور السلطان والوزراء ونساء الحرم ويشاهده جمع غفير من الأهالي(١٣٨). وفي هذه الأثناء يصعد السلطان إلى الشباك وينزل وزير الأوقاف مع أمين الصرة إلى الحديقة مقترباً من الجمل. وكانت التقاليد المرعية تقتضي بأن يدور بالجمل (قزلر آغاسي) (١٣٩) ثلاث مرات، وفي المرة الثالثة يأمر السلطان بتسليم الجمل إلى وزير الأوقاف، وبخلاف ذلك يعزل القزلر آغاسي من وظيفته لكونه قد أخفق في أداء مهمته بشكل سليم. ولهذا فإن هذا المسكين ينتابه الخوف والقلق وينضح عرقاً من خلال ملابسه المطرزة، وعندما ينجو من غضب السلطان ويتلقى الإشارة منه يتنفس الصعداء، ويقوم بتسليم لجام الجمل إلى الوزير الذي يقوم هو الآخر بتطويفه مرة واحدة ثم يسلمه إلى أمين الصرة. وفي هذه الأثناء تذبح الذبائح ويحرق البخور وتتعالى التكبيرات، وبعد انتهاء هذا الفصل من المراسم التي تجري في حدائق قصر يلدز وأحياناً في قصر دولمة بغجة، يقام العرض في الطريق برعاية التشريفاتجي أي مسؤول التشريفات أو المراسم الذي يتقدم بزيه

---

(137) Pakalin, 3:282 (Talur'dan), Uzuncarsili, 181 – 182

وانظر عن هذه الاحتفالات كذلك أمراء مكة ٥٢ . ٥٣. Meydan Larousse, 18: 374

(138) Pakalin 3:282 : عن الكاتب العثماني Usakligil 3: 55

(١٣٩) رئيس مسؤولي الحرم في القصر السلطاني، أنظر :

Baykal, Bekir Sitki : Tarih Terimleri Sozlugu, T.D.K, Ankara 1981, 59.

الرسمي وهو يمتطي أحد خيول الإسطبل الخاص ويعقبه قفطانجي باشي[١٤٠] وأمين الصرة ثم الجمال المحملة بالمحمل السلطاني والهدايا الأخرى، ويرافقهم العكامة[١٤١] الذين يمتطي قسم منهم خيولاً ويترجل قسم آخر، ويحيط بالموكب من كلا الجانبين جنود مشاة وشرطة[١٤٢]. وفي الوقت الذي تخرج قافلة الصرة السلطانية من قصر طوب قابي، كان الناس يحتشدون في الطريق لمشاهدتها. وبعد احتراق قصر طوب قابي، اعتيد استخراج الصرة من قصر دولمة بغجة ثم قصر يلدز[١٤٣]، وكان يتم إخراج الصرة من القصر السلطاني بشكل رسمي في اليوم الخامس عشر من شهر شعبان[١٤٤].

* * *

واتبع في نقل الصرة السلطانية من استانبول إلى الحرمين ثلاثة طرق وهي :

أ. الطريق البري : واتبع هذا الطريق في بداية الأمر، إذ كان يتم إيصال الصرة من القصر السلطاني إلى المرفأ ومنه تعبر إلى اسكدار ليأخذ طريقها براً إلى الحرمين، ونظراً لطول مسافة هذا الطريق فقد كانت الاحتفالات تقام في اليوم الثاني عشر من رجب لإخراج الصرة. وقد استخدم لنقلها البغال والجمال.

ب. الطريق البحري : استمر إرسال الصرة السلطانية براً حتى سنة ١٢٨١ هـ ١٨٦٤م حيث بُدئ بإرسالها عن طريق البحر. وأعتيد إخراج الصرة في هذه المرة في منتصف شعبان وذلك لقصر الطريق. وفي الوقت الذي قام سويله مز أوغلي برحلته كانت الصرة ترسل بهذا

---

(١٤٠) **قفطانجي باشى** : الموظف الذي يشرف على منح الخلع لرجال الدولة رفيعي المستوى، أنظر
Hayat Buyuk Turk Sozlugu, Istanbul, tarihsiz. 635

(١٤١) سنتناول العكامة فيما بعد (انظر الهامش ١، ص ١٠٤ من قسم الرحلة)

(١٤٢) Pakalin, 3:282-283 عن الكاتب العثماني (Talur).

(١٤٣) م.ن. 285.

(١٤٤) الرحلة ص ٢.

الطريق، ولهذا نجد في رحلته معلومات واسعة عنه، إذ كانت الصرة تستخرج من القصر السلطاني ثم تنقل بالباخرة إلى مرفأ بشكطاش ثم اسكدار أي القسم الآسيوي من استانبول ومنها تنقل بالسفينة حتى بيروت ومنها إلى الحرمين عبر دمشق والمحطات والمنازل الواقعة في شرقي الأردن، فيتم بذلك اتباع الطريق القديم[١٤٥].

ج. وعندما أنشيء الخط الحديدي الحجازي في زمن السلطان عبد الحميد الثاني بديء بإرسال الصرة السلطانية بواسطة القطار. وقد استمر إرسالها عبر هذا الطريق إلى أن توقف إرسالها نهائياً (١٩١٨) [١٤٦].

* * *

ومما يجدر ذكره أن الاحتفالات المقامة بمناسبة إرسال الصرة لم تكن تقتصر على استانبول فقط، بل كانت تقام احتفالات مماثلة في كل من بيروت ودمشق. فعند وصول الصرة السلطانية إلى بيروت كان يتم تزيين الأرجاء المختلفة بالقناديل والشموع وتطلق الألعاب النارية ويقوم فريق العكامة بقرع الطبول مسرورين مبتهجين، وبهذه المناسبة يستقبل والي بيروت وكبار الضباط وجمع من الجند السلطاني، أفراد فريق الصرة السلطانية[١٤٧]. وكان موكب الصرة يصل إلى دمشق في القسم الأول من رمضان ويغادرها بعد عودته من الحج باتجاه استانبول بين ١٥ صفر و١٥ ربيع الثاني حسب الظروف[١٤٨].

---

[١٤٥] الرحلة ص ٢.

[١٤٦] م. ن ص ٢٨٥ .Meydan Larousse 18: 374.

[١٤٧] م. ن ص ١٢.

[١٤٨] عبد الكريم رافق، قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني، دراسات تاريخية، دمشق، العدد ٦، تشرين أول / أكتوبر ١٩٨١، ص ١٣.

وكما هو معروف فان قافلة الحج بما فيها فريق الصرة والمحمل كانت تتعرض في السابق إلى اعتداءات البدو، ولهذا فقد كانت الدولة تعين أميراً للحج وحرساً لمرافقة القافلة وتأمين الحماية اللازمة لها في بلاد الشام[١٤٩]، كما كانت الدولة تطلب من حكام الولايات التي يمر بها موكب الصرة تأمين الحماية له كل في منطقته[١٥٠]. واستمرت عادة تعيين أمير للحج جارية حتى بعد إقامة الخط الحديدي الحجازي ونقل الصرة عليه. وأصبحت هذه المهمة إمارة تنتقل من الأب إلى الابن، ألا أنها فقدت أهميتها من حيث المحمل والصرة. إذ كان المحمل ينقل كأية بضاعة تجارية في قاطرة يتم ختمها بختم رصاصي في حيدر باشا (محطة قطار استانبول) ولا يتم فتحها إلا في الحجاز[١٥١].

وذكر الباحث التركي أوزون جارشيلي أن الدولة العثمانية كانت تخصص للبدو الذين على طريق قوافل الحج مبالغ من المال سنوياً تسمى صرة العربان[١٥٢].

وذكر السنوسي في رحلته ان القوات المرافقة للركب الشامي كانت تتألف في سنة ١٢٩٩هـ من أربعمائة عسكري (بياده على الخيل) [١٥٣]، ومائة جندرمي (قوات الدرك) وخمسين طوبجية[١٥٤] معهم مدفعان[١٥٥].

---

(١٤٩) Pakalin, 3: 283.

(١٥٠) عن كيفية قيام حكام المدن والولايات بتوفير الحماية اللازمة لموكب الصرة خلال سيرها من استانبول الى الشام ومنها الى الحرمين، يراجع : أمراء مكة ص ٥٧ وما بعدها.

(١٥١) Pakalin, 3: 282 – 283. عن Talur

(١٥٢) أمراء مكة، ص ٦٠.

(١٥٣) استخدم السنوسي تعبير "عسكر بيادة على الخيل". ويبدو أنه كان يجهل معنى(بياده) التي تعني (مشاه).

(١٥٤) طوبجية، تعني صنف المدفعية.

(١٥٥) علي الشنوفي، مرجع سابق : ص ٢٠ . ٢١.

أما الرحالة سويله مز أوغلي فقد أورد معلومات مهمة عن كيفية توفير الحماية للصرة في طريقها إلى الحرمين الشريفين، فذكر أنه يتم سنوياً تخصيص ٢٥٠ - ٣٠٠ بغّالة مع بغالهم ونصف فوج جندي مشاه من الجند السلطاني، وعدد من مدافع الجبل، وفوجان من خيالة الدرك أي (٢٠٠) من الأفراد، ويرافقهم الجمالون المدنيون من الشيشان والبدو ويتراوح عددهم بين ٦٠ و ٧٠ ويسمون "عقيل "[١٥٦]. أما مهمة القيادة فتعطى لمحافظ موكب الحج. ويقوم الجند السلطاني والدرك بمرافقة القافلة عند سيرها للمحافظة عليها ويكونان في الجانبين وتحتل المدفعية مكانها في مقدمة القافلة. أما فرقة الاكيل فكانت تأخذ على عاتقها إيصال المسافرين والجمال التي تتخلف عن القافلة[١٥٧].

وعلى الرغم من كل التدابير التي اتخذتها الدولة من أجل تأمين الحماية للقافلة، إلا أنها لم تنج من هجوم البدو عليها. ففي القرن السابع عشر على سبيل المثال تعرضت إلى الهجوم سبع مرات[١٥٨].

* * *

ويسلط سويله مز أوغلي الأضواء على كيفية توزيع الصرة على رؤساء العشائر في الجزيرة العربية، فيذكر أنه عند وصول القافلة إلى قلعة (شعب النعام) [١٥٩] أو (بئر الجديد) أو (والده قويوسي) ورد رسل محمد بن الرشيد أمير جبل شمر وذلك لاستلام المنحة السلطانية المخصصة له والبالغة ٢٥ ألف غرش والخلع المخصصة له ولرؤساء وشيوخ العشائر الخاضعين له والبالغة ٤٠ . ٥٠ خلعة، وسلموا رسالة باللغة العربية من أمير شمر إلى أمين الصرة السلطانية. وقد أورد سويله مز ترجمة تركية لبعض ما ورد في هذه الرسالة التي حملت تاريخ ٣ ذي القعدة ١٣٠٧هـ (

---

[١٥٦] سنتوقف عند هذه الكلمة فيما بعد (أنظر هامش ١،ص ٩٠ من قسم الرحلة، وقد وردت في الرحلة بشكل أكيل.

[١٥٧] الرحلة ٦٥.

[١٥٨] عبد الكريم رافق ٩.

[١٥٩] ورد الاسم بشكل (شعب النامة)

٢١ حزيران/يونيه ١٨٩٠م)، يذكر فيها أمير شمر بأنه أرسل أحد رجاله وهو (حمودي) لاستلام الصرة والخلع التي منحها له السلطان (وهو يصف السلطان بشكل "ولي نعمتنا ")، ويرجو تسليمها له[١٦٠]. وطبقاً لما ذكره سويله مز أوغلي فان ابن الرشيد كان يستلم الصرة والخلع المخصصة له من السلطان في الموضع ذاته[١٦١].

أما بالنسبة إلى أمير مكة فانه كان يستلم الكتاب السلطاني من أمين الصرة ويقوم بتقبيله ووضعه على رأسه ثم يقرأه علناً في منى الواقعة على بعد أربع ساعات من مكة. وبعد ذلك يستلم أكياس الصرة والدفتر الذي يتضمن أسماء الذين توزع عليهم الصرة ومقاديرها. وكانت الأموال توزع تحت إشراف أمير مكة وشيخ الحرم وأمين الصرة وقاضي مكة. أما الصرة المخصصة لأهالي المدينة المنورة فكانت توزع تحت إشراف وكيل أمير مكة هناك وقاضي المدينة المنورة وشيخ الحرم النبوي وكاتب الصرة[١٦٢].

ومما يجدر ذكره أن ما كان يرسل من قبل الدولة العثمانية إلى الحرمين من الحبوب التي كان يتم تأمينها من مصر على حساب الدولة العثمانية، لم يكن يخصص لرؤساء وشيوخ العشائر فقط، بل كان يتم توزيعه على المحتاجين وفق سندات تمنح لهم من قبل الدولة قبل وصول الصرة إلى الحرمين، ويشير سويله مز أوغلي إلى ان بعض المحتكرين يقومون أحياناً بالترويج وقبيل وصول الحبوب، بأنها لن تصل في هذه السنة. فيقومون بشراء السندات من الأهالي بثمن بخس. وعند ورود الحبوب يقومون ببيعها بسعر مضاعف محققين بذلك أرباحاً طائلة. وقد انتقد سويله مز أوغلي هذه العملية وطالب الدولة بوضع حدٍ لها أو صرف النظر عن هذه التكاليف التي تكلف الدولة أموالاً طائلة [١٦٣].

---

[١٦٠] الرحلة ١٦٢ . ١٦٣.

[١٦١] م. ن ١٦٤.

[١٦٢] أمراء مكة ٥٩

[١٦٣] الرحلة ٢٣٩.

رحلة إلى الحجاز

حجاز سياحتنامەسى

سويلەمز أوغلي

سليمان شفيق بن علي كمالي

بسم الله الرحمن الرحيم

رحلة إلى الحجاز

الفصل الأول: من استانبول إلى دمشق

في سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٩٠م) [١] انتدب والدي علي كمالي باشا لأمانة الصرة السلطانية. واغتنمت هذه الفرصة بغية أداء فريضة الحج والقيام برحلة سياحية كبيرة فقمت بمرافقته. وكما هو معروف، فإن الصرة السلطانية يتم اخراجها من القصر السلطاني بشكل رسمي في اليوم الخامس عشر من شهر شعبان وتنقل بالباخرة إلى مرفأ بشكطاش ثم إلى باشا قبوسي[٢] بـ(اسكدار) [٣]. وكانت الصرة السلطانية يتم إرسالها في السابق من اسكدار إلى مكة المكرمة عن طريق البر. وبطبيعة الحال كانت لوازم السفر تستكمل في اسكدار حيث يجتمع الحجاج. وعلى الرغم من أن الصرة السلطانية ترسل في الوقت الحاضر إلى بيروت ومنها إلى الشام الشريف عن طريق البحر إلا أنها تمرر باسكدار وذلك لمراعاة المراسم القديمة.

وفي يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان المبارك من سنة ١٣٠٧هـ المصادف للعشرين من نيسان من سنة ١٣٠٦ رومية ومع غروب الشمس انطلقنا من دار السعادة[٤]

---

(١) استخدم الرحالة في هذه الصفحة من رحلته التاريخ الهجري أو الهجري الى جانب الرومي / المالي. وبعد هذه الصفحة اكتفى بإيراد التاريخ الرومي فقط.

(٢) المقصود بـ **(باشا قبوسي)** هو الباب العالي (أنظر ش. سامي: قاموس تركي، استانبول ١٣١٥ ص ٣٤٥) أي رئاسة الوزراء العثمانية. وتعني (باب الباشا)

(٣) **اسكدار:** هو الجزء الآسيوي من مدينة استانبول.

(٤) **دار السعادة:** من الأسماء التي أطلقت على مدينة استانبول، وفضلاً عن هذا فقد سميت المدينة بأسماء مختلفة منها: اسلامبول، استانة، دار الخلافة، دار الملك، البلدة الطيبة، بايتخت سلطنت، سدة سلطنت، دركاه سلاطين (أنظر: Pakalin: 1.427.. ويعود أصل دار السعادة الى العهد الأيوبي حيث أطلقت (دار السعادة) على الدار التي اتخذها الملك الأمجد الأيوبي صاحب بعلبك. وفي العهد المملوكي أصبحت مقراً لنواب دمشق. ثم شاع استخدام هذا الإسم في مختلف المدن المملوكية إذ أصبح في كل من القاهرة وحمص وحلب دار سعادة. ثم انتقل هذا الإسم الى العثمانيين وسميت بعض قصور السلاطين بدار السعادة وذلك قبل أن تطلق على عاصمتهم. أنظر: محمد بن طولون الصالحي الدمشقي (ت ٨٥٣هـ): أعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهان، ط٢ دمشق ١٩٨٤ ص ٣٥ هامش ٢.

مستعينين بالله، إذ استخرجت الصرة السلطانية من باشا قبوسي في حفل مهيب وأنزلت في مرفأ الحرم وثم حمِّلت على الباخرة كريت التي خصصت لهذا الغرض. وهي باخرة جميلة تقطع سبعة أميال في الساعة. كان الجو ملائماً جداً، وكان القمر بدراً، ويبدو سطح البحر صافياً وساطعاً كالمرآة وكأنه لوحة ذهبية. وكان البحر هادئاً جداً. ولم يكن هناك أي ضوضاء سوى الصوت الذي تخرجه ماكنة الباخرة وخرير المياه الزائدة التي تصب من المراجل إلى البحر. وسرنا في جو جميل والسماء خالية من أية سحابة، أما النجوم الثابتة والسيارة فكانت تتلألأ تلألؤاً شديداً فتبهج هي الأخرى الناظرين. وكنا في شهر نيسان، ويكون الجو بطبيعة الحال شبه بارد، ولهذا فقد لففت نفسي بمعطفي الفرو، وجلست على كرسي متأملاً. وبعد أن بقيت سارحاً بهذه الحالة لعدة ساعات، انسحبت قبيل منتصف الليل إلى حجرتي.

وفي الصباح، عندما فتحت عيني ألقيت بنظراتي من شباك الحجرة إلى الخارج فعلمت بوصولنا إلى جزر مرمرة، فانطلقت على عجل. ولم تكن هذه السواحل خافية عليّ لأنني كنت قد عبرت من مضيق جناق قلعة أكثر من مرة. وبعد قليل دخلنا في المضيق الذي يبدأ من فنار "هورا بروني" الواقع على ساحل الروملي. ويبعد هذا المكان عن "سراي بروني" ٨٢ ميلاً بحرياً. وهو أعرض مكان في المضيق ويبعد عن "قره برون" الواقعة أمامه ١٨ ميلاً بحرياً. ويضيق المضيق تدريجياً عند السير من هنا نحو غليبولي، فيكون عرضه أمام المدينة ثلاثة أميال.

بعد تسعة أميال من هورا بروني مررنا بقرية "مورفتة" بساحل الروملي. وبعد أربعة أميال ونصف مررنا من قرية شاري كوي اليونانية. وهذه القرى مشهورة بالخمر والدخن والقمح والتبغ والصوف والقطن والأفيون. وقد ذاعت شهرة قرية شار في إنتاج الخمر. وبعد قليل وصلنا إلى غليبولي(٥).

بعض المعلومات عن قبرص

دخلت جزيرة قبرص تحت سيطرة المسلمين في القرن الأول من الهجرة النبوية، وبقيت في أيديهم ردحاً من الزمن، إلا أنها احتلت فيما بعد، من قبل البنادقة، ثم أصبحت مركزاً وملجأً

---

(٥) من أعمال ولاية جناق قلعة التركية، وجناق قلعة مدينة تقع على ساحل مضيق جناق قلعة إلى أقصى الشمال الغربي من تركية Rehber Ansiklopedisi, 5: 28 – 37.

للقراصنة الذين كانوا يجوبون في البحر المتوسط. وكان هؤلاء القراصنة يتعرضون في كل سنة إلى الحجاج المسلمين الذاهبين بحراً إلى الحج عن طريق الشام ومصر، ويلحقون الأذى بالمسلمين. ولهذا قام لالا قره مصطفى باشا الذي عين قائداً في عهد السلطان سليم الثاني في سنة ٩٧٧ هـ بمحاصرة الجزيرة بأكملها بالأسطول السلطاني وتمكن في غضون اشهر عديدة من فتحها وإلحاقها بالدولة العثمانية.

وبقيت قبرص تحت السيطرة العثمانية المباشرة وبلا منازع ٣٠٨ سنة أي حتى سنة ١٢٩٤ حيث عقدت اتفاقية بين الدولة العثمانية وإنكلترا وبموجبها ترك أمر إدارتها لإنكلترا مع بعض الشروط التي تضمن الحفاظ على الحقوق المشروعة للسلطنة العثمانية كما في السابق وتجعل مواردها الزائدة عائدة إلى الدولة العثماينة.

في الساعة السادسة مساءً وفي جو ضبابي ومقمر وصلنا إلى بيروت، ويشبه ليل بيروت من البحر ليل (قاضي كويي)[٦] إلى حد كبير. وقبيل اقتراب باخرتنا من الساحل وإيذاناً بوصول الصرة السلطانية تم تزيين الأرجاء المختلفة بالقناديل واشعلت الشموع وأطلقت الألعاب النارية. وقام فريق العكامة[٧] بقرع الطبول مسرورين مبتهجين وابتعدنا عن الساحل، ونحن بهذا الوضع، مسافة ٥٠٠ م، واستراح رامي المرساة، وبسبب الأمواج العاتية بين رودس وقبرص انسحبنا إلى الخليج وذلك لأن ميناء بيروت مكشوف، ففي الرياح الشديدة تضطر المراكب البحرية إلى الدخول إلى البحر. ولعدم تمكننا من الحصول على الشهادة الطبية من المحجر الصحي، لم يسمح لنا بالخروج إلى الخارج ولهذا سهرنا تلك الليلة حتى الصباح. وفي الصباح استقبل والي الولاية عزيز باشا والأمراء العسكريون وجمع من الجند السلطاني أفراد فريق الصرة السلطانية وهم يرتدون ملابسهم الرسمية.

ولاية بيروت

تقع بيروت على ساحل البحر المتوسط، وهي مركز تجاري، وتعتبر مرفأ بلاد الشام ومخرج جبل لبنان، ولهذا حظيت بأهمية تجارية، وتعد موقعاً مهماً يلفت الأنظار. وتأتي مدينة

---

[٦] **قاضي كويي:** حي من أحياء استانبول يقع في القسم الآسيوي منها.

[٧] سنتناول العكامة بشيء من التفصيل فيما بعد (أنظر هامش١، ص ١٠٤ من قسم الرحلة).

بيروت في مقدمة المدن العثمانية من حيث التمدن والإعمار. والأبنية الموجودة داخل المدينة مبنية من الحجر. والأحجار المستعملة فيها تتماسك مع المواد المستخدمة فيها وتأخذ وضع حجر واحد. أما أهالي المدينة فانهم يميلون بطبيعتهم نحو التجارة والصناعة والمعارف. ولا يمكن أن ينتقص من ذكائهم وقابلياتهم.

وتحظى مدينة بيروت بأهمية كبيرة أيضاً من حيث التاريخ القديم. وقد تعرضت في السابق ولا سيما في سنتي ١٣٨٤ م و١٥٥٤ م إلى زلازل شديدة دمرت المدينة بالكامل، ولهذا لا نجد فيها أبنية كبيرة ذات طابع أثري قديم. ولكنها لم تفقد أهميتها في أي وقت من الأوقات لكونها المرفأ الوحيد لجبل لبنان وبرية الشام. وعلى الرغم من أنها كانت إلى وقت قريب مركز قضاء في ايالة سورية، إلا أنها بدأت تلفت انتباه الحكومة السنية بعد دخولها تحت الإدارة المصرية وخروجها منها وبعد مسألة الجبل (١٨٦٠)، ولهذا السبب فانها استخدمت أحياناً المركز الثاني لولاية سورية الجليلة[٨] ثم اتخذت مركز ولاية بعد فصلها من ولاية سورية. وأصبحت ولاية مهمة تضم سناجق[٩] البلقاء وطرابلس واللاذقية. وكانت هذه الأرجاء أي الأراضي الضيقة والطولية الممتدة بين جبل لبنان وساحل البحر المتوسط في السابق مركزاً ومقراً للكنعانيين الذين كانوا يتمتعون بشهرة بحرية كالإنكليز في الوقت الراهن[١٠].

تم فتح بلاد الكنعانيين من قبل السلطان سليم (طاب ثراه) في سنة ٩٢٢، وهي اليوم تحت الحكم العثماني ومقسّمة إلى عدة ولايات[١١].

حدود ولاية بيروت:

---

[٨] أي بعد دمشق التي كانت مركز ولاية سورية منذ السيطرة العثمانية على بلاد الشام.

[٩] جمع سنجق أي اللواء، وهو الوحدة الإدارية التي تلي الولاية حسب النظام الإداري العثماني، ويتبع السنجق عادة عدد من الأقضية.

[١٠] فصّل الرحالة الكلام في الكنعانيين (ص ١٣ . ٢٤)، لم أر داعياً لترجمتها لكون المعلومات التي أورها معلومات عامة.

[١١] لم تكن بلاد كنعان (فلسطين) عند زيارة الرحالة إليها مقسمة الى عدة ولايات وإنما ألوية وأجزاء من ولايتي بيروت وسورية، عدا القدس التي اتخذت سنجقاً (لواءً) مرتبطاً بالباب العالي مباشرة.

تحد ولاية بيروت من الشمال حلب[١٢] ومن الشرق ولاية سورية ومتصرفية جبل لبنان ومن الجنوب متصرفية القدس ومن الغرب البحر المتوسط.

مناخها

يحيط بسواحل بيروت من الغرب البحر المتوسط ومن الشرق جبال مختلفة تغطيها الغابات ولهذا فان جو بيروت معتدل جداً، إلا أن الحرارة تزداد شيئاً فشيئاً عند الخروج من الساحل واجتياز جبال لبنان نحو الداخل. وتسقط الأمطار في فصل الشتاء. وينزل الصقيع في الليل، ونادراً ما تسقط الأمطار في فصل الصيف وتهب من الصحراء رياح شرقية تكون عادة جافة وحارة، ولو استمرت بالهبوب فإن النباتات تحترق.

أهاليها

إن سكان الولاية يذكِّرون العهود القديمة من حيث الملابس والعادات واللغة وهم بشكل عام مجدون ويميلون بطبعهم الخاص إلى العلم والثقافة ومهنة التجارة. ونجد في وضعهم وحركتهم وقاراً فطرياً عالياً. والساكنون في الجبال يمتهنون الرعي، والساكنون في السهول منهم مزارعون ماهرون. أما المقيمون في المدن فيمارسون التجارة وهم أصحاب معرفة ومن طبائعهم التسابق في كل شيء، وهم يستوعبون كل شيء بسهولة ويقومون به ولمقدرتهم الطبيعية فانهم يشتغلون بالأمور التجارية ويقومون بالمعاملات التجارية في أشهر الموانئ بالعالم، ولهذا أصبحوا حقاً خير خلف يليق بالكنعانيين. ولدخولهم في العالم كتجار، فإنه لا يشغل بالهم أي شيء خلاف مصالحهم الشخصية حتى أن لقاءهم وحديثهم من أجل مصلحة ما. والقسم الأكبر من السكان مسلمون وهم من العرب والترك والفرس والدروز والنصيريين والمغاربة والاسماعيلية والشيعة. أما النصارى {وغير المسلمين} فهم من الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك والجزويت والأرمن والأرمن الكاثوليك والقبط واللاتين، والبروتستانت والسريان واليهود.

الجبال:

[١٢] في الوقت الذي زار سويله مز أوغلي بلاد الشام، كانت حلب ولاية مستقلة عن ولاية سورية.

تضم ولاية بيروت عدداً كبيراً من السلاسل الجبلية وهي موازية بعضها ببعض وتمتد من الشمال إلى الجنوب منها الجبل المعروف بجبل الأقرع الذي يقع إلى الجنوب من نهر العاصي حيث تقع أعلى نقطة منها. ويمتد هذا الجبل نحو الجنوب حتى قلعة الجيش ووادي دير الجمرة. وتعد جبال النصيرية من هذه السلاسل أيضاً. وفي هذا المكان يبدأ جبل لبنان ويمتد حتى أرجاء قلعة الشقيف ويبلغ ارتفاع الجبل في الموضع المسمى "فحم الميزاب" الواقع في طرابلس الشام ١١٠٠ قدم. ومن هذا الموضع تبدأ سلسلة جبال عامل وتمتد حتى صفد وناسة، وتميل بعدها من جهة الشرق نحو أرجاء نابلس والجهة الجنوبية من الناصرة وتشكل هضبة مرج ابن عامر حداً فاصلاً بين الجبال المذكورة وجبل قارمل. أما جبل الطور فيقع في نهاية الهضبة المذكورة.

الأنهار:

تجري فيها الأنهار مثل النهر الكبير، نهر القش، وادي قنديل، بانياس، مرقبة، حصين، أبو علي، نهر عقار، نهر الارقا، النهر البارد، نهر إبراهيم، نهر الكلب، نهر بيروت، نهر الادامو[١٣]، نهر الغزالي، نهر القذية، وادي الكرك، الشريعة، وادي المضامين وغيرها. وأكبر هذه الأنهار وأشهرها هي، الشريعة[١٤] والقذية.

البحيرات

وتأتي على رأسها طبرية وكذلك الحولة[١٥]، المدارج والرزق.

المياه المعدنية

في الجهة الجنوبية من قضاء طبرية توجد مياه معدنية كبريتية وهي تستخدم لمعالجة الأمراض الجلدية وضعف الأعصاب والروماتيزم، ولهذا يؤمها مرضى كثيرون من مختلف أرجاء الولاية.

---

(١٣) هكذا ورد في الأصل ولعله (نهر الدامور).

(١٤) المقصود بنهر الشريعة نهر الأردن، ولا زال الأتراك يسمونه بهذا الإسم.

(١٥) ورد في الأصل بشكل الهولة.

الأشجار

توجد أشجار مثمرة كثيرة داخل الولاية كالنخيل والتوت والتين والخروب والبرتقال والكمثرى والتفاح والليمون والمندرين والسفرجل والمشمش والرمان واللوز والموز والتين الفرنجي وشجر الصبار والفستق والكروم بمختلف أنواعها، كما تنمو فيها أشجار غير مثمرة مثل السردى والجام والبلوط والصنوبر.

الحاصلات الزراعية:

الحنطة، والشعير، والذرة، وقصب السكر، والفول، والبطيخ الأحمر، والخضروات المختلفة، والسمسم، والتبغ، والقطن، والدخن، والحمص، والعدس وغيرها.

الحيوانات الأليفة:

الخروف القرماني، والماعز، والبقر، والجمل، والفرس، والبغل، والحمار والغزال.

الحيوانات الوحشية والطيور والحيوانات الزاحفة والحشرات:

الذئب، والدب، والضبع، ونوع من النمور، والقنفذ، والباز، والنسر، والصقر، والحمام، واللقلق، والكركي، ونوع من البلابل، والوزغة، والحرباء، ونوع من الثعابين، والعقرب، والفراشة، ودودة القز، والنحل، والبعوض، والجراد، والعنكبوت.

المواد التجارية:

ويأتي على رأس صادراتها: الحرير، والتبغ، والزيتون، وزيت الزيتون، واللوز، والتمر، والأغنام، والخيل، والبرتقال، والليمون، والتفاح، والشراب، والزبيب (العنب المجفف)، والمنسوجات الحريرية المختلفة، والأقمشة الراقية، والدخن، والحمص، والعدس، وأعمال النجارة.

وبعد أن قضينا خمسة أيام في بيروت استأجرنا عربات من شركة دليجانس الفرنسية العاملة بين بيروت ودمشق، واجتزنا جبل لبنان الذي لا يمكن نسيان مناظره وجماله ووصلنا إلى دمشق في ثماني ساعات.

جبل لبنـان

تعني كلمة لبنان أبيض وهي عبرانية، وسميت بهذا الاسم لكون هذا الجبل كلسياً وتجمع الثلوج على مرتفعاته العليا خلال فصل الشتاء.

يبدأ جبل لبنان بالقرب من الجناح الأيسر لنهر العاصي قرب إنطاكية والجنوب الغربي من ولاية حلب، وهو يفصل أراضي دمشق عن طرابلس الشام ويمر من شمال عكا وينتهي قرب صيدا، وطوله ٤٠٠ كم وينقسم إلى قسمين: القسم الغربي، والجبل الشاهق، وتطلق لبنان بالأصل على الجبل الشاهق أو الغربي. والأراضي المستوية الواقعة بين هذين الجبلين كانت تسمى في السابق جفور سورية أو سليسيري. وكان جبل لبنان مغطى في قديم الزمان بأعداد كبيرة من أشجار السرو، إلا أن عدداً قليلاً منها قد بقي في مواضعها الكائنة في بعلبك وطرابلس الشام وعين الزحل[(١٦)] واهدن[(١٧)] وبشرّي[(١٨)].

وجبل لبنان يسكنه الدروز في الجنوب، والمارونيون في الشمال. وللمارونيين عدد كبير من الأديرة في جبل لبنان اشهرها "كسروان". وتضم الجهة الجنوبية من كسروان أكثر أراضي الجبل إنباتاً وخصوبة وإعماراً وثراءً وأكثرها كثافة سكانية.

أشهر مواقع كسروان:

وهي أنطور[(١٩)] الواقعة إلى الشمال من بيروت. وقد أقام الجزويت فيها دار تعليم كبيرة في القرن الحادي عشر. وانتقلت هذه المدرسة في وضعها الحالي إلى اللاذاريست، وهم من الرهبان

---

(١٦) ولعله زحلة.

(١٧) ورد في الأصل بشكل أدن.

(١٨) ورد في الأصل بشكل بشير.

(١٩) هكذا ورد في الأصل وربما هو تصحيف من اسم مدينة "عينتورة" الواقعة الى شرق مدينة بيروت، وقد ورد الاسم بشكل عين التنور في معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية لأنيس فريحة، بيروت ١٩٩٦ ص ١٢١.

المذكورين. أما الموقع المشهور الثاني للكسروان فهو بلدة غزير (وفيها دار الفنون[٢٠]) وهي للجزويت أيضاً وفي غاية الكمال.

المواقع المشهورة في جبال الدروز:

حساوت[٢١]، بعبدة[٢٢]، كفر شيما، عين العنب[٢٣]، شحملان[٢٤]، عبّي، دير القمر، بيت الدين، مقطرة[٢٥]، عين الزحل، بحمدون، عليمي، داريا، وهي تقع في الجنوب الشرقي من بيروت، أما في الشرق فيقع: بيت مري، برمانة[٢٦]، ويعتبر جبل ثانين وجبل الكنيسة وجبل الحمل وجبل الفحم أعلى القمم الجبلية.

ظل جبل لبنان تابعاً إلى ولاية عكا حتى سنة ١٨٦٠ حيث وقعت حادثة الدروز والمارونيين المؤسفة[٢٧]، وعقب هذا وبعد تدخل الدول العظمى منح الجبل امتيازاً خاصاً، إذ تم إعفاؤه من التكاليف الميرية[٢٨]، وعين فيه متصرف مسيحي. والمارونيون ينحازون إلى الفرنسيين والدروز إلى الإنكليز. واعتنق المارونيون الكاثوليكية بزواج رهبانهم، واصبحوا تابعين للبابا سنة ١٨٦٠ وتم منحهم بعض الامتيازات من قبل الكنيسة ويتم تغيير متصرف لبنان كل سنة. وقسم

---

[٢٠] دار الفنون: مصطلح عثماني استخدم للدلالة على الجامعة أنظر:
Hayat B□y□k T□rk S□zl□□□ □ Istanbul □ tarihsiz , 251

[٢١] هكذا ورد في الأصل ولم أتمكن من التثبت منه.

[٢٢] في الأصل (عبدا). ورد الاسم في معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية بشكل بعبدا، أنظر ص ٢٦.

[٢٣] هكذا ورد في الأصل ولعله (عيناب).

[٢٤] هكذا ورد في الأصل ولعله (شحيم). أنظر معجم أسماء المدن.. ص ٩٦.

[٢٥] هكذا ورد في الأصل ولعله (مختلرة).

[٢٦] في الأصل (برومانة)، وورد بشكل برمّانا في معجم أسماء المدن ... ص ١٩.

[٢٧] عن حادثة الدروز والمارونيين أنظر:
Tayyip G□kbilgin: 1840 den 1861'e Kadar Cebel-i Lubnan Meselesi ve Durziler, Belleten X. sayi 40 Ekim 1949. 641-703

[٢٨] أُستخدم مصطلح (ميري) من قبل العثمانيين بدلاً من أموال الدولة، أما التكاليف الميرية فتستخدم بدلاً من الضرائب التي يتم استيفاؤها باسم الدولة العثمانية. فالضرائب والرسوم التي تفرض على الأراضي والمنتجات الحيوانية والأبنية وغيرها كانت تعد من التكاليف الميرية. أنظر: 542 :2 Pakalin.3:437

جبل لبنان إلى أقضية ونواح ويدار من قبل موظفين محليين وترابط فيه قوات درك (جندرمة) من المشاة والخيالة المحليين. ويدفع الأهالي للحكومة مجيدية[٢٩] واحدة عن كل شخص مع شيء قليل جداً من محاصيلهم وهذا المبلغ الذي يجمع من الأهالي، يتم صرفه على الأمور النافعة (الإعمار) داخل اللواء.

الأقوام الموجودة في لبنان:

عدد السكان	اسم القوم
٢٦٠ ,٠٠٠	مارون
٥٨ ,٠٠٠	دروز
٤٧ ,٠٠٠	ملكي وروم
١٦ ,٠٠٠	شيعة
٠٦ ,٠٠٥	سنة
٠١ ,٠٠٠	يهود

---

(٢٩) **مجيدية:** عملة من العملات المستخدمة في الدولة العثمانية وكانت فضية تبلغ قيمتها ٢٠ قرشاً (Pakalin. 2: 428)

الفصل الثاني: من دمشق إلى المدينة المنورة

تقع مدينة الشام الشريف المعظمة (دمشق) على دائرة العرض الشمالية ٣٣ درجة وهي تعد من أقدم مدن العالم. ويستدل من المعلومات التاريخية أن الكنعانيين سكنوا بلاد الشام. والكنعانيون ينتسبون إلى حام بن نوح[٣٠]. ودخلت دمشق فيما بعد تحت سيطرة بني إسرائيل والأشوريين والبابليين وملوك الفرس والفراعنة المصريين على التوالي[٣١]. ثم دخلت تحت الحكم المقدوني وأخيراً أصبحت تابعة إلى الامبراطورية الرومانية. وفي سنة١٤ للهجرة وفي عهد عمر الفاروق الحقت ببلاد المسلمين على يد البطل العربي المشهور خالد بن الوليد، ثم اتخذها خلفاء بني أمية مركزاً للخلافة، ثم دخلت تحت حكم العباسيين ثم الذين كانوا يحكمون في مصر[٣٢]. وأخيراً سيطر عليها السلطان سليم الأول وألحقها مع حلب ومصر بالدولة العثمانية.

وتضم المدينة نفسها ١٥ . ٢٠ ألف منزل وحوالي تسعين ألف نسمة، وفيها الجامع الأموي والقلعة. وأقيمت في داخل المدينة وتحت الأرض قنوات مائية كبيرة ومحكمة البناء، وهي في الحقيقة من الأمور العظيمة الملفتة للنظر ودليل على القدم الحضاري للمدينة. وتطغى على جو المدينة الرطوبة ونوعاً من الثقل وذلك لكونها منخفضة ولوفرة المياه فيها. أما فنونها المعمارية فان بيوتها مبنية بالآجر وكأن غرفها خالية من الشبابيك المطلة على الزقاق. وأزقتها ضيقة ومتعرجة وذات أقواس كثيرة، وهي متشابهة بعضها ببعض ولهذا فان الاستدلال على الطريق يحتاج إلى وقت كبير. وفي داخل البيوت صالونات جميلة جداً تسمى قاعة وهي مستطيلة الشكل وفيها أحواض، وبنيت جدرانها من المرمر المزين بالصدف والزخارف. وأغطية الشبابيك مصنوعة من الأخشاب المحفورة وهي على درجة كبيرة من الإبداع الفني. ولم يبق من هذه البيوت على حالها إلا

---

[٣٠] هكذا ورد في الأصل، والمعروف أن المؤرخين القدماء ينسبون الكنعانيين الى سام بن نوح.

[٣١] ذكر كاتب مادة دمشق في موسوعة لاروس الفرنسية أن مدينة دمشق تعد من أقدم مدن الشرق الأوسط وورد اسمها في سفر التكوين. غزاها المالك داود وألحقها (بمملكة إسرائيل) ردحاً من الزمن، ثم قامت فيها حكومة محلية وذلك قبل دخولها تحت سيطرة كل من الآشوريين (٧٣٣ق.م) وخلفاء الإسكندر والرومانيين على التوالي. وأُلحقت بالمدينة أضرار جسيمة في الحروب الواقعة بين البيزنطيين والبرثيين الفرس. وتم فتحها من قبل المسلمين سنة ٦٣٥/٦٣٦م. Meydan Larousse 18: 458

[٣٢] المقصود بهم الخلفاء الفاطميون، ثم الأيوبيين فالمماليك.

عدد قليل، كما أن معمارييها يتناقصون يوماً بعد يوم. وخلاصة القول أن الفنون المعمارية في الشام، تتراجع قياساً إلى الآثار القديمة. وهذا الأمر بدأ منذ الفتح الإسلامي. ويعود السبب في ذلك إلى المباشرة باستخدام الطابوق الذي هو من الأصول العربية في البناء وترك الأصول الرومانية. ومن الأسواق الدمشقية سوق الترك[٣٣] وهو واسع ومنتظم أما البقية الباقية منها فهي غير منسقة ومبنية من الخشب وتشبه الأكواخ. ولكن تبذل، ومنذ سنوات طويلة، جهود كبيرة لتنظيم المدينة، ونتمنى أن يتحقق ذلك في القريب العاجل.

معلومات متعلقة بالمعارف في ولاية سورية

توجد في ولاية سورية ٣٩٤ مدرسة للمسلمين تضم ١٤٦١٩ تلميذاً وإحدى هذه المدارس عسكرية، وثلاث منها إعدادية تضم ١٧٣ تلميذاً و١٨ رشدية[٣٤] عسكرية وملكية (مدنية) فيها ١٠٩٤ تلميذاً و٣٦٢ مدرسة ابتدائية للذكور فيها٧٢٦, ١٢ تلميذاً و١١ مدرسة خاصة بالإناث فيها ٦٢٦ تلميذة.

وفيها ١٩٥ مدرسة نصرانية بين صغيرة وكبيرة فيها ٩٠٢٥ تلميذاً، ٣٢ منها مدارس عالية فيها ٢٠٦٥ تلميذاً و١٣ للإناث فيها ٦٥٥, ١ تلميذة، و١٢٩ مدرسة ابتدائية للذكور فيها ٤٢٤٥[٣٥] تلميذاً و٢١ مدرسة للإناث تضم ١١٦٠ تلميذة، فيكون عدد الذكور في المدارس النصرانية ٢١٠, ٦ وعدد الإناث فيها ٨١٥, ٢. وبهذا يقابل كل تلميذين نصرانيين تلميذة واحدة، في حين يقابل كل ٢٣ تلميذاً مسلماً تلميذة واحدة.

مكتبة دمشق

تقع هذه المكتبة داخل ضريح الملك الظاهر بوسط المدينة، ويعتبر هذا الضريح المبني من الحجر من الآثار القديمة، وتمت تغطية قبته وجدرانه بالفسيفساء على الطراز العربي. تضم

---

[٣٣] يعرف هذا السوق اليوم بسوق الاروام.

[٣٤] المدرسة الرشدية تقابل المدرسة المتوسطة بين الإبتدائية والثانوية وكانت على نوعين: مدنية، عسكرية (أنظر: بيات، فاضل: التعليم في العراق في العهد العثماني/ دراسة تاريخية في ضوء السالنامات العثمانية، المجلة التاريخية المغربية، تونس عدد ٥٧ . ٥٨ سنة ١٧، ١٩٩٠، ص ١٢٦.

[٣٥] ربما وقع خطأ في هذا الرقم وينبغي أن يكون ٤١٤٥، إذ أن مجموع عدد الذكور هو (٦٣١٠) واذا طرحنا منه عدد الذكور في المدارس العالية وهو ٢٠٦٥ يكون الباقي ٤١٤٥ وليس كما ورد في الأصل.

المكتبة ٢٧ ,٠٩٠ كتاباً معظمها كتب مخطوطة مختلفة وذات قيمة كبيرة. كما تتضمن عدة مئات من الكتب والرسائل الناقصة ومشتتة الأوراق. وتفتح المكتبة أبوابها للمطالعين يومياً باستثناء أيام الثلاثاء. وأمين المكتبة المعين في هذه المكتبة ذو إطلاع على العلوم الشرقية والغربية ويستحق أن يطلق عليه اسم علاّمة وهو شاب مجتهد، وتم ترتيب الكتب في المكتبة بشكل عمودي على الرفوف الموضوعة على الصندوقين المصنوعين من المرمر والعائدين إلى ضريحي الملك الظاهر وابنه[٣٦]. وكان الملك الظاهر من الحكام الذين يحبون المعارف، ولهذا فان اتخاذ المكتبة على صندوق ضريحه من المصادفات الغريبة. وقد حفر على الصندوق عبارة "هذا ضريح الملك الظاهر ٢٧ محرم ٦٧٦" وعلى الآخر "هذا ضريح الملك السعيد".

الحيوانات الأليفة في ولاية سورية:

يوجد في ولاية سورية نوعان من الخيول وهما الخيول العربية العادية وأهمها: الخيل الفيحور، والصقلاوي، ومقتفى خورجي، وعبيان شراق، وعبيان ابو جريس، وأبو عرقوب، وعبيت الحضر، وصقلاوي جدران[٣٧] وصقلاوي بوزي وخلقي اسلاميولات، وخلاوي وحمداني[٣٨] وهناك أنواع أخرى منها، إلا أن ما ذكرناه يعتبر أشهرها. وهذه الأنواع موجودة عند البدو المتنقلين داخل الولاية، وهو لطيف ورشيق ومحب لصاحبه، مطيع، منقاد إليه ويخلو من الصفات السيئة، إلا أنه . ومما يؤسف له . لا تبذل الجهود لتكثيره فضلاً عن أنه يتم تصدير ما هو موجود منه إلى الخارج رغم الحظر المفروض على ذلك، لكل ذلك يخشى من انقراض هذا الجيل الأصيل في وقت قريب.

---

[٣٦] الملك الظاهر هو ركن الدين بيبرس العلائي البندقداري الصالحي (ت ٦٧٦هـ . ١٢٧٧م). من مماليك الملك الصالح الأيوبي. تولى سلطنة مصر والشام سنة ٦٥٨هـ ١٢٥٩م. له وقائع مشهورة مع المغول والصليبيين وفتح بلاد النوبة ودنقلا، وانتقلت في أيامه الخلافة العباسية إلى الديار المصرية سنة ٦٥٩هـ. توفي بدمشق، وأقيمت حول مرقده المكتبة الظاهرية (الموسوعة العربية العالمية، الرياض ١٩٩٦، مجلد ١٥ ص ٦٧٩ . ٦٨٠). أما ابنه فهو بركة خان الملك السعيد (ت ١٢٨٠م) خلف والده في الحكم. وفي عهده وقعت اضطرابات في دمشق، فخرج إليها لإعادة الأمن، إلا أن الثائرين وصلوا إلى القاهرة وحاصروه بالقلعة فصالحهم على خلع نفسه ورحل إلى الكرك ومات بها. وحمل إلى دمشق ودفن عند أبيه (الموسوعة العربية الميسرة، دار الجيل ١٩٩٥ جـ ١ ص ٣٥٠)

[٣٧] ورد الاسم في الأصل بشكل سقلاوي.

[٣٨] ثبتنا هذه الأسماء كما وردت في الأصل.

وارتفاع هذا الحصان ٤, ١ . ١٥٨, ١ م وهو في أطوال مختلفة والفرس الأنثى رشيقة قياساً إلى الذكر.. ورأسها متناسق ومتناسب وشعر رقبتها طويل وأطرافها الأمامية رقيقة وعيناها وفتحتا أنفها واسعتان وفكها السفلي واسع. وتبدأ عظام أنفها من الأسفل فتشكل تقعراً إلى الأعلى وهذا دليل آخر على جودة نسلها وشعرها قصير ورقيق، وشعر رقبتها طويل، وغير بدينة وخصرها طويل. ومؤخرتها صغيرة، كما أن بطنها . إذا استثنينا فترة حملها . صغيرة وصدرها واسع وأرجلها رقيقة، ومفاصلها غليظة وحوافرها قوية وذات كعب وهذا النوع من الخيول نادر. وتتم تربيته في البيوت ومن الممكن استخدامه ثلاثين سنة. كما تتم تربية الحصن العادية في داخل الولاية، إلا أن عددها غير كاف ولهذا يتم جلبها من أطراف أرضروم ووان.

وارتفاع الخيول العادية التي تتم تربيتها داخل الولاية حوالي ٤, ١ . ٥٦, ١ م وجلودها سميكة وشعرها خشن، وهي طويلة وبدينة ورقابها غليظة وقصيرة وذيلها خشن وأكتافها غليظة وأردافها واسعة وبطنها كبيرة وأرجلها قوية. وهذا الجنس من الحيوانات سريع المشي ويستخدم معظمها في النقل.

البغـال

تتم تربية البغال في ولاية سورية بشكل عام. وارتفاعها ٢, ١م وهي قوية البنية وتتحمل مشقات السفر وتشرب القليل من الماء وتمشي كثيراً ولهذا فإنها تستخدم في أغلب الأحيان في التنقل في الصحراء وتكاد تكون تتبارى مع الجمال. ولهذا فان الجيش السلطاني الخامس يضم أفواجاً من البغّالين وهي تحقق الغاية في ملاحقة البدو. وهي تصلح أيضاً لنقل مدافع الجبل.

الحمير

وهي ثلاثة أنواع: الأول يكون ضخماً ويوجد في دمشق نفسها ويسمى (بلدي) والثاني (الحمار الأبيض) والثالث (الحمار العادي).

والحمار البلدي ارتفاعه حوالي ٣, ١م ورأسه كبير وأرجله غليظة ومؤخرته سوداء، وهو بطيء الحركة إلا أنه قوي البنية ولهذا فانه يصلح لنقل الحمل الثقيل ويتم استخدامه في هذا المجال. ويطلق على الحمار الأبيض في أطراف حلب اسم (بني صليب). وتتم تربيته من قبل إحدى العشائر. وهذا النوع من الحمير طويل وسريع المشي ولهذا يستخدم للركوب.

أما النوع الثالث من الحمير فهو النوع العادي، ونادراً ما يكون مرتفعاً وهو صغير الحجم في الغالب وسريع الحركة ويستخدم لنقل الحمل.

البقـر

هناك نوعان من البقر في الولاية: البلدي والعادي. والبلدي لونه أصفر، ويكون ضخم الجثة وتعطي البقرة من هذا النوع من قية[٣٩] إلى ١٠ قيات من الحليب، ويكاد يكون هذا الجنس مقتصراً على الشام وملحقاته. أما النوع العادي فيشبه ما يوجد في الأماكن الأخرى. ويكون أبقار عكا والبلقاء إما مرقطة سوداء اللون واسعة أو أسود على أبيض. ويندر وجود الجواميس في الولاية.

الأغنـام

على الرغم من تربية الأغنام في داخل الولاية إلا أنه يتم توريدها أيضاً من أرجاء بغداد والموصل وارضروم. والأغنام التي تتم تربيتها في الولاية هي من جنس (قرميان) وتكون صغيرة الحجم، قليلة الصوف. أما المورَّدة من الخارج فتكون ضخمة قياساً لهذا وكثيرة الصوف. والأغنام التي تربى في البيوت يصل وزنها إلى ٣٥ قية.

وفضلاً عن هذا فهناك الغنم النجدي الذي يجلب من أواسط الجزيرة العربية وأرجله مغطاة بالصوف ومحددة وذيله رقيق ورقبته طويلة ورأسه يشبه رأس الكبش المرقط وصوفه قصير، ولونه أسود وأبيض وهو يشبه غنم فزان إلى حد كبير.

الماعـز

في داخل الولاية نوعان من الماعز أحدهما بلدي والآخر عادي. ويكون البلدي طويلاً وعديم القرون في الغالب، ويكون شعره طويلاً ولونه أبيض أو أصفر وأسود، أو هذه الألوان مجتمعة. ويعطي الحليب من قيتين إلى أربع قيات.

---

(٣٩) **قيـة:** مصحفة من (أوقة) التي هي بالأصل مأخوذة من (أقة) العربية وهي مكيال للوزن عبارة عن أربعمائة درهم. أنظر: ش. سامي، ٢١٣، ١١٣٣.

الجمـل

وهو على نوعين أيضاً أحدهما هجين والآخر عادي. ويكون الهجين ضخماً إلا أنه رقيق ورشيق وسريع المشي. أما الآخر فهو ضخم إلى حدٍ ما ويستخدم للحمل فقط. وجمال البدو لا تكون ضخمة مثل الجمال التي تربى في دمشق وأما أطرافها فهي رقيقة وصغيرة ولهذا فليس بمقدورها تحمل الحمل.

الغابـات

كانت الجبال الكائنة في ولاية سورية مغطاة في الأزمنة الغابرة بأشجار لا نهاية لها. وتكاد تكون هذه الأشجار قد بلغت أواخرها. وعلى الرغم من أهمية الغابات لجودة الجو واستفادة الناس منها لتوفير الخشب والوقود، إلا أنه وللأسف لا تتم زراعة الغابات من جديد بسبب الجهل والإهمال والأنكى من هذا لا تتم المحافظة عليها. وفي داخل ولاية سورية توجد غابة واسعة على جبال عجلون والكرك بلواء حوران على بعد ١٧٠ كم من دمشق. وطولها حوالي ٥٥ كم وعرضها ٣٥ كم وتضم أشجار البلوط والصنوبر والبطم. وتحد هذه الغابة من الجنوب الزرقاء ومن الغرب نهر الغور ومن الشرق جرش. وقد تقلصت هذه الغابة كثيراً قياساً إلى ثروتها القديمة، إلا أنها تساهم في سد الحاجات الراهنة، وتتم الاستفادة منها لسد حاجات القبائل الموجودة حولها فقط وذلك بسبب عدم وجود الطرق لنقلها إلى ساحل البحر الذي يبعد اقرب مسافة منه ٢٠ . ٢٥ ساعة.

وفضلاً عن هذه الغابة توجد في لواءي طرابلس الشام واللاذقية بشمال الولاية غابات قدموس[٤٠] وعكار، إلا أن أهمها هي غابات نواحي باير بوجاق وتتم الاستفادة من هذه الغابة بشكل كبير وذلك لوقوعها على بعد ٥ . ٦ ساعات من الأرصفة المسماة طريخة ووادي القنديل والبسيط الواقعة على ساحل البحر بشمال اللاذقية وكذلك لإمكانية نقل أشجارها لأربع أو خمس مرات في السنة بواسطة النهر الكبير الذي ينبع من جبل الأكراد ويصب إلى البحر في الموضع المعروف بمصيف جاي آغزي الذي يبعد نصف ساعة إلى الجهة الجنوبية من البلدة. وكانت هذه الغابات تبدأ قديماً من ولاية حلب وتمتد حتى أطراف اللاذقية وتشغل مساحة تبلغ حوالي ٣٥ الف

[٤٠] ورد في الاصل بشكل قد موسى.

جريب[٤١] أي أربعمائة الف دونم و٦٤٠ مليون ذراع عثماني مربع وعلى الرغم من هذا فانه لم يؤخذ بنظر الاعتبار مستقبل هذه الغابات في فترة الحكم المصري. حيث بديء بشق الطرق فيها إلى الساحل وتم نقل الكثير من أخشابها إلى مصر. كما تم قطع الكثير من الأشجار الضخمة المتبقية من قبل معمل الأخشاب الذي أقيم في وادي (مساورة) الواقع في منبع النهر الكبير وتم ارسالها إلى مصر. كما تمت إزالة قشور الشجيرات النضرة وغير المجدية للعمل وأرسلت إلى شبرة، الأمر الذي أدى إلى تقليص مساحة الغابة الممتدة من جبل الأكراد إلى اللاذقية على امتداد ثلاث ساعات من ٤٠٠ ألف دونم إلى مابين مائة وخمسين دونماً[٤٢]. ونظراً لتشتت أشجارها فإنها لا تعتبر غابة. ولكن التركيب الكيمياوي لأراضي نواحي باير بوجاق التي تقع فيها هذه الغابات يساعد على نشوء ونمو أشجار الصنوبر الحلبي والبلوط والآس بسرعة فمن الممكن أن تشهد هذه الغابة سابق عهدها لو منع قطع الأشجار خمس إلى عشر سنوات. ونظراً للتضاريس الأرضية لولاية سورية فانه تتم زراعة أشجار الفستق والصنوبر وزَنْزَلَخَتْ[٤٣] والجوز والخروب وعلى وجه الخصوص الشجرة المسماة شجرة الحمى وذلك في الهضاب والسواحل، وأشجار البلوط والصنوبر الحلبي والآس في الجبال ومنحدراتها.

وعلى الرغم من أن السلسلة الجبلية الممتدة على مسافة ٨٠ . ١٠٠ كم من أعالي النهر الكبير حتى النصيرة عارية وعبارة عن مجموعة من التلال والوديان، فانه توجد في الموضع المسمى بشارة إلى جوار قرية قدموس غابة صغيرة غير صالحة للحصول على أخشاب منها، بل

---

[٤١] **الجريب:** مقياس من المقاييس الأرضية طوله وعرضه ٦٠ متر، أنظر ش. سامي ٤٧٤ وانظر كذلك Pakalin: 1.280 - 282

[٤٢] الدونم: مقياس لقياس مساحة الارض. وكان يتم قياس الدونم في السابق بخطوات الإنسان ٤٠×٤٠=١٦٠٠ خطوة مربعة، ثم استخدم محل الخطوة ذراع المعماريين ٧٨, ٧٥ سم، وأطلق على هذا الدونم بالدونم العتيق وكانت مساحته ٦٧, ٩١٨م٢ ثم ٣٠٢, ٩١٩ م٢. وفي سنة ١٨٨١م اتخذ المتر أساساً لقياس الدونم، فأطلق عليه اسم الدونم الجديد وكانت أبعاده ٥٠×٥٠=٢٥٠٠م٢. Meydan Larousse 5:500

[٤٣] ورد في الأصل بشكل (زندلخت). وورد هذا الاسم (زنزلخت) مرتين ولنوعين من الشجر في كتاب محمد بن عيسى بن كنان الصالحي الدمشقي (المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية) تحقيق د. حكمت إسماعيل دمشق ١٩٩٣ ق ٢ ص ٣٣٥ – ٣٣٦،:. أ. "شجر كبير وزهره أصفر عطرٌ جداً وورقه كورق الزيتون، وله ثمر كالبلح الصغار، قليل الحلاوة" ب. "شجرة تنبت في دمشق، وتتخذ لحسن زهرها، وخشبها رخو خوار، والزهر ارجواني، وربما كان أبيض، والأبيض منه أطيب من الكادي، والأرجواني لا يكون له رائحة، وغرسه عند غروس الأشجار، وثمره كالحمص، داخله حبّة".

يستفاد منها من قبل أهالي القرى المجاورة لأغراض التدفئة، كما يصنع فيها الفحم الذي ينقل إلى بيروت وأماكن أخرى بواسطة مرفأ بانياس الواقع على بعد خمس إلى ست ساعات.

وتوجد غابة أخرى في لواء طرابلس تقع على سلاسل جبل عكار الذي يرتفع عن مستوى سطح البحر ١٣٠٠ . ٢٥٠٠ م. وعرض هذه الغابة ساعة وطولها ٥ . ٦ ساعات وتقدر مساحتها ٣٥ ألف دونم ٥٦ مليون ذراع عثماني مربع. وتغطي سفوح هذه الجبال الممتدة لغاية ١٥٠٠ م الأشجار المحلية القصيرة والبلوط. والى الأعلى منها تبدأ غابة الزان وأشجارها طويلة ذات سيقان غليظة. والمواضع التي تقع فيها أشجار هذه الغابة من وديان وتلال وعرة يصعب الصعود اليها ولهذا فانه بقيت بعيدة عن التعرض إليها. غير أن المزارعين يقومون بقطع بعض الأشجار منها وذلك لاستخدامها في آلات الحصاد وينقلونها إلى طرابلس.

وتكثر هنا أشجار الجوز المسمى ميس، والزيتون والنخل والحجيز[٤٤] المشابه بالتين والعنب والآس والعناب والخروع وقصب السكر وشجرة الرمان المسماة جلنار والسوس وأنواع مختلفة من الورد كالقرنفل والنرجس والنيلوفر والتين والتفاح والمشمش والخوخ والكمثرى والدراق وهو نوع من الخوخ والليمون والأترنج والبرتقال. ويزرع فيها من الحبوب: الحنطة والشعير والرز والذرة والعدس والماش والحمص والسمسم والفول، كما يزرع فيها كل أنواع الخضر.

المعـادن

في نواحي باير بوجاق الواقعة ضمن سنجق (لواء) اللاذقية يوجد الرصاص والحديد والبوراسيد والكروم. ويوجد منجم فحم في قرية قرنائل ضمن ملحقات بيروت بجبل لبنان.

الصناعة والتجارة

يقوم أهالي القرى في ولاية سورية برعي الأغنام والزراعة. أما البدو فانهم يقومون بتربية الإبل. ويصنع أهالي المدن أنواع الأقمشة الحريرية والنسيجية المختلفة وأنواع الأواني الصدفية والسادة. والصياغة (صياغة الذهب والفضة) والسراجة متقدمتان جداً فيها. أما صادرات الولاية الرئيسة فهي: الحبوب والمنسوجات والقطن والصوف والجلود.

---

[٤٤] وردت هكذا في الاصل ولعلها الجميز.

عرض الصرة السلطانية في دمشق وإخراج المحمل

كان يتم وبمقتضى عادة قديمة، عرض السنجق الشريف قبل تحرك الصرة السلطانية من الشام بأربعة إلى خمسة أيام. ويجري هذا العرض على الأغلب في الخامس والعشرين من شهر رمضان المبارك. والسنجق الشريف يتم حفظه في القلعة الداخلية بدمشق. وفي اليوم المذكور يصل فوج من الجند السلطاني إلى قبالة القلعة، ويستخرج السنجق الشريف بكل إجلال من مكانه الخاص من قبل أمين الصرة السلطانية ومحافظ موكب الحج ويسلم إلى حامله. ثم يمسك أحد الحبلين الفضيين للسنجق أمين الصرة والآخر محافظ موكب الحج. وأمام السنجق تعزف الفرقة الموسيقية ويتم إخراجه من باب القلعة والتوجه به نحو باب المشيرية[٤٥]. ويشترك جمع غفير من تلاميذ الإعدادية والرشدية والابتدائية في هذا الحفل. ويتم إيصال السنجق إلى دائرة المشيرية في غاية التعظيم والاحترام.

وعقب العيد يقام مرة أخرى عرض كبير للمحمل والسنجق الشريفين ويحضره أركان الولاية كافة والأمراء وضباط الجيش، وهم يرتدون كامل زيهم الرسمي ويتقلدون أوسمتهم ويرافقون ركب المحمل وعلم السعادة (السنجق الشريف) حتى القدم الشريف[٤٦]. والقدم الشريف هو موضع يقع على بعد حوالي ثلاثة أرباع الساعة من دمشق. وينتظم الجند السلطاني من الطرفين حتى ذلك الموضع ليحيّوا (الموكب) باحترام. كما يتجمع أهالي دمشق في الأزقة والسطوح والشبابيك ليشاهدوه وهم يصفقون. وفي القدم الشريف تتم مسبقاً نصب الخيام وتهيئة اللوازم كالقهوة والعصير لتقديمها

---

[٤٥] ورد في الأصل بشكل باب المشري

[٤٦] لا يرد اسم هذا الموقع كثيراً في المصادر التي تصدت لقافلة الحج الشامية. وقد أشار إليه بيركهارت في رحلته حيث ذكر أن المحمل الشامي يغادر مدينة دمشق ظهراً ويقضي الليلة في قبة العسلى "وهو مسجد قديم يبعد ١٥ دقيقة من بوابة الله أو الباب الجنوبي لمدينة دمشق قرب قرية القدم. "بيركهارت، جون لويس، رحلات بيركهارت في سوريا الجنوبية، ترجمة أنور عرفات، عمان ١٩٦٩، ص ١٧٣ ونقل احمد عزت عبد الكريم محقق كتاب البديري عن تريس قوله: "ان أول مكان يقف عنده الحجاج بعد خروجهم من دمشق هو قرية القدم.. ويمكثون بها بضعة أيام لإجراء الترتيبات النهائية ويحدث التجمع النهائي ثم يخرجون منها الى مزيريب"، ثم يضيف احمد عزت عبد الكريم على هذا قائلاً: "ولكن البديري في تتبعه لقافلة الحج منذ تفصل عن دمشق لا يذكر شيئاً عن قرية القدم وإنما يذكر دائماً أن التجمع النهائي يكون في المزيريب، مما يجعلنا نرجح أن قرية القدم أخذت أهميتها كأول مرحلة في طريق الحج في خلال القرن التاسع عشر. أنظر البديري، الحلاق، حوادث دمشق اليومية، تحقيق احمد عزت عبد الكريم، مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطبعة لجنة البيان العربي، ط١ سنة ١٩٥٩، ص ٥١ المقدمة.

للمشاركين في القافلة. وعند الوصول إلى هذا المكان يتم رفع غطاء المحمل الشريف المطرز، ويوضع في صناديق خاصة ويغطى بغطاء أبيض. كما يوضع علم السعادة (السنجق الشريف) في محفظته الخاصة. وعلى الرغم من أن قافلة الحج تعتبر في هذا اليوم في حكم الخارج من دمشق، إلا أنها، كما يحدث في استانبول حيث تبقى الصرة السلطانية عدة أيام في اسكدار بعد إيصالها إلى هناك وحتى انطلاقها، تبقى هنا أيضاً مثلها، وبعد خمسة إلى عشرة ايام يتم انطلاقها من دمشق. والحقيقة أن ما يحدث في هذا اليوم من تجمع كبير في أزقة دمشق يمكن أن يشبه وبدون مبالغة بالاحتفالات الكبيرة التي تقام في استانبول.

القدم الشريف

القدم الشريف، على رواية، هو الموضع الذي وطأ عليه الرسول الأكرم (صلى الله عليه وسلم) قدمه عند تشريفه دمشق ضمن القافلة التجارية قبل البعثة. وأنشئ في هذا الموضع مسجد لقدسيته، وهو يزار الآن تبركاً به. وطبقاً للروايات المختلفة فان ورود فخر الكائنات قد امتد حتى أسكي شام (بصرى) التي بقيت آثارها على سفوح جبل الدروز الكائن على بعد ١٢٠ كم من مدينة دمشق. وتذكر بعض الروايات أنه امتد حتى مدينة خربة المناخر التي تهدمت بالكامل وهي تقع على بعد ٦ كم من قلعة الرمدان. وهذه القلعة بقيت آثارها إلى الآن والكائنة في السهل المعروف بـ (سهل الرمدان) والواقعة على طريق الحج على بعد ١٨٠ كم من دمشق.

عَلَم السعادة[٤٧] والمحمل

يعد علم السعادة والمحمل الشريف مقدسين إلى جانب الصرة السلطانية. وتأتي قدسية علم السعادة من كونه راية النبي محمد (ص). أما المحمل فعلى الرغم من أنه عبارة عن محفة مزينة بغطاء مطرز، إلا أنه عد مقدساً أيضاً وهو يحظى ومنذ القدم بالعناية والتعظيم. فهذه المحفة المسماة بالمحمل ليست هي بشيء بقي من عصر النبوة، ولا ينسب إلى الصحابة والتابعين والملوك والسلاطين العظام. ولكني وجدت روايتين تاريخيتين من الممكن أن تساقا في هذا الصدد أعرضهما للقراء. ورغم أنهم مخيرون في قبول إحداهما إلا أنني أتجرأ لأقول أن الأولى أقرب إلى الصواب وتستحق الاعتماد عليها.

فأما الأولى فهي: أن الفاطميين الذين حكموا في مصر اعتادوا إرسال محفة (هودج) مزينة إلى جانب الصرة إلى الحرمين في كل سنة، وذلك تبركاً بابنة الرسول الأعظم (ص). وأطلقوا على هذا اسم "المحمل الشريف". ولم يغير السلاطين والملوك العظام الذين حكموا في مصر فيما بعد هذه العادة. بل أبقوها واستمروا عليها. أما ما يتعلق بالصرة فان الخلفاء والسلاطين المسلمين كانوا يرسلون بين حين وآخر هدايا وأعطيات قيمة إلى الحرمين الشريفين. ثم بدأ السلطان العثماني جلبي محمد خان[٤٨] ولأول مرة باقتفاء آثار الأسلاف فأعد صرة وأرسلها إلى أهالي الحرمين، وذلك في الوقت الذي لم تكن خدمة الحرمين الشريفين قد انتقلت بعد إلى هذه الدولة (العثمانية). ولهذا فان إعداد هذه الصرة وإرسالها لم يكن يعتمد على وقت معين، بل كانت أعطية، الغرض منها نيل الثواب وكسب قلوب المؤمنين والمؤمنات. ولكن بعد أن نال السلطان سليم شرف الخلافة العظمى وفتح حلب ودمشق ومصر، ووصله مفتاح الحرمين الشريفين من أمير مكة الشريف محمد أبو البركات، وبعد أن تنازل الخليفة العباسي الأخير المتوكل على الله بن المستمسك بالله يعقوب

---

[٤٧] علم السعادة أو السنجق الشريف

[٤٨] جلبي (شلبي) محمد خان (١٤٠٤ – ١٤٢١م) هو السلطان الخامس للدولة العثمانية، تولى السلطنة بعد فترة الفراغ التي عاشتها الدولة إثر وقوع والده السلطان ييلديرم بايزيد أسيراً بيد تيمورلنك (١٤٠٢م). وقد اشتهر بإرساله الصرة الى أهالي الحرمين، والذي أصبح تقليداً متبعاً من قبل السلاطين الذين أتوا من بعده، أنظر:

Yeni Rehber Ansiklopedisi , Istanbul:1993,V: 66 -69 , Uzunçarşili, Mehmet I,Islam Ansiklopedisi, Istanbul. 1993, VII:496-506

من الخلافة برضاه إلى السلطان بدئ وبشكل رسمي بإعداد الصرة وإرسالها إلى الحجاز في كل سنة، كما تم إعداد محفة مزينة على غرار ما كان يعده الفاطميون وتم وضعها إلى جانب الصرة السلطانية.

واليوم تعد الصرة السلطانية في مصر أيضاً وتشتمل على ستارة الكعبة (بيت الله) ومحمل السيدة فاطمة. أما الصرة السلطانية التي ترسل من استانبول فتتضمن ما يتم تخصيصه لعشائر الحرمين من شموع ولوازم أخرى وكذلك المحفة المسماة بالمحمل والمنسوبة إلى السيدة عائشة وعلم السعادة. ونظراً لقدم المحمل المصري فانه يسير إلى يمين المحمل الشامي عند الخروج والعودة من مكة المكرمة إلى عرفات والعودة منها.

وأما الرواية الثانية فهي أن زوجة آيبك التركماني الذي حكم في مصر كانت تركب محفة مزينة عند ذهابها إلى الحج وعودتها منه، واحتفاءً بهذا بدئ فيما بعد، بإرسالها فارغة إلى الحجاز إلى جانب الصرة. وبعد أن تقلدت شجرة الدر[٤٩] الحكم في مصر، لم تترك هذه العادة. وسميت هذه المحفة "المحمل المصري".

الانطلاق من دمشق مع القافلة

بعد انتهاء العيد وبعد إكمال لوازم السفر وفي الساعة الرابعة وخمس دقائق من يوم الجمعة المصادف ١٩ مايس من سنة ١٣٠٦ وفي جو صافٍ انطلقنا من دمشق. ووصلنا في السادسة وعشرين دقيقة إلى القدم الشريف. وبعد أن احتسينا القهوة وصلينا ركعتين من الصلاة في مسجد هناك وفي الساعة السادسة واثنتي عشرة دقيقة توجهنا قاصدين المحل المنشود. وبلغت درجات الحرارة في هذا اليوم ٣٠ درجة، والأراضي على جانبي الطريق مزروعة، ولهذا بدأنا بسفرة رائعة. وتمتد السلاسل الجبلية من الشمال نحو الجنوب حتى خليج العقبة وتكاد تكون موازية للساحل،

---

[٤٩] شجرة الدر أو شجر الدر (ت ٦٥٥هـ ١٢٥٧م) ملكة مصر المشهورة، تزوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب، كانت تدير أمور الدولة عند غياب زوجها في الغزوات، بعد وفاة الملك تولت السلطنة ولكن الشام التي كانت تابعة الى الدولة الأيوبية خرجت على طاعتها، فتزوجت وزيرها عز الدين آيبك (وذكره الرحالة تحت اسم آيبك التركماني) واكتفت بالسيطرة عليه. قتلت على يد مماليك علي ابن زوجها. أنظر عنها:

Bahriye Uçok, Şecer-ud-dur, Islam Ansiklopedisi, Istanbul, 1979 XI:376 - 378

ويبدو من سياق نص الرحلة أن الرحالة ذكر شجرة الدر وكأنها شخصية أخرى وليست زوجة آيبك التركماني نفسها.

وفي هذا المكان تتكسر الجبال وتمتد موازية لسواحل البحر الأحمر. وتأخذ هذه الجبال أسماء مختلفة ففي جوار دمشق تسمى جبل الشيخ ثم عجلون، البلقاء، كرك موسى. وتسمى جبال الهراة والصفا قرب المدينة المنورة وبهذا تتم تسميتها بأسماء مختلفة في كل موقع من مواقعها، وتصل حتى باب المندب باليمن فتسمى السراة. وثم تمتد على امتداد سواحل الجزيرة العربية. وهكذا فان طريق الحج تتبع السلاسل الجبلية هذه فتمر أحياناً من الصحارى والسهول المستوية وأحياناً من الوديان والخلجان وتصل إلى المدينة المنورة. وتمتد من سفوح جبل الصالحية، وهو أحد فروع جبل الشيخ ببلدة دمشق إلى السهول التي تكون المنطقة الشرقية للجبل المذكور.

وتحيط بالمدينة أشجار الحور والصفصاف وأشجار مثمرة ويقدر محيطها بين ١٢ . ١٣ كم. وسرنا بالقافلة داخل هذه البساتين مسافة لا بأس بها، ثم خرجنا إلى السهل. ويمتد هذا السهل مسافة عشر ساعات طولاً و٤ .٥ ساعات عرضاً. وهو سهل واسع جداً ويضم عدداً كبيراً من العيون الطبيعية، كما يجري فيه نهر بردى الذي يروى مدينة دمشق فضلاً عن بحيرات وجداول صغيرة. وعلى الرغم من أن أراضيها مستوية وصالحة للزراعة وغير صخرية، إلا أنها وللأسف لا تتم الاستفادة منها من الناحية الزراعية. ويتم الآن تعبيد الطريق بين دمشق والشيخ سعد[٥٠] مركز حوران ونفذت منه ١٠٠ كم في هذا المكان، ولهذا فان قافلتنا تسير على طريق منتظم. وكنا نشاهد في الجهة الغربية قمم جبل الشيخ المغطاة بالثلوج والتي ترتفع ثمانية آلاف وسبعمائة متر[٥١]. وتزامنت رحلتنا مع وقت الحصاد ولهذا فقد لفتت أنظارنا ملابس العمل الزرقاء للفلاحين والفلاحات.

وقطعنا سهل الشام بشكل عرضي في ساعتين ووصلنا إلى جبل الكسوة وهو يرتفع حوالي ٥٠ متراً. ولهذا يفضل تسميته بالتل بدلاً من الجبل. واعتباراً من هذا المكان يُظهر الطريق قليلاً من الميلان، وبدأنا بالصعود على الجبل الصغير هذا. وبعد ساعة اجتزنا هذا التل ووصلنا إلى قرية صغيرة تسمى (الكسوة) [٥٢] أيضاً. وتضم هذه القرية العربية عدة مئات من البيوت ويمر من وسطها نهر يمكن أن يدير طاحونة وعليه قنطرة قديمة، وفي مدخل القرية وحتى هذه القنطرة هناك

---

[٥٠] ورد اسم الشيخ سعد في اكثر من موضع في الرحلة مصحفاً بشكل (شيخ سعيد).

[٥١] ارتفاع جبل الشيخ هنا غير دقيق، بل انه نحو ١٠ الاف قدم عن سطح البحر، أنظر: بطرس البستاني، دائرة المعارف، بيروت، د.ت، ح٧ ص ١٣.

[٥٢] قرية تقع إلى الجنوب من دمشق تبعد عنها حوالي ١٨ كم: المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، القسم الثاني ص ٣٥٢ الهامش، أعلام الورى ص ٥٠ هامش (١) وورد في المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري (دمشق ١٩٩٣ ج٥، ص ٣٣-٣٤) أنها بلدة تقع على الجانب الأيسر للنهر الأعوج.

رصيف ارضي. وتقع هذه القرية في منتهى وادٍ تحيط بأرجائها جبال حجرية تمتد مسافة ساعتين طولاً وحوالي ساعة عرضاً. وفي نهاية هذا الوادي يقع المنزل الأول وهو (خان دنون) ويسمى (خان طرخانة، وخان ذنون) [٥٣]. وفي هذا الموضع لفتت أنظارنا قرية قديمة وعدد من أشجار الصفصاف. والى جانب هذه القلعة[٥٤] يوجد نهر جار والى جواره تقع مضارب عشيرة عكيدات وهي تضم مئة خيمة وأفرادها مسلحون.

وعلى هذا الموضع قمنا بنصب الخيام، وقضينا الليلة هنا. وعلى الرغم من أن الجو في هذا المكان حار نهاراً، إلا أن الليل بارد، وتنخفض درجات الحرارة إلى الصفر[٥٥] ولهذا فكان علينا أن نتغطى جيداً.

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم السبت ٢٠ مايس ١٣٠٦ خرجت القافلة إلى الطريق. والى الجنوب الشرقي من هذه القلعة يوجد سهل يحيط بها وهو نحو حوالي ٢ . ٣ ساعات. وهذا السهل يحيط به من الشرق جبل (خيارة). ويبدو أن هذا الجبل ثار فيه بركان، فامتلأ هذا السهل الصغير بكامله بأحجار بركانية سوداء بحجم الكف، ولهذا فان حركة الحيوان والإنسان خارج الطريق غير ممكنة. بيد أن هذا الحكم لا ينطبق إلا على الغرباء، إذ أن العرب يتنقلون بحيواناتهم في هذه الأراضي بسهولة، كما لو كانوا على الطريق. وفضلاً عن هذا فان حوالي ربع مساحة السهل مزروع.

وبعد ساعة ونصف انتهينا من قطع السهل، ثم عبرنا تلاً صغيراً يسمى (صوبين فرعون) واتجهنا نحو الغرب قليلاً ثم إلى الجنوب. وفي الجهة الشرقية بدا لنا تل بركاني على شكل قُمْعِي، ارتفاعه حوالي ١٢٠ م، ومحيطه ثمانية آلاف متر. وفي الطرف الغربي شاهدت (قبة القواصي)[٥٦]، وهذه القبة كانت تضم في السابق حارساً يعاونه أحد القواصين من التركمان، ثم أصبح من يقيم فيها ويقوم بحراستها ولمدة طويلة، ولكنها تركت مؤخراً ونسبت إلى هذا الشخص. ولم يبق منها اليوم الا برجها المتهدم. وعبرنا المضيق الكائن بين التل ووصلنا إلى قرية

---

[٥٣] يقع خان دنون (بالدال ورد في بيركهارت ص ١٧٣) على نهر الأعوج وهو على بعد ساعات من قرية الكسوة والخان عبارة عن خرائب.

[٥٤] لم ترد في السياق إشارة إلى القلعة ولعل المقصود بها قرية دنون.

[٥٥] هكذا ورد في الاصل، وهو غير دقيق، فدرجات الحرارة لا تنخفض الى الصفر في ليالي الصيف.

[٥٦] قواصي جمع قوّاص وأصله من قوّاس من القوس أي رامي السهام. وكان هذا الاسم يطلق في السابق على الخادم الذي يرافق الكبار لأجل رمي السهام وحمل أدواتها، واطلق فيما بعد على الأفراد المسلحين الذين يأتون دون نواب العرفاء، أنظر: Pakalin , 2: 215

(غباغب)[٥٧] في الساعة الثانية عشرة ونصف. وتكثر الصخور المحروقة والشبيهة بالإسفنج حول التل البركاني المذكور إلى حد أصبح السهل كأنه تعرض إلى صخور نزلت من السماء وذلك لشدة قذف البركان في حينه. وفي الجهة المقابلة للتل أي على غرب الطريق توجد قرية عربية اسمها أم الحكيم. وقبل الوصول إلى غباغب ينتهي الطريق هنا بهذا الوضع. وطول هذا الطريق هو حوالي ٢٠ كم. وقد تم إنجاز القسم الواصل منه إلى (صوبين فرعون)، أما القسم المتبقي منه، فلم يتعد الأعمال الأولية. والقسم الأكبر من الأراضي الممتدة من خان ذنون إلى هذا المكان عبارة عن أراض صخرية ولهذا فان الأمور الزراعية لا تتم الا بصعوبة بالغة.

غباغب

تضم غباغب مخفراً صغيراً خصص لإقامة الجند السلطاني وعدداً من المقاهي العربية وعدداً من البساتين وحوضاً، وتصب في هذا الحوض مياه بقطر ٣ سم تقريباً، إلا أنه لا تحافظ عليها لانهدام هذا الحوض. ونزلنا إلى البستان في هذا المكان وأقمنا فيه حوالي ساعة حيث تناولنا الطعام. وذهبت أنا إلى حافة الحوض برهة من الزمن، وشاهدت أن قسماً من أعماقه قد غط بطحالب خضراء وامتلأ بالأسماك والسلاحف والضفادع فاظهر منظراً كريهاً. وتتدلى رؤوس الثعابين السوداء من بين صخور الحوض وهي تبتلع الأسماء المسكينات الواحدة بعد الأخرى. وبطبيعة الحال تأثرت بهذه الحالة، فاطلقت رصاصة على أحد الثعابين وكأنني ثأرت للأسماك المسكينات بقتلي أحد أعدائها.

في الساعة الثالثة غادرنا هذا المكان، وما زالت الأراضي الصخرية تمتد. وفي الساعة الرابعة والنصف بدت في شمال الطريق ويمينها القرى العربية: دير عدس[٥٨] موعورفين، موسبين[٥٩] ودير البخت[٦٠] وهي قرى تدين بالإسلام. وتنتهي حدود سنجق دمشق هنا وتبدأ حدود سنجق حوران. والجانب الأيمن من هذا الطريق هي أراض قابلة للزراعة. أما الجانب الشمالي فهو عبارة عن أراضي صخرية غير مفيدة. وبدأ السراب بالظهور في الأطراف نتيجة الحرارة، وبعد

---

[٥٧] غباغب: اسم بلدة وناحية في حوران تتبع حالياً منطقة الصنمين في محافظة درعا بسورية، وتضم قرى الطيحة، كفر ناسج، المال، عقربا، موتبين، دير البخت، دير العدس، عالقين، كمونة، منشية السبيل، منكت الخطب: أنظر : المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، دمشق ١٩٩٢ مجلد ٤ ص ٤٢٣ – ٤٢٤.

[٥٨] في الأصل در عدس.

[٥٩] ورد هذا الاسم بشكل موتبين في وصف غباغب، انظر الهامش ما قبل السابق.

[٦٠] في الأصل دير نوجت وصححناه من المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، ج ٤، ص ٤٢٤.

قليل مررنا بقرية (ديدا) ذات الآثار القديمة وهي في الجانب الأيمن. وفي حوالي الساعة الخامسة لفتت نظري أطلال مدينة قديمة من أعمدة وقصور وأبراج رائعة. ونظراً لبعد هذه المدينة عن الطريق حوالي عشرة دقائق، فقد أخذت معي أحد الضبطية[٦١] وتقدمنا بحيواناتنا نحوها. وفي الساعة الخامسة أصبحنا أمام آثار قصر قديم، ومررت من حافة حوض مستطيل الشكل طوله ٦٠ م وعرضه ٣٠ م وتوجهت نحو برج تعلق بنظري. وكانت الساعة تشير إلى الخامسة حيث وصلت إلى (ثلاميس[٦٢]) المدينة المشهورة التي بقيت من عهد الرومانيين. وهذه المدينة كانت تضم في السابق حوالي ألفي بيت. ويبدو من معالمها الحالية أنها أقيمت قبل الميلاد وتشاهد في داخلها أطلال معبد كبير وحمام وثلاثة جسور وقصر ملكي. وعلى الرغم من أن البرج تهدم قسم منه، إلا أن القسم المتبقي منه ما زال محكم البناء. وقد تم بناؤه بالكامل من الأحجار الكبيرة وهو في أربعة أمتار وارتفاعه عشرة أمتار. وهنا شاهدني عدد من العرب، فتوجهوا نحوي بكل وقار ليحيوني، وظنوا بأني مكلف بالتحقيق عن أحوال الأهالي وقاموا بالتظلم. وسألتهم عن هذه البناية فأخبروني بأنها منارة جامع شريف بناه الخليفة عمر، وتجولت في داخل الجامع الذي بني على شكل مربع طول ضلعه ٢٠ ذراعاً عثمانياً[٦٣] وعلى ستة أعمدة. وبنيت جسور السقف من قطعة واحدة من الحجر، وتكاد تكون آثار الهدم معدومة فيه. ودعاني بعض الفلاحين الذين جاءوا إلى هنا فيما بعد، لاحتساء القهوة فلبيت طلبهم وتقدمت خلفهم. وأخرجوني إلى قصر مرتفع ومتهدم،

---

[٦١] ضبطية: مصطلح يستخدم للدلالة على النظام العسكري المعني بأمور الأمن والنظام. أقيم بعد التنظيمات في الدولة العثمانية وذلك بموجب النظام الصادر في ١٣ ربيع الأول ١٢٨٦هـ(١٨٦٩م) وسمي فيما بعد بالجندرمة (أي الدرك) وحل محله نظام الشرطة. أنظر: Pakalin. 3: 644

[٦٢] ورد هذا الاسم في الرحلة على أشكال مختلفة: ثلاميس، ثلامين، ثالاميس. لم أتمكن من التثبت منه في المصادر والمراجع. وقد ورد في كتاب جونز مدينة باسم سلمياس استحدثت في دور متأخر من العهد الروماني. وقد حدد جونز موقعها بالمنطقة الواقعة الى الجنوب الغربي من تدمر. أنظر: أ.هـ.م. جونز: مدن بلاد ا لشام، ترجمة د. احسان عباس، عمان ١٩٨٦، ص ٨٠.

[٦٣] الذراع ويقابل في التركية ارشون أو آرشين، مقياس لقياس الطول استخدم في الدولة العثمانية، وهو حوالي ٦٨سم أي طول ذراع الانسان من بداية الاصبع وحتى الرسغ، واستخدم عند العثمانيين ثلاثة أنواع من الذراع على مر العصور وهي: ذراع السوق وكان طوله ٦٨سم وتستخدم لقياس القماش. وفيما بعد ظهر ذراع طوله ٦٥ سم لقياس الأقمشة الحريرية الغالية، وأطلق عليه اسم أندازة. وذراع البنائين والمعماريين، وطوله حوالي ٨, ٧٥سم. وكان الذراع يتعرض الى التغيير بين وقت وآخر، ولهذا أعد ذراع من خشب الأبنوس في عهد السلطان سليم الثالث واتخذ أساساً في مختلف أرجاء الدولة. وكان نصف الذراع يقابل (القدم) عند الأوروبيين، ولهذا استخدم هذا المصطلح (القدم) للدلالة على نصف الذراع وذلك في مجال الحفر. Meydan Larousse II: 133

مسقف بأقبية مبنية من الآجر من دون مونة. وكانت درجة الحرارة في الخارج تبلغ ٣٥، ألا أن الجو في هذا المكان كان معتدلاً. وهذا الموقع يطل على المدينة، وتوحي الأبراج المدببة والأقواس المتهدمة للإنسان كأنه يعيش في العصور الوسطى. وهنا جلس عدد من العرب أمامي جلسة القرفصاء وبدأوا بالدعاء للسلطان. وذكروا لي أن الأراضي العائدة لهم قد سيطر عليها متنفذو دمشق، وعلى الرغم من ورود عدد من المحققين من جانب الولاية لهذا الغرض إلا أن هؤلاء كانوا يلتزمون جانب المتنفذين ولهذا لم تلب مطالبهم.

وفي الجنوب الشرقي من القرية توقفت القافلة وقت الظهر لأجل الراحة، فنهضت من مكاني حالاً ورغبت بزيارة الأماكن التي تستحق مشاهدتها فاستفسرت عنها، فأشاروا إلى ضريح النبي جبير[٦٤]. فقمت بزيارته حالاً. وهذا الضريح يقع في مكان منخفض يتم النزول اليه بثماني درجات وأقيمت عليه قبة. ويوجد في القرية كذلك مزار يسمى "مزار الشيخ حسن" ويسكن هذه القرية فلاحون عرب يتراوح عدد منازلهم في الوقت الراهن بين ٦٠ إلى ٧٠ بيتاً. وفي جوار هذه القرية توجد أحجار الطاحون الضخمة. وفي الحوض الواقع أمام القرية ينمو العلق وبشكل كبير.

وغادرنا هذا المكان في الساعة السابعة والربع. ويميل الطريق اعتباراً من ثلاميس قليلاً نحو الشرق. والأراضي الواقعة على طرفي الطريق قابلة للزراعة. وعبرنا من على جسر حجري ذي ثلاثة مجالات أقيم على نهر صغير يجري قرب القرية. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار ارتفاع هذا الجسر وجسامته فينبغي أن نحكم أن هذا الجسر كان يمر من تحته إما نهر كبير أو سيول عارمة تحصل خلال موسم المطر. وبدءاً من هذا الموقع تم بناء رصيف مستقيم ومنتظم عرضه ستة أمتار وطوله أربعة كيلومترات وهو من الآثار القديمة، وينتهي إلى مدينة أثرية قديمة متهدمة. ويبدو أن هناك طريق اتصال بين هذا الرصيف وثلاميس، الأمر الذي يدل على أن هذه الأراضي كانت معمورة في العصور القديمة. وبعد ثلاميس من الممكن السفر بواسطة العربات. وبعد أن تركنا هذه القرية وصلنا في الساعة ٩,٣٠ إلى المنزل الثاني: مشارف تل (كوتيه) ويوجد هنا بين الأحجار حوض طبيعي كوّنه ينبوع صغير. وقضينا الليل في هذا المكان.

وفي الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الاثنين الحادي والعشرين من مايس، تحركنا من هذا المكان. والأراضي الواقعة إلى جانبي الطريق مزروعة بكاملها. والينابيع نادرة هنا ولا يمكن المحافظة عليها وتمتزج مياهها بالطين وما شابهه ولهذا فإنها في غاية القذارة. وانطلقنا من كوتيه

---

[٦٤] هكذا ورد الاسم في الأصل.

وتوجهنا نحو الجنوب الغربي. وهذه الأماكن تدخل ضمن إدارة سنجق حوران، والأراضي المحيطة بها خصبة وقد تمت زراعة القسم الأكبر منها. وبعد نصف ساعة اجتزنا قرية (عدلي[٦٥]). وهذه القرية تهدمت في السابق، ولكن بعض الفلاحين قاموا بإعمارها والسكن فيها فيما بعد، ثم عبرنا قرية (فكيه). وفي الساعة الثانية عشرة من صباح اليوم وصلنا إلى قرية (شيخ مسكين[٦٦]) وتقع هذه القرية العربية قرب وادٍ صغير. وهي تحتوي على ستين بيتاً.

ويجري في هذا المكان نهر صغير ينبع من نبع (مودد دنانير) قطر الماء الجاري فيه ديسمتر ونصف. والى الجنوب الغربي من القرية يوجد جسر طوله ثلاثون متراً وعرضه خمسة أمتار وهو بحاجة إلى التعمير.

ويقع منبع النبع المذكور على بعد ٨ كم من الشمال الغربي للقرية. وعندما وصلت إلى هذا المكان، كنت قد تقدمت عن القافلة. ولكي استريح قليلاً نزلت في منزل مختار القرية حيث قاموا بضيافتي وفق التقاليد العربية البدوية. وتناولت على عجل فطوراً مكونا من أكلات عربية.

وفي الساعة الواحدة والنصف خرجت إلى الطريق مرة أخرى. ووصلت قافلتنا إلى هذا المكان. وأخذت في الحال عدداً من الفرسان معي وتقدمت إلى الأمام مرة أخرى. والأراضي الواقعة هنا حمراء كالحناء والقسم الأكبر منها مزروع. وبعد ساعة ونصف دخلنا في واد على يمينه قرية تسمى داعل. وبعد ساعة اجتزنا قرية اسمها طفس تقع في داخل وادٍ أيضاً.

مزيريب

وفي الساعة الخامسة وصلنا إلى مزيريب[٦٧] والطريق الممتد من شيخ مسكين إلى هذا المكان يبلغ ثلاث ساعات ونصف. واذا استثنينا مسافة من الأراضي الواقعة إلى جوار قرية طفس

---

[٦٥] ورد اسم القرية بشكل (دعلى) في بيركهارت ص ١٧٣.

[٦٦] شيخ مسكين: بلدة في حوران، تقع على بعد ٨ كم الى الغرب من مدينة إزرع، عمرانها قديم يعود للعصور اليونانية والرومانية والبيزنطية لوجود آثار كثيرة فيها، منها كنائس، مباني، أقنية، آبار، مدافن، كتابات ونقوش. أنظر المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري جـ ٤ ص ٨٥ . ٨٦.

[٦٧] مزيريب: بلدة ومركز ناحية في هضبة حوران، تقع الى شمال غرب مدينة درعا وتبعد عنها ١١ كم. فيها آثار معبد وسد وأقنية يعتقد أنها منذ زمن الرومان، وقلعة ومطاحن وسجن تعود الى العهد العثماني، وكانت محطة هامة للحج ولسكة حديدية أنشئت سنة ١٨٩٣، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ٥: ٢٣٣ . ٢٣٤.

والتي هي صخرية، فان الأراضي الواقعة إلى جانبي الطريق عبارة عن عدد كبير من التلال والروابي الترابية ولهذا فإنها صالحة للزراعة وملائمة لاستخدام العربات عليها.

وفي يوم الاثنين ٢١ مايس (أيار) من سنة ٣٠٦ كنا نأخذ الراحة لوصولنا إلى مزيريب. وهذا الموقع يقع داخل سنجق (لواء) حوران وهو يبتعد عن دمشق ٨٤ كم ويتم فيه استكمال لوازم السفر كالأكل والمؤن والابل.. الخ، ويجتمع فيه الحجاج. وفيه قلعة قديمة متهدمة بناها سنان باشا[٦٨]. ويحتوي على بحيرة عميقة طولها ٨٠٠ م وعرضها بين ٣٠٠ . ٤٠٠ م تكونت نتيجة نبع غزير المياه، وهي حافلة بأسماك كثيرة وفي داخلها جزيرة صغيرة مساحتها مائة متر مربع. وهذا الموضع منخفض وخال من الأشجار وينمو القصب في حواف البحيرة. الأمر الذي جعل جوه الطبيعي ثقيلاً. والحقيقة ان الرطوبة والحرارة الشديدة تؤديان إلى تعفن النباتات التي تنمو قرب البحيرة والى تلوث الجو. ولو بذل جهد بسيط من الممكن القضاء على هذا ويتم الحصول على هواء حسن، والعين الموجودة هنا يتدفق منها ماء بقطر نصف متر، وقد تعرضت هذه العين إلى شق في داخلها وتهدمت الأحواض كلية بمرور الزمن ولا سيما عند استيلاء تيمورلنك على بلاد الشام مستهدفاً تدمير هذه الأرجاء. ولم تكن هذه العين هي العين الوحيدة التي تعرضت إلى تدمير تيمورلنك، بل وكما يبدو للمشاهد، وكما يستدل من الروايات والدراسات، فان هناك عدداً كبيراً من العيون والسدود والأحواض والآبار الواقعة في هذه الأرجاء قد تعرضت إلى هدم وتخريب متعمدين من قبل تيمور المهزوم. ففي منحدرات جبل الدروز كانت توجد أعداداً هائلة من العيون المسدودة بالأحجار المقطعة الكبيرة والأقفال المصبوب فيها الرصاص. وما قمت به من دراسة وتحرٍ من دمشق لغاية هذا المكان قد أوقعني في حيرة واندهاش وذلك لأنه وكما هو معروف من قبل العارفين أن برية الشام كانت تضم في السابق بين ١٥ . ٢٠ مليون نسمة[٦٩] وأقيمت في أرجائها المختلفة أعداد كبيرة من المدن والبلدات. وقد شهدت الكثير من مظاهر التمدن والرقي على مر قرون عديدة وذلك من حيث الزراعة. وقد لفت نظري الكثير من الأماكن المهدمة، واذا أخذنا بنظر الاعتبار ندرة المياه التي كان يحتاجها هؤلاء، فكيف يمكن أن نتصور حياة هذا القدر من السكان وحيواناتهم الأهلية بدون ماء؟ ولكن ما قمت به من الدراسة قد صحح أفكاري وطمأن خاطري.

---

[٦٨] سنان باشا: تولى ولاية دمشق سنة ٩٩٤ وبقي فيها حاكماً سنة وسبعة أشهر، أنظر:

M. Mehdi Ilhan, Kitap Tanitma, Belleten , C.LX1, Agustos 1997 , Sayi ; 231, S. 430 – 431.

[٦٩] هذا الرقم مبالغ فيه الى حدٍ كبير.

والجزيرة الصغيرة الواقعة داخل بحيرة مزيريب كانت في السابق معمورة وتضم الآن ٣٠ بيتاً يقيم فيها فقراء البدو[٧٠]. ويتم العبور إلى الجزيرة بواسطة رصيف قديم متهدم عرضه متر وطوله ٥٠ مترا. واتخذ الجند السلطاني مزيريب مقراً له عندما أرسل على الدروز سنة ٨٢ وأقيمت قرب البحيرة طاحونة مائية وفرن من قبل السلطان عبد العزيز وذلك من أجل تأمين الخبز للجند. ويتم تشغيل هذه الطاحونة بقوة المياه المتدفقة من النبع المذكور. والأسماك الموجودة في البحيرة غير مرغوب فيها وذلك لوجود بعض المياه المعدنية داخل البحيرة ووقوع المستنقعات قربها ووجود الأعشاب المتعفنة. وعلى الرغم من أن هذا (أكل هذه الأسماك) لا يشكل ضرراً كبيراً من الناحية الطبية، إلا أن كون هذه الأسماك ذات جلود غليظة، فان هضم الإنسان لها يكون بطيئاً لذا فان ضعاف المعدة ينبغي أن يجتنبوه وذلك للمحافظة على صحتهم كما ينصح بعدم الاستحمام في هذه البحيرة.

وإصلاح مزيريب وتنظيمها سيكون في غاية السهولة، وذلك في حالة تحويلها إلى بلدة. ولها قابلية كبيرة للنهضة والعمران بسبب تجمع الحجاج فيها ولأسباب أخرى.. ومن الممكن تلطيف الجو وذلك بإزالة القصب، الذي تبلغ مساحته حوالي ١٠٠ متر مربع، ولا يستغرق قطعه اكثر من خمسة إلى عشرة أيام وهذا الموضع الملائم رغم كونه مركزاً طبيعياً في داخل سنجق حوران، إلا أنه تم اتخاذ القرية المسماة الشيخ سعد[٧١] مركزاً للواء قبل عدة سنوات. وهي تقع على بعد ثلاث ساعات من هنا. وهي تخلو من كل مظاهر التحضر. ولا يتضمن مركز اللواء سوى عدد من البيوت وعدد من الأبنية الحكومية التي أقيمت فيما بعد. ولو تم نقل مركز اللواء إلى هذا المكان وعين متصرف كفؤ وغيور وصاحب دراية فانه (أي مزيريب) سيتحول في غضون فترة قصيرة إلى بلدة معمورة. وتتميز أراضيها بالخصوبة، ولهذا فإنها صالحة لنمو الأشجار والنباتات فيها، إلا أن الكسل والجهل أبقيا هذه الأراضي الرائعة خالية من كل نبات. ومن السهولة القضاء على التعفن، وتلطيف الجو وذلك من خلال غرس الأشجار اللطيفة كالأقاسية والقوق والزيتون وبإزالة القصب وإقامة رصيف على حافة البحيرة وخاصة أن الأحجار متوفرة وأجور العمال رخيصة. وفضلاً عن هذا فان الأهالي يميلون ميلاً شديداً نحو التجدد. وكمثال على ذلك نذكر أنه في سنة ٩٨ عين زيور باشا وهو من ألوية الجند السلطاني متصرفاً على حوران. وقام هو بتعليم بعض الناس زراعة

---

[٧٠] في الأصل (ضعفاء العربان) ٠

[٧١] ورد في المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري (جـ ٤ ص ٧٩) أن الشيخ سعد كانت مركزاً لأحد الأسواق العربية القديمة وفيها آثار تعود الى الفترات الآرامية والنبطية والرومانية والبيزنطية والغسانية والعثمانية ويتألف القسم القديم من القرية من تل أثري صنعي، يقوم عليه بناء يدعى دير النبي أيوب تحول فيما بعد الى مسجد ثم تهدم

بعض المحاصيل الزراعية كالبطيخ الأحمر والبطيخ الأصفر وغرس شجر العنب وكلها لم تكن معروفة في هذه الأرجاء حتى ذلك الوقت. كما قام بتوزيع الأشجار والبذور في القرى المجاورة ولم يمض وقت طويل حتى ازدادت هذه الفواكه إلى درجة أنها أصبحت اليوم كثيرة جداً.

وحدد موعد اجتماع الحجاج في مزيريب، ولهذا فقد أقيم هنا سوق مفتوحة من عدة مئات من الخيام، ومنها يقوم الحجاج بتأمين احتياجاتهم من المؤن والطعام. غير أنه من الغرائب هنا أن الرسوم التي تستوفى من هذه السوق تشبه ما كان يأخذه الإقطاعيون في الأزمنة القديمة من السوق والمسافرين، والجباة هم موظفو الدولة التابعون إلى متصرفي حوران، ومن نافلة القول ذكر مدى التجاوزات التي تحصل في الجباية.

حتى أنه في اليوم الثالث والعشرين من شهر رمضان شاهدت المعاملة التي عومل بها ستة أشخاص من الأصناف[٧٢] الذين لم يتمكنوا من دفع ما طلب منهم من الرسوم، شاهدتها غريبة جداً. ولهذا فقد تجرأت أن أذكرها هنا متألماً. إذ أن هؤلاء الرجال جلبوا إلى المتصرف وتعرضوا لمضايقات شديدة ثم مسحت وجوههم بالعسل وتم ربطهم بالأشجار ليبقوا تحت أشعة الشمس حتى المساء وتحت حراسة جنديين. ومثل هذه المظالم والتعذيب كانت القرون الوسطى تتميز بها. ولو سمعت هذا من شخص موثوق به شاهد بعينيه وقوعه في عهد العدالة هذا، لما كنت أصدقه. لأن صدور مثل هذه الحركة البربرية من شخص تم رفعه إلى مقام المتصرفية من قبل الدولة يحير عقول المنصفين[٧٣].

والطعام الذي يتناوله أهالي هذه الأرجاء هو البرغل والحليب المخلوط بالحنطة والمربى والحليب الصافي.

السفر إلى الشيخ سعد:

تقع قرية الشيخ سعد إلى الشمال الغربي من مزيريب وهي مركز لواء حوران وتقيم قافلة الحج فيها عادة حوالي عشرة أيام ولهذا صممت على مشاهدة الأماكن المجاورة. ففي الساعة الخامسة وعشرين دقيقة من يوم السبت ٢٥ مايس ١٣٠٦ أخذت معي أحد الضباط الخيالة

---

[٧٢] الاصناف: هو في اللغة العثمانية، الاسم المشترك للذين يمارسون الفعاليات التجارية الصغيرة ويمتهنون الحرف اليدوية. وكانوا ينتظمون في اتحاد مهني يسمى في العثمانية (لونجه) وهو أشبه بالنقابة في الوقت الحالي. أنظر:
Meydan Larousse 6:390, Bekir Sitki Baykal, Tarih Terimleri S□zl□□□ , Ankara, 1981, 36-37.

[٧٣] حفاظاً على الأمانة العلمية آثرنا الإبقاء على ما ذكره الرحالة في هذا الخصوص دون تصرف.

وتوجهت نحو الهدف المنشود. وبهذه المناسبة ينبغي أن أذكر أنه ولأجل المحافظة على الصرة السلطانية يتم سنوياً تخصيص ٢٥٠ . ٣٠٠ من البغالة مع بغالهم ونصف فوج جند مشاه من الجند السلطاني وعدد من مدافع الجبل (وهي تتكون عادة . وكما هو معروف . من مدفعين) وسريتين من خيالة الجندرمة (الدرك) ويكون مجموعهما ٢٠٠ نفر ويرافقهم الجمالون المدنيون من الشيشان والبدو ويتراوح عددهم بين ٦٠ . ٧٠ ويسمون (العقيل[٧٤])، أما مهمة القيادة فتعطى لمحافظ موكب الحج الشريف. ويقوم الجند السلطاني والدرك بمرافقة القافلة عند سيرها للمحافظة عليها ويكونون في الجانبين وتأخذ المدفعية مكانها في مقدمة القافلة أما فرقة العقيل (اكيل) فتبدو وكأنها تقوم بالمحافظة على مؤخرة القافلة. والغاية من المحافظة على مؤخرة القافلة هي ليست صد خطر اغارة البدو المفاجئة على القافلة، بل توصيل المسافرين والجمال التي تتخلف عن القافلة بسبب من الأسباب إلى القافلة. إلا أنه يكاد لم يظهر أبداً أي جمل تخلف عن القافلة أو حاج يمتلك أشياء ثمينة.

كان الطريق مستوياً وخالياً من العوائق. وصادفنا ثلاثة أنهار فقط على خط السير. وعلى أحدها جسر قديم ذو ثمانية أقواس، ويجري فيه ماء بقطر ٢ دسم وينبع من أرجاء الشيخ مسكين، إلا أن هذا الماء يذهب هدراً بسبب عدم تطهير النهر أو منبعه. ولو تم تنظيم مجرى النهر على ما يرام فانه من الممكن الاستفادة منه استفادة كبيرة. وبعد هذا صادفنا نهرين أيضاً، إلا أن مياههما قليلة فلا يستحقان التوقف عندهما. ومع هذا فانه من الممكن الاستفادة منهما إلى حدٍ ما.

ومما يؤسف له أن الموظفين والأهالي لم يبحثوا عن وسيلة للاستفادة من النهر الكبير، ولذلك لن يولوا أي اهتمام بهذين النهرين الصغيرين، فتم تركهما مهملين بهذا الشكل. اذ يدعي أصحاب الأفكار والأقوال السطحية أن هذه الأماكن صحراء ولهذا تبقى مهملة، والحال أنها لو أصبحت بيد غيور ونابه فان الذهب سيسيل من كل أرجائها. ولا يمكن للإنسان أن يحقق أي شيء لو لم يكن عمله منتظماً. فلن تنزل المائدة والنعم من السماء دائماً . كما نزل . لبني إسرائيل.

---

[٧٤] ورد هذا الاسم في رحلة السنوسي التونسي بشكل "الحج العقيلي" إذ ذكر الرحالة "أنه بعد رحيل الركب تتأخر رسلة من الإبل تتألف من مائة ناقة نحو الساعة وأكثر ليعيدوا نظرهم على المنزلة، هل تخلف فيها شيء أو أحد. ويأتون على الطريق وراء الركب فينزلون بعد نزول الركب بزمن. ويسمى ذلك الحج العقيلي وكبيره هاته السنة (أي ١٢٩٩هـ) حسن الشبل. وفي الغالب يأتون باللقطات وينادون عليها فيأخذها أهلها. " وهو يعتبر هذا من العوائد المستحسنة، أنظر. د.علي الشنوفي: مكة المكرمة والكعبة المشرفة في كتب الرحالة المسلمين، ص ٢٢ ٠

ومهما يكن، وبعد ساعتين وصلنا إلى الشيخ سعد. وتقع القرية نفسها في وسط أرض منبسطة، وفي مقابلها يوجد تل سنذكره فيما بعد، وقد أقيم عليه مقر للحكومة وخمسة إلى ستة دكاكين وحوالي ثلاثين داراً وكوخاً يسكنها العرب. ولا يوجد أي شيء غيرها. وتجولت في المقر الحكومي. وفي داخله يوجد ضريح منسوب إلى النبي أيوب، إلا أنني لم أجد فيه أي أثر قديم كجدار يحيط به أو قبة عليه، وحسب ظني العاجز أنه لأحد الأولياء. وعلى التل المذكور الذي يبعد حوالي عشر دقائق عن مقر الحكومة، يوجد مسجد بناه الخليفة عمر (رض)، كما يوجد في اسفل التل حوض مشهور يقال أن النبي أيوب استحم فيه، وكان قد بنيت عليه في السابق قبة وأقيم في أمامه مسجد. وهذا الحوض الواقع في داخل القبة هو مستطيل الشكل طوله أربعة أمتار وعرضه متر ونصف. وقد تم حفره في الحجر عمقه قامة واحدة وفي بعض المواضع قامة ونصف. ويروى أن هذا الماء يشفي كل أنواع العلل. وفي أحد أطراف الحجر، توجد إشارة تشبه أثر قدم ويقال انه عندما مرض النبي أيوب (ع) دعا ربه متضرعاً راجياً شفاءه فنزل إليه الوحي كما جاء في القرآن الكريم بقوله تعالى:

"واذْكُرْ عَبْدَنَا أيُّوبَ إذْ نادَى رَبَّهُ أنـّي مَسَّنيَ الشَّيْطانُ بِنُصُبٍ وَعَذاب }٤١{ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغتَسَلٌ بارِدٌ وَشَراب }٤٢{ وَوَهَبْنا لَهُ أَهلَه وَمِثلَهُم مَعَهُم رَحْمَةً مِنّا وَذِكْرى لأولي الألباب }٤٣{ وَخُذ بيدك ضِغْثاً فاضرب بِهِ وَلا تَحْنَث إنـّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْم العَبْدُ إنـّه أوّابْ }٤٤{"[٧٥].

وامتثل أيوب بالأمر الإلهي فظهر هذا الماء المبارك من ضرب قدمه الشريف. وقمت بالتبرك بزيارة الضريح الشريف والماء الطيب هذا. حتى حلّت الرقة والحمية بقلبي العاجز عند زيارتي للمسجد الشريف الواقع قبالة الضريح الشريف والذي أعجز التعبير عنه. وذلك لأننا إذا صرفنا النظر عن إقامة الصلاة والدعاء في داخل أثر مقدس قديم، فإنني فقدت عقلي عندما شاهدت بعيني الحقارة والدناسة وذلك باتخاذ مرافق صحية عادية فيه، فقلت ما قلت.

تضم القرية ١٥٠ إلى ٢٠٠ داراً وأهاليها جد فقراء وكسلاء، ولكن بعد اتخاذها مركز لواء أقيم فيها عدد من الحدائق والبساتين. وفيها عدد من أشجار الرمان والمشمش وعدة مئات من أشجار الصفصاف والحور، فيا ترى، ألا ترى هيئة موظفي اللواء هذه الحالة؟ أو أنهم يرونها ولكنهم يلازمون الصمت "أصلح الله شأنهم". وصعدت فيما بعد لزيارة مسجد الخليفة عمر المار

---

[٧٥] سورة ص، الآيات ٤١ . ٤٤، وقد أورد الرحالة ترجمة مختصرة لهذه الآيات.

ذكره والكائن على التل. وقد بني هذا المسجد من الحجر المقطع على ثمانية أعمدة، عرضه ١٣ ذراعاً وارتفاعه ١١ ذراعاً، ومن حيث الفنون المعمارية بني على الطراز الروماني اذ تم بناؤه من الحجر بدون مونة حتى الوصول إلى السقف وأقواسه وهو في غاية المتانة. وفي وسط سقفه قبّة رائعة قطرها ثلاثة أمتار أقيمت على أربعة أقواس. وفي الطرف الأيسر من المحراب يوجد باب ارتفاعه ثلاثة أمتار وعرضه متر ونصف وهو باب مصنع بني كل واحد من مصراعيه من قطعة واحدة من الحجر. وأدخلت رزاته العلوية والسفلية بالقواعد الحجرية. وأمام المحراب بالذات يوجد حجران وضع الواحد فوق الآخر، ارتفاعهما ثلاثة أمتار وعرضهما وطولهما متران ...[٧٦].

وينبغي إقرار صحة هذه الرواية نظراً لبقاء مثل هذا الحجر غير المنتظم داخل الجامع الشريف. ولكن مما يؤسف له أن هذا الجامع متهدم أيضاً. ومن المؤسف أن يضيع مثل هذا الأثر النادر والمقدس. وفي داخل القرية يوجد حوض وجامع. ورغبت أن أشاهد منبع النهر الموجود هنا، ولهذا دعيت أحد العرب السود الواقفين حولي. وعندما أفصحت عن رغبتي له بالعربية ردّ عليّ باللغة التركية. فاندهشت لذلك. وقد زاد اندهاشي عندما أقبل من هنا وهناك عدد من النساء وهن يتكلمن اللغة التركية وبلهجة استانبول. فبحثت عن الأمر. واذا بي أجد أن أهالي خمسين إلى ستين داراً في القرية هم من الجواري والعبيد الذين تم عتقهم من قبل أسيادهم أو فروا منهم[٧٧].

وهذا التل الصغير . كما يستدل من آثاره . هو أنقاض بلدة قديمة. وأخذت معي مرشداً وذهبت إلى المنابع والواقعة غرب التل بمسافة خمس دقائق عنها. وتتدفق المياه من بين الصخور في خمسة . ستة مواضع وشربت منها وكانت لذيذة جداً. وقد

تعرضت هذه المنابع في السابق إلى شقوف في داخلها ودمرت إلى حد كبير وتتسرب حوالي تسعين بالمائة من مياهها بين الصخور. ولكن قسماً منها يتم توصيلها بواسطة جدول أقيم في الآونة الأخيرة إلى أحواض القرية ومقرات الحكومة.

وفي هذا المكان تم تحشيد الجند السلطاني بغية تأديب الدروز، ولهذا فانه يرابط في الشيخ سعد نفسها فوج منظم من الخيالة مع فوج النقلية. وذهبت إلى خيام الضباط، وزرت من يستوجب زيارته ثم عدت مساء إلى مزيريب.

---

[٧٦] ورد هنا سطران مسحت معظم كلماتهما.

[٧٧] ولعل هذا يفسر أصل قسم من السود الذين سكنوا بلاد الشام.

٢٤ مايس ٣٠٦ نزلت اليوم قرب البحيرة وتجولت في الشاطئ بكامله ويتفرع من هذه البحيرة مجرى يتوجه بمسافة قليلة نحو الجنوب ثم يتلاشى على الأرض، وبعد مسافة يظهر ثانية ويصب في بحيرة طبرية، وفي حالة سد هذا المجرى فانه من الممكن زيادة حجم البحيرة في غضون فترة قصيرة، وفي نهاية البحيرة يتم الآن تشغيل طاحونة صغيرة.

٢٦ مايس ٣٠٦ قمت اليوم بالتدرب على التسديد بمسدس على هدف قرب البحيرة، ثم رأيت أن الخيالة من الجند والجندرمة يسوقون فرسهم باندفاع شديد ودقت الأبواق في المعسكرات لحمل السلاح، فقلقت لذلك، وذلك لأنه كانت هناك اضطرابات في جبل الدروز ولهذا تصورت رأساً بوقوع هجوم مباغت، فقفلت راجعاً إلى المعسكر، واذا بي أجد انهم القوا القبض على عدد من العرب، إذ أن صوت مسدسي قد أوقع الجيش في اضطراب، وبعد الوقوف على أصل الموضوع هدأت الأمور.

٢٦ مايس ٣٠٦ في هذا اليوم وصل فوج الخيالة وفوج النقلية المجهز بالبغال إلى مزيريب، وكانا محتشدين في الشيخ سعد. وكانت الغاية من وصولهم التظاهر لرؤساء وشيوخ البدو المجتمعين في مزيريب بمناسبة وجود قافلة الحج. وقد وصل الفوجان في الساعة الثالثة وهما ينفخان الأبواق.

وحيوانات الخيالة من جنس الكحيلان، ولكون أفراد الجند السلطاني المنتخبين، من أولاد العشائر على الأغلب، ولكونهم جنوداً تمّ تدريبهم منذ الصغر فقد قاموا بعرض عسكري أمام خيمة سعيد باشا وبوضع وسير حسنين. وبدأ شيوخ العشائر يهتفون: "الله ينصر السلطان" وسألت أحداً منهم عما إذا أعجبته الخيالة أم لا؟ فقال: مدهش بشكل يفوق الوصف. ثم أشار إلى فوج النقلية المجهز بالبغال وقال: هذا ما يبهج عيوننا. وسألت عن أسباب ذلك بتلهف. فقال: إن حيوانات النقل بإمكانها السير يوميا من ٨ . ١٠ ساعات، وفضلاً عن هذا بإمكانها مواصلة السير يومين أو ثلاثة فقط، إلا أن البغال بإمكانها السير ١٥ . ٢٠ ساعة على نسق واحد. ولهذا فان ما يسبقها لا يتخلص من ملاحقتها وبهذا فان البغال تنافس هجيننا. لأنها تشرب قليلاً من الماء وتأكل قليلاً من العلف وتستمر في الطريق طويلاً وتتحمل التقلبات الجوية تحملاً كبيراً وهي كالجمل العادي. أما الحيوانات الأخرى فإنها لا تتميز بهذه الأوصاف ولهذا فإنها لا تصلح لهذه الأماكن. وانتهى

العرض بشكل جميل. وارتاح الجند هنا حتى المساء ثم قفلوا راجعين إلى الشيخ سعد في الساعة التاسعة. وعند المساء نزلت إلى مقربة البحيرة مرة أخرى. ورسمت من شاطيء البحيرة المعسكر وقلعة سنان باشا وقسماً من الجزيرة. وشاهدت عدداً كبيراً من الفلاحين على حافة البحيرة وقد نزلوا في الماء إلى النصف وهم ينشغلون بشيء ما، فتقربت اليهم. وبدهشة كبيرة وجدتهم يصطادون السمك بأيديهم. أما سبب قيامهم بذلك فهو: حتى لا يثيروا الشكوك حول كثرة السمك.

التحرك من مزيريب

في هذا التاريخ اكتمل الحجاج، وكانت قافلة الحج تتكون من ٣٥٠ إيرانياً[٧٨] و٤٠ . ٥٠ من حجاج الشام والجنود المحافظين و ٣٠٠ . ٤٠٠ عكاماً و ٧٠٠ . ٨٠٠ من البدو والجمالين المكلفين بنقل أمتعة السفر وألفين إلى ثلاثة آلاف جمل. وفي الساعة الثانية عشرة و٢٠دقيقة من صباح يوم الثلاثاء المصادف ٢٧ مايس ٣٠٦ (رومية) غادرنا مزيريب متوجهين نحو الجهة المقصودة. وعند التحرك من مزيريب يكون اتجاه الطريق نحو الجنوب الشرقي. وبعد نصف ساعة وصلنا إلى ما يسمى بجسر أمدان أو جسر خربان وهو جسر قديم ومتهدم ولا يجري الماء تحته، ولكن السيول التي تحدث في موسم الأمطار تجري من تحته وتصب في بحيرة مزيريب. وتحت ظلال هذا الجسر تناولنا الفطور في الصباح. ويتجه الطريق بدءاً من هذا المكان، نحو الجنوب الشرقي أيضاً. وتخلو الأراضي من الصخور وهي جميلة إلا أنها متعرجة.

---

[٧٨] كانت الدولة العثمانية لا تسمح بتوجه الحجاج العراقيين والإيرانيين إلى الحرمين الشريفين مباشرة أي عبر ولاية البصرة التي كانت المسافة بينها وبين مكة المكرمة عشرين يوماً، ويرجع السبب في هذا المنع إلى أسباب كثيرة يأتي على رأسها خطورة هذه الطريق، وعدم إمكانية توفير الحماية اللازمة للحجاج من العشائر البدوية القاطنة في هذه المنطقة، وخشية الدولة من تعرض الحجاج الإيرانيين إلى عمليات القتل والنهب والسلب في الطريق، مما قد يؤدي إلى الإخلال بالاتفاقيات والمعاهدات المعقودة بين الدولة العثمانية والصفوية. ولهذا كانت الدولة تفرض على الحجاج العراقيين والإيرانيين استخدام طريق الحج الشامي والالتحاق بقافلة الحج الشامية. والمعروف أن ارتياد الحجاج الإيرانيين طريق سوريا يعود تاريخه إلى ما قبل هذا بكثير، وبالتحديد إلى عهد سليمان القانوني انظر على سبيل المثال: فاضل بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، إرسيكا إستانبول ٢٠١٤م ٣: ١٠٠ وما بعدها. وذكر الشيخ البديري أعداد من وصل منهم إلى دمشق بدءاً من سنة ١١٥٤ وحتى١١٦٤، ويبدو أن هؤلاء كانوا يأتون مع الحجاج الحلبيين (أنظر البديري، ص ١٠، ٣٠، ١٤٩، ١٦١). ويرى عبد الكريم رافق أن الحجاج الإيرانيين كانوا يأتون إلى دمشق إما عبر حلب أو مباشرة عبر بغداد والطريق الصحراوي برفقة قافلة التجارة وذلك "للإفادة من الحماية المتوافرة لهم" (أنظر عبد الكريم رافق ص ٦).

وبعد ساعة من هذا المكان صادفنا في اليمين أي الجهة الغربية من الطريق قرية الطرة[٧٩]. وهي تقع على تل صغير. وتتضمن حوالي مئة بيت وأهاليها يدينون بمذهب (الزيعية) وهو من المذاهب المسيحية[٨٠] وهم يمتهنون الزراعة، وتقوم نساؤهم بنسج الكليم (البساط) العربي ذي الحجم الكبير.

الرمثا

وقطعنا بعد هذا المكان مسافة ستة كيلومترات والأراضي ما زالت تحافظ على شكلها السابق. وبعد ١٢ كم وصلنا إلى قرية رمته[٨١]، وهي منزل للتوقف ولهذا فقد تم نصب الخيام في موضع مستو إلى الجنوب منها فأقمنا فيها. وأقيمت هذه القرية على تل وأهاليها يدينون بمذهب "الزيعية"[٨٢] أيضاً، وهم حوالي ١٥٠ بيتاً ويمتهن جميعهم الزراعة. وأراضي هذه القرية تكاد تخلو من الصخور وتتكون من تراب أحمر ناعم الأمر الذي جعلها صالحة جداً للزراعة. وتهب اليوم رياح شديدة وبسبب الغبار لم نتمكن من الإقامة في هذا المكان دون القيام برش الماء على الخيام ولمرات عديدة. وفي هذه الأراضي يتم الوصول إلى المياه الجوفية بعمق قامة ونصف ولهذا تم حفر عدة مئات من الآبار الصغيرة. ويعود سبب وجود هذا العدد الهائل من الآبار إلى خلو الأرض من الصخور ونعومتها وسهولة حفرها، كما أن مياه الآبار المحفورة تصبح بمرور الزمن مرة ولهذا يستوجب حفر وإقامة آبار جديدة. ويحرص أهالي هذه القرية على شرب الغليون بشكل كبير.

---

[٧٩] ورد اسم القرية في الأصل بشكل (الطورة).

[٨٠] لا يمكن بأي شكل من الأشكال قبول ما ذكره الرحالة في هذا الخصوص أي اعتبار أهل الطرة والرمثا فيما بعد نصارى وذلك لعدم وجود أية إشارة إلى ذلك في المصادر المعاصرة للرحالة. ويبدو لي أن المقصود بالزيعية (أو الزبعية؟) هو الزعبية، إذ أخطأ الرحالة في كتابته. والمعروف أن الزعبية، عند زيارة الرحالة للمنطقة، كانوا متوزعين في قرى الرمثا والشجرة والذنيبة، وهم يدعون أنهم ينتسبون إلى عبد القادر الكيلاني الذي ينتسب إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب (فريدريك) بيك: تاريخ شرق الأردن وقبائله، ترجمة بهاء الدين طوقان، الدار العربية للنشر، دون تاريخ ص٣٠٢ . ٣٢١، عليان الجالودي، قضاء عجلون ١٨٦٤-١٩١٨، عمان ١٩٩٤، ص ٢٤٧ أي انهم يدعون شرافة النسب خلافاً للآخرين. ولعل اختلافهم بهذا عن الآخرين جعل الرحالة يصورهم بأنهم نصارى.

[٨١] وهي الرمثا.

[٨٢] أنظر الهامش الأسبق

وتقوم النساء بوشم أجسامهن من شفاههن حتى صرتهن، وينقشن نقوشاً مختلفة بطريقة الوشم أيضاً على أرجلهن المكشوفة حتى ركبتهن، حتى تبدو أرجلهن المكشوفات من بعيد، كأنهن لبسن جوارب زرقاء محاكة من الحرير، ولن أبالغ إذا قلت أن الذين يشاهدون مشيتهن وهن يرتدين ثوباً أزرق طويلاً من الظهر وذا أكمام واسعة، يشبهونهن بسيدات استانبول والفتيات بشكل عام شعرهن مكشوف، غير أن المتزوجات يغطين شعرهن بمنديل أزرق.

ويمتهن أهالي قرية رمته الزراعة ويزرعون من المحاصيل الزراعية: القمح والشعير والدخن والذرة الصفراء والبامية، ومن المنسوجات يحيكون الخيام العربية السوداء ويصنعون اللباد السميك.

وتتزعم في هذا المكان عشيرة ابن زبن وهي تتكون من ثلاثمائة خيمة. وكان دريبي بن زبن الذي يقيم في الخيام في عين الزرقاء قد قصد مزيريب بغية استقبال القافلة. فالتقيت معه وهو في سن الخامسة والثمانين إلا انه يتحلى بالذكاء، والشجاعة، والحيوية والقوة. حتى أنه دافع دفاعاً شديداً في الغزو الذي تعرضت إليه قبيلته والذي شنته قبيلة فدعان في السنة الماضية، وقتل وحده من أفرادها ثمانية وعشرين وغنم منهم ثمانين فرساً. وكان الغازون يفوقون قواته من حيث العدد تفوقاً كبيراً، إلا أنه لجأ في البداية إلى الحجارة، ولكون أفراده بارعين وبشكل كبير في استخدام السلاح فقد صدوا الهجمة الأولى للأعداء وأرعبوهم ثم هجموا عليهم بالسيوف، والحقوا بهم هزيمة منكرة. وكان هذا الشيخ قد دخل أيضا في خدمة محمد علي باشا في مصر. وعندما كان في مصر فقد خاتمه فيها، ولهذا قام إبراهيم باشا المصري بحك خاتم فضي له يحمل تاريخ ٦٣ وكان يحتفظ به في مقره كذكرى يعتز بها. ويستخدم اليوم هذا الخاتم عند استلامه الأعطية السنوية المخصصة له من قبل الدولة العثمانية.

٢٨ مايس ٣٠٦ في الساعة الثامنة من صباح يوم الأربعاء غادرنا سهل رمته وانطلقنا نحو الجنوب الشرقي متوجهين نحو الهدف المنشود. وهذا السهل طوله ٥ إلى ٦ ساعات وعرضه ٤ إلى ٥ ساعات وأراضيه عبارة عن تراب احمر، قسم منها مستو والقسم الآخر تلال. ويحده من الجنوب والغرب جبل عجلون الذي يحتوي على غابات البلوط البري، ومن الشرق تحده تلال صغيرة وهي من فروع جبل الدروز. وبعد خمس ساعات انهينا هذا السهل. وبعد أن عبرنا ممراً صخرياً خرجنا إلى سهل جبل الدروز. ويتجه الطريق هنا قليلا نحو الجنوب. وبعد ثماني ساعات تركنا قلعة "الفدين" المهجورة[٨٣]، وتوجهنا نحو الجنوب، وبقي جبل الدروز إلى الجانب الأيسر من

---

[٨٣] عندما زار بيركهارت الفدين (قرب المفرق) في سنة ١٨٠٩ أي قبل سويله مَز أوغلي بـ ٨١ عاماً، كان فيها حامية عثمانية صغيرة تحت إمرة قائد يعرف بالآغا أو الاوضا باشي (= والصحيح أوده باشي) وذكر أن العربان في البلقاء

الطريق، وعلى امتداد منحدرات جبل الدروز كانت تشاهد أنقاض مدينة اسكي شام (بصرى)[٨٤]. وكما ذكرنا، فانه يروى أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وسلم) زار بلدة بصرى.

الجو في هذا اليوم معتدل جداً، وتهب رياح لطيفة. وكانت درجة الحرارة تشير إلى ٣٢ سانتيغراد. ونظراً لعدم وجود حيوانات مؤذية في هذه الأرجاء فان الإنسان بمقدوره النوم في الخيام بارتياح.

وتوجهت نحو قلعة الفدين الواقعة إلى اليسار بعد أن ركبت هجيناً وعندما شاهدت أنقاض آثار كهذه والتي أقيمت بتضحيات من أجل المحافظة على طريق الحج عدت أدراجي متألماً بطبيعة الحال وواصلت السير في الطريق. والأراضي (هنا) ترابية أيضاً، إلا أن بعض أماكنها صخرية. والطريق أحياناً مستوٍ، ويمر أحياناً أخرى بين الممرات الواقعة بين بعض التلال الصغيرة. وكان يلفت بنظرنا عدد من القلاع القديمة. وفي الساعة السابعة عبرنا ممراً صغيراً ونزلنا في سهل مستوٍ جميل. وهذا السهل يخلو من الماء وهو غير مأهول. وتحيط بهذا السهل تلال صغيرة وجبال. والى غربه تقع مدينة متهدمة تسمى (خربة التمر). وعلى بعد ألف متر من هذه المدينة نصبنا خيامنا للراحة. والمسافة من رمته إلى هذا المكان هي ١١ ساعة، ٤٤ كيلومتر، ومما يؤسف له أن تترك هذه الأماكن برمتها لعدم وجود الماء فيها، لأننا إذا أخذنا الآثار القديمة الموجودة هنا بنظر الاعتبار، نجد أن هذه الأماكن كانت في السابق معمورة. ويبدو أنه نظراً لعدم وجود المياه في ذلك الوقت أيضاً، فقد دفعت الحاجة إلى إقامة الأحواض الكبيرة وحفر الآبار وبذلت الجهود لإعمارها. ولو تم حَذْوِ حَذْوِ السلف واتبعت الوسائل مثلما كانت موجودة فلن يبقى هناك أي عائق. إذ من الممكن الحصول على الماء، وذلك ليس بإقامة الأحواض وحفر الآبار فقط، بل بإقامة السدود في أماكن مناسبة أيضاً[٨٥]، إذ أن كمية كبيرة من الأمطار تسقط على هذه الأماكن في فصل الشتاء، ويستدل هذا من آثار السيول الكبيرة.

اعتادوا أن يودعوا في هذه القلعة الغلال التي تزيد عن حاجتهم من القمح والشعير ليستفيدوا منها في السنة التالية أو ليبيعوها إلى الحجاج بعد تقديم جزء منها للآغا. أنظر بيركهارت ص ١٧٤.

[٨٤] سمى الاتراك العثمانيون مدينة بصرى باسم (اسكي شام) أي الشام القديمة، أنظر: علي جواد، ممالك عثمانية نك تاريخ وجغرافيا لغاتي، استانبول ١٣١٤ ج٣، ص ١٧٨.

[٨٥] وهنا نشير إلى سياسة الحصاد المائي في الوقت الحاضر والذي تساهم بها جامعة آل البيت ومشروع حوض الحماد، وهذا يدعم اقتراح سويله مز أوغلو.

أمضينا الليلة هنا، وانخفضت درجة الحرارة إلى ١٨ سانتغراد.

٢٩ مايس ٣٠٦ في الساعة الثامنة من يوم الخميس غادرنا خربة التمر، وبعد أن سرنا ميلاً نحو الجنوب الغربي، دخلنا إلى واد قرب مجرى سيل واسع. وهذا الوادي يحوي عدداً من أشجار البطم. وقطر هذه الأشجار نصف متر وأكثر وارتفاعها ٤ . ٦ م. والجبال الموجودة على جانبي الوادي على ارتفاع مائتي إلى ثلاثمائة متر وهي خالية من الأشجار. وهذا الوادي يمتد حوالي كيلومتر. وبعد أن صعدنا مرتفعاً صغيراً، انحرفنا نحو اليمين وتوجهنا نحو الجنوب الغربي ودخلنا وادي الضليل. وهذا الوادي يمتد ثلاثة كيلومترات ونصف، وتكوّن جبال عجلون جانبه الأيمن وجبال الزرقاء طرفه الأيسر، وهو مأهول ولكنه غير مزروع ويمتد هذا الوادي إلى الجهة اليمنى لمجرى السيول المذكورة أي نحو الغرب. ويتراوح عرض الوادي ٣٠ إلى ٥٠ م وارتفاع الجبال في الجانبين ٩٠ إلى ١٠٠ متر.

وفي منتهي الوادي قطعنا بشكل عمودي وادي العاجب الممتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي. وتوجهنا نحو الجنوب واجتزنا تلاً. ثم دخلنا إلى طريق يحيطه من جانبيه تلال صغيرة. وبعد أربعة كيلو مترات اجتزنا آثار قلعة قديمة بنيت على ثلاثة أعمدة. وثم قطعنا أربعة كيلو مترات أخرى وبلغنا بعد سبعة كيلومترات وادي عين الزرقاء. والمسافة من خربة التمر إلى هذا المكان ثمانية عشر كيلومترا.

عين الزرقاء

٢٩ مايس ٣٠٦ وعند الساعة الواحدة والنصف من يوم الخميس وصلنا إلى نهر عين الزرقاء، وقبل وصولنا إلى هذا المكان، جاء لاستقبالنا جمع من أتباع قبيلة الشيخ دريبي بن زبن وهو من بني شمر، والذي سبق أن ذكرت إقامته في الخيام في عين الزرقاء، وقدموا الدعوات لأمين الصرة ومحافظ الحج ووجوه الموكب وذلك لتناول الطعام في مضاربهم في عين الزرقاء. ويجري نهر عين الزرقاء هنا من الجنوب نحو الشمال حوالي ٢٥ كم ثم يتجه غرباً وبعد ٧٠ كم يختلط مع نهر الغور الذي يخرج من بحيرة طبرية في محل يبعد ٤٥ كم من البحر الميت، ويصب فيه، ويبدأ هذا النهر على بعد بضعة أمتار من هنا وحتى مصبه بالتوسع توسعاً كبيراً وذلك بالروافد التي تصب فيه من طرفيه. ويبلغ قطر[٨٦] الماء الموجود في الزرقاء نصف متر. وهذا النهر لذيذ جداً. وتحيط به من طرفيه أشجار الدفلى والقصب وهو يزخر في داخله بأسماك كثيرة.

---

[٨٦] استخدم الرحالة ولأكثر من مرة (القطر) لقياس كمية المياه الجارية في الأنهر.

وفي هذا الموضع الذي ينعش الأنفس، نصبنا الخيام ومكثنا حوالي عشرين ساعة للراحة. وعندما كنت أتجول على شاطيء النهر صادفت ماء كالثلج ينبع بين مجريين. وقمت بتنظيف أطرافه ونصبت خيمة عليه. وقد استمتعنا كثيراً هنا على نطاق عائلي حتى المساء. وفي الساعة الثالثة من نهار اليوم نفسه، امتطينا الحيوانات وسرنا نحو الخيام التي استدعينا لتناول الطعام فيها، وهي تبتعد عن معسكرنا نصف ساعة. والخيمة التي دخلنا فيها طولها ١٠ . ٢٠ م وعرضها حوالي ٤ م وارتفاعها متران وهي مصنوعة من الشَعر الأسود، وهي قديمة ومغطاة من الأعلى على شكل (الجملون)، إلا أن داخلها مزينة ومفروشة بالسجاد الراقي ووضع على طرفيها الفرش والمخاديد. وجلس معنا الشيخ دريبي وحده، أما أبناء أعمامه وإخوانه وأبناؤه فقد ظلوا واقفين مسلحين وبوضع الاستعداد: وجلبوا فناجين كبيرة جداً مع القهوة التي تم قليها حديثاُ، ثم قدموا لنا حليباً طازجاً داخل صحن خشبي. ولم أشرب أنا منه، وذلك لأن الصحن الخشبي ليس مألوفاً لنا وفضلاً عن هذا انه كان يدخل في أفواه جميع المدعوين.

وكان بين الواقفين لأجل تقديم الخدمة وإبداء الاحترام شيخ في الستينات من عمره حسن الهيئة، أشرنا إليه بالجلوس احتراماً لسنه. إلا أن الشيخ دريبي[٨٧] اعترض على ذلك حالاً، وقال: أن هذا الشيخ هو ابن عمي وصغيري، والجلوس هنا خارج عن حدوده". كم هي جميلة هذه العادة ! وكم هي عجيبة هذه الطاعة ! فلو لم تكن هذه الرئاسة الطبيعية قائمة بين العشائر والقبائل لكان من الصعب العيش بهذا النوع من البداوة. وبعد قليل قدمت الأطعمة، وقد وضعت في صحون الغسيل الكبيرة، ووضعت كل ثلاثة منها في أماكن مختلفة، وجلسنا حولها. وكان أحد أنواع الطعام عبارة عن لحوم مقلية والثاني رز مع لحم مقلي، أما الثالث فيطلق عليه اسم (مرجوجة) في أسفله لبن وعليه رز ثم لحم مقلي وعليه دهن طازج مذاب قليلاً. وتناول هذا الطعام من قبلنا صعب قليلاً. وكنت أحس بجوع شديد ولهذا تناولت قليلاً منه، ولكن شعرت فيما بعد اضطراباً في معدتي. وبعد تناول الطعام احتسينا القهوة من فناجين كبيرة جداً، ثم عدنا إلى المعسكر. وتبلغ درجة الحرارة في عين الزرقاء في هذا الفصل حوالي ٢١ درجة، أما في الليل فتتراوح بين ١١ . ١٦ وبعد منتصف الليل تنخفض إلى ...[٨٨].

---

[٨٧] ورد اسمه هنا في الأصل بشكل (دوريب).

[٨٨] لم يظهر الرقم في النسخة المصورة الموجودة عندي.

وعلى جانب الطريق النازل من المنزل الذي يقيم فيه العسكر نحو عين الزرقاء توجد قلعة مربعة الشكل طول ضلعها ٢٠ م يسكنها عدد من العرب اتخذوها مسكناً لهم وليس للمحافظة عليها(٨٩)، ويمتد نهر عين الزرقاء من هذا المكان إلى نهر الغور مسافة ٦٠ كم. ووادي عين الزرقاء الذي يسقيه النهر لـه من المقوِّمات أن تكون بلدة جميلة وذلك بإعماره والإسكان فيه، إلا أننا لا نصادف هنا حتى كوخاً. ومما يسهل إعمار هذا الوادي وإحياؤه ملاءمته من حيث الأراضي والمناخ وقربه من سواحل البحر المتوسط بحوالي ٣٠ . ٣٥ ساعة، كما أنه اتخذ محلاً للحجر الصحي للحجاج، ولهذا من البديهي وجوب إعماره وإحيائه والمحافظة عليه.

الانطلاق من عين الزرقاء

١ حزيران ٣٠٦ في الساعة الثامنة من صباح يوم الجمعة انطلقنا من عين الزرقاء نحو الجنوب الغربي. وسرنا حوالي ١٦ كم بين الجبال والتلال ثم صعدنا مرتفعاً ووصلنا إلى ممر جبل الشرشوح حيث كان نهاية الصعود ...(٩٠).

وفي موضع قريب من الجهة اليمنى (من الطريق) لفتت نظري قلعة الرمدان(٩١) وهي من الآثار القديمة وأخذت عدداً من أفراد الدرك (الضبطية) ...(٩٢) وسنحت لي الفرصة للاطلاع على هذه الخربة فتوجهت بفرسي نحو هذه القلعة دون أن آخذ أي قسط من الراحة. وهذه القلعة مربعة الشكل طول ضلعها ٢٠ م. وبنيت جدرانها من الحجر المقطع ذي الحجم الكبير بشكل محكم. وعلى بعد ٢٠ . ٣٠ م من هذه القلعة هناك حوالي ١٠ . ١٥ حوضاً قطر كل واحد منها ١٥ م وعمقه ٩ أمتار وقمت بإلقاء نظرة فاحصة على بعض هذه الأحواض فلم أجد فيها أي أثر للهدم وكأنها أقيمت في هذا اليوم. غير أن مجاري المياه غير صالحة. وأطلقت رصاصة إلى داخل أحد الأحواض. وقد أرعب صوت الرصاصة عدداً من الحمام البري، كانت تختفي في داخله، الأمر

(٨٩) عندما زار بيركهارت قلعة الزرقاء في سنة ١٨٠٩ ذكر أن فيها حامية يرأسها أحد الأغوات وعلى الغالب من قبيلة (هتيم) العربية وحولها يضرب العربان خيامهم (أنظر بيركهارت ص ١٧٥).

(٩٠) هناك نصف صفحة رديئة التصوير لا يمكن قراءتها.

(٩١) ورد اسم هذه القلعة في رحلات بيركهارت (ص ٩٢) بشكل قلعة رميدان.

(٩٢) هنا بضعة كلمات غير واضحة.

الذي أخافني أيضاً. وعندما اقتربت من مدخل القلعة فيما بعد، وعلى بعد ٤٠ إلى ٥٠ م من الجدار لفت نظري ثوب عربي أزرق. وفي الوقت الذي كنت أفكر في سبب وجود هذا الثوب في صحراء كهذه، وبحس خفية اقتربت من جدار القلعة الواقع في هذه الجهة، كما لفت نظري متراس أقيم على هذا الجدار المتهدم بأحجار صغيرة غير ثابتة، وتصورت في أول الأمر أن أحد البدو قد تحصن هنا وانه لدوافع مختلفة خرج من الطريق. وينتظر صيداً يصل هذا المكان وأن مأساة قد تقع في القريب العاجل، وان رجلاً قد قتل في هذه الأماكن ونزعت ملابسه وان هناك احتمالاً كبيراً في أن جثته قد رميت هنا أو هناك، ولهذا طلبت من أفراد الدرك الذين كانوا معي بالقيام بالبحث. وبعد قليل وجدوا جثة رجل بين الأحجار البيضاء وطلبت رفع الأحجار فانكشف الرجل، وقد تفسخ معظم أعضاء جسمه ولهذا ينبغي أن تكون الحادثة قد وقعت قبل عدة اشهر. وعندما أخرجوا رأسه وجدت أن منديلاً قد شد حول رقبته، وكان على مقربة منه غليون قصير...[٩٣] ويبدو أن القاتل لم يتمكن من إنهاء صيده بالرصاصة الأولى فقام بخنقه. ويستدل من شكله ومن الشعر الطويل الذي بقي عليه انه من أهالي هذه المناطق، كما أن انتظام أسنانه وعدم نقصانه يدلان على كونه شاباً ويكاد يكون استخدام الغليون واطلاق شعر الرأس خاصاً بالبدو.

وأمام هذه القلعة أي في الجهة الشرقية توجد آثار مدنية تشتهر بـ....[٩٤] أقيمت على التلال إذ يروى عن البدو أن النبي محمد قد قصد سورية من أطراف برية الشام[٩٥]. وبعد أن قطعنا...[٩٦] كيلو مترات من قلعة الرمدان، واجتزنا البئر الجافة المسماة بئر النائم دخلنا وادي النواعير. وهذا الوادي طوله (٥) كيلومترات ويحاط بطرفيه بتلال صغيرة. وفي نهاية هذا الوادي دخلنا إلى سهل البلقاء أو ما يسمى سهل الطروقات. وهذا السهل ذو مساحة شاسعة طوله ٢٠ ساعة وعرضه حوالي ١٠ ساعات وتحيط به من الغرب والجنوب جبال البلقاء وهو أرض مستوية غير مأهولة ويكسوه العشب. ولم نقطع مسافة طويلة حتى توقفنا للظهر. والى الجنوب الغربي من المنزل كنا نشاهد أنقاض مدينة قديمة تسمى "زيزيا"[٩٧] إضافة إلى أنقاض عدد من القرى المتهدمة هنا وهناك. وبعد توقف دام ثلاث ساعات أبلغنا بالتحرك، وبدأنا بالسير متوجهين نحو الجنوب الغربي.

---

[٩٣] وردت هنا بضعة كلمات لا تقرأ.

[٩٤] لم يظهر الاسم في النسخة المصورة.

[٩٥] لم يكمل الرحالة هذه الجملة، ويبدو أنه أراد هنا أن يذكر أن النبي (ص) قد قصد هذه البلدة.

[٩٦] الرقم غير مقروء في النسخة.

[٩٧] ورد الاسم في الأصل بشكل (ريريا)

وبعد ثلاث ساعات صادفنا على الجهة اليمنى من الطريق القنوات المسماة "وادي الحمام" وهي منتظمة وكبيرة عرضها ٨ –١٠ أمتار، وطولها ٥٠٠ –٦٠٠ م. وقد أقيمت لجمع مياه الأمطار في فصل الشتاء وعلى الرغم من أنها تبدو وكأنها اتخذت وضعها الطبيعي بمرور الزمن. إلا أنني أعتقد أنها أقيمت في الأزمنة القديمة على وجه خاص.

وعلى بعد عدة ساعات من شرقي وادي الحمام ظهرت لنا أنقاض المدينة القديمة المسماة (المشتّى)[٩٨] التي تتضمن عدة آلاف من البيوت، والخطوط الهيروغليفية الموجودة على معظم الأبنية تلفت النظر والعبر ! والخلاصة أننا بعد أن قطعنا مسافة ٢٦ كم من المنزل بشكل مستقيم على هذا السهل اجتزنا تلاً صغيراً ووصلنا إلى قلعة البلقاء الكائنة على منحدرات فروع جبال البلقاء. وبناءً على هذا فان المسافة من عين الزرقاء إلى هذا المكان هي حوالي ٥٦ كم.

---

[٩٨] في الأصل موشتا

العكامة الخيّامون

يقوم العكامة[٩٩] الخيّامون الموجودون في القافلة، وقبل الوصول إلى منزل من المنازل بعدة ساعات، بالتحرك بسرعة وهم يتقدمون على القافلة، وذلك بغية نصب الخيام قبل وصول الحجاج وتهيئة كل أنواع الراحة لهم. ومما يجدر ذكره أن أصناف الخيّامين الشاميين كانوا بارعين في خدماتهم، فتحملهم مشقات السفر وسرعتهم في العمل كانت تثير الدهشة. وكانوا يحققون المعجزات بقيامهم بنصب آلاف الخيام للقافلة في غضون خمس دقائق وتنظيف داخلها. واستخدام هؤلاء في هذه الأعمال عند وقوع العمليات العسكرية في هذه البلاد سيكون لها فوائد جمة.

وبدأت بالتحدث مع بعض شيوخ البدو وكان هؤلاء مكلفين بنقل المؤن والذخائر للقافلة وقد تقدموا اليوم مع الخيامين على القافلة. وقد سألني الشيخ عمن يكون السلطان في استانبول فاستغربت وتألمت في نفس الوقت. وما أن ذكرت أنه السلطان عبد الحميد[١٠٠]، قال وبنية صافية: "الله ينصر السلطان" ثم سألني كمن يريد أن يستطلع عن الغاية من جلب بعض شيوخ (اليمن) و(الوجه) إلى دار السلطنة، فقلت له إن الخليفة يرى شخصياً كل الرؤساء والوجهاء من رعيته ويتعرف عليهم ويكرمهم ويحسن إليهم وبهذا يريد لمِّ شمل المسلمين في اتحاد، وذلك لأن الكفار يتحدون ويتحالفون بعضهم مع بعض ويتقدمون في الثروة والمعارف وبهذا يتقدمون ويتفوقون على المسلمين من الناحية المادية، وان أخص آمالهم وغاياتهم الشريرة هي القضاء على الدين

---

(٩٩) ذكر محمد بن عثمان السنوسي في رحلته أن العكامة (وجمعهم بشكل عكامين) هي تسمية لخدمة الإبل.. كما ذكر أن للعكاميين في الركب زعيم يرجعون اليه وكان باش عكام (= رئيس العكامة) في هاته السنة (١٢٩٩هـ) ابو قاسم.. أما حاملو الخيام فذكر السنوسي أنهم يسمون "المهاترية" وانهم يتقدمون إلى محل النزول ويضربون فيه الخيام على معتاد وضعها، بحيث أن الركب يقسم على الجهات الأربع من القبلة والجوف والشرق والغرب. وكل جهة معينة لأربابها توضع فيها الخيام بوضع هندسي، فتصير المنزلة ذات محجات عامة وحومات صغيرة، وسوف يحيط بجميعهم المعسكر، ويجري ذلك الترتيب في جميع المراحل وفي المسير بحيث أن الرجل في كل منزلة يجد نسبته من جميع جيرانه واحدة وعليها نسبة المسير (أنظر: علي الشنوفي، مرجع سابق ص ٢٢) ونقل عبد الكريم رافق (ص ١٤ . ١٥) عن قاموس الصناعات الشامية (جـ ٢ ص ٣١٨ . ٣١٩) أن "العكام هو الذي يقود الجمل ويخدم راكبيه". أما الباحث محمد احمد دهمان فيعرف العكامة بأنهم "جماعة أقوياء أشداء يقومون بخدمة الحاج طيلة الطريق لقاء أجرة معلومة من يستأجرهم من أفراد الحاج" أنظر أعلام الورى ص ٢٩٨ هامش (١) المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، ص ٣٤٦ هامش (٥). ولكن ما ذكره سويله مز اوغلي عن العكامة يختلف عما أورده السنوسي والآخرون.

(١٠٠) ورد اسم السلطان عبد الحميد بخط بارز كبير.

الإسلامي. ولأجل بلوغ هذه الغاية يقومون بإرسال رجال إلى مختلف أرجاء البلاد الإسلامية ويسعون إلى بث الفساد والفرقة والشقاق بين المسلمين وينجحون أحياناً، فغاية الخليفة هي القضاء على هذا وجمع المسلمين في نقطة واحدة تبعاً لأحكام الحديث النبوي الشريف "{ إنما } المؤمنون أخوة[١٠١]" وتحت راية واحدة والوقوف ضد كفار الدين. وتأثر العربي فقال "والله عليك الحق !"[١٠٢]. إن سؤال هذا العربي الذي نشأ في الصحراء ولا يملك نصيباً من كل أنواع العلوم والفنون وما يحس به يلفت الانتباه. ولو تم نشر التعليم في هذه الأماكن فانهم بلا شك سيبرزون وسيدهشون العالم في غضون فترة قصيرة وذلك لذكائهم وما يتوفر في طبائعهم من خصال الكرم والشجاعة الفطرية. ألم يكن هؤلاء العرب قد سيطروا في وقت ماض وفي غضون فترة قصيرة على القسم الأكبر من آسيا وأوروبا وأفريقيا وأحرزوا موقعاً رفيعاً في مجال المعارف والحضارة؟

وسهل البلقاء ـ كما يستدل من آثاره وأنقاضه ـ كان مأهولاً ومعموراً إلا أن عدم توفر العيون والأنهار هنا قد أدى ـ وكما هو واضح ـ إلى الاستعانة في السابق، بالآبار والأحواض والسدود وذلك بغية توفير المياه. ومن الممكن تحويل سهل البلقاء اليوم إلى موضع قابل للسكن وذلك بعمل هذه الأشياء أيضاً. وعلى كل حال فانه ينبغي وجود الماء هنا وذلك لارتفاع جبال البلقاء التي تحتضن هذا السهل، ومن الممكن إقامة قنوات اصطناعية وذلك بحفر عدة آبار وربط بعضها ببعض، وبهذه الطريقة يتم الحصول على الماء بكثرة من الآبار التي ستحفر. ومما يؤيد هذا، النماذج الموجودة في وان[١٠٣].

---

[١٠١] هذا جزء من آية كريمة، أنظر سورة الحجرات، الآية ١٠.

[١٠٢] لا يتناسب هذا الكلام مع السياق إذ من الأوْلى أن يقال: "والله معك الحق"

[١٠٣] وان: ولاية عثمانية مركزها مدينة وان الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بحيرة وان (شرق تركية)، وكان يتم إيصال المياه إلى البساتين التي كانت تشكل ثلاثة أرباع المدينة بواسطة القنوات المائية. علي جواد: مصدر مر ذكره، ج٣، ص ص ٨٢٩، ٨٣١.

قلعة البلقاء

هذه القلعة تم ترميمها حديثاً ولهذا فهي منتظمة، ويقال انه كان فيها عدد من الحرس(١٠٤) وهي مربعة الشكل طول ضلعها ٣٦ م ومبنية من الحجر الصلد. وأمام القلعة توجد أحواض تم ترميمها، عرضها ١٠ م وطولها ١٥ م، وارتفاعها٦ م(١٠٥). وعلى الرغم من أنها مملوءة بالماء إلا أن وقوع الجراد فيها أدى إلى تعفنها ولهذا لا يمكن المرور من جانبها.. وقد وقع الجراد فيها قبل أسبوع. ولو كان في القلعة محافظ لنظف المياه من الجراد في اليوم نفسه، وذلك لأن الغاية من وجود المحافظين (الحرس) ليس لحراسة أحجار القلعة بل صونها من كل أنواع التلف وما تتعرض له. وطبقاً لما سعيت لمعرفته فان محافظي القلعة الأصليين كانوا ينطلقون من الشام برفقة الصرة السلطانية ويتقدمون قبل الوصول إلى القلعة ببضعة ساعات ويفتحون باب القلعة ويكنسونها ثم ينتظرون القافلة، ويبقون في القلعة لحين عودة الصرة السلطانية، وعند عودة الصرة يرافقونها ويأتون إلى دمشق. وهكذا يبدو أن المحافظين الذين يتم تعيينهم في كل قلعة من القلاع من قبل الدولة بمهمة يوزباشي(١٠٦) أو جنود وبراتب يبلغ عدة مئات من القروش لا يؤدون وظائفهم بعد أن يأخذوا مخصصاتهم بالكامل وانه يتم مسامحتهم مهما كانت الأسباب ....(١٠٧).

٢ حزيران ٣٠٦ في الساعة الثامنة من صباح يوم السبت غادرنا قلعة البلقاء. والقلة القليلة من البدو الذين صادفناهم هنا يكاد يكونون عراة بالكامل، ويربطون خاصرتهم بحزام رفيع، ويغطون أمامهم ومؤخرتهم بقطع من الجلد، كما رأيت أطفالاً لا يسترون حتى عوراتهم فسألت عن أسباب ذلك، وإذا بي أجد أن الغاية من ذلك هي الضغط على المعدة دائماً لكي لا تشعر بالجوع بسرعة. وكما هو معروف عند أهل العلم أن هذا الاعتقاد لا ينسجم مع العلم. ويعتاش هؤلاء البائسين والمساكين على حليب الإبل وبعض الأعشاب وجذور النباتات ومن النادر أن يجدوا اللحم

---

(١٠٤) ذكر بيركهارت أن آغا القلعة يختار دوماً من أجناد دمشق، (أنظر ص ١٧٥ من رحلته)، وهذا دليل على وجود حامية عثمانية فيها. كما ذكر أن هذه القلعة بمثابة خان أو مخزن يكدس فيه العربان مؤنهم.

(١٠٥) ورد في الأصل (عرضها).

(١٠٦) يوزباشي يعني رأس المائة، وهو رتبة عسكرية تقابل (نقيب)

(١٠٧) ما يقارب الصفحة، التصوير غير واضح ٠

والخبز. ويكتفي أكثرهم أحياناً اشهراً عديدة بحليب الإبل دون ماء ولحم وخبز. وهم بشكل عام قصيرو القامة نحفاء وضعيفو البنية ومن حيث الوجوه ثقلاء وغير مرغوبين، والإبل كم هي نعمة إلهية كبيرة للصحارى. والعربي الذي يمتلك عدداً من الإبل بإمكانه تأمين كل حاجاته الضرورية، فمن وبر الإبل يتم صنع الخيام والملابس، ومن جلدها القرب والنعال وحليبها يستخدم بديلاً للماء والطعام فيشرب ويؤكل. وعند التنقل تنقل عائلة صاحبها وما يملك من أشياء وتستخدم في خدمات الذهاب إلى أي مكان يراد الوصول إليه. وعلى الرغم من ضخامتها وهيبتها فهي مؤنسة ووفية وصبورة حتى أنها تذعن لطفل في سن الخامسة. وتكتفي ولمدة ٢٤ ساعة بأكل قطعة عجين أو شيئاً من العلف كما تكتفي بشرب ماء قليل في يومين أو ثلاثة وفضلاً عن مميزاتها هذه فإنها سهلة الانقياد. ولو لم يكن هذا الحيوان موجوداً في هذه الأماكن لما تمكنت العشائر من أن تعيش "سبحان الله الخلاّق".

وبعد أن مررنا في طريقنا من عدد من الوديان والتلال الصغيرة في منحدرات جبال البلقاء خرجنا إلى سهل القطران[١٠٨]. وهو سهل مستوٍ غير صخري. واتجاه سيرنا نحو الجنوب الشرقي. وبعد ثلاث ساعات وصلنا قبالة قلعة متهدمة قديمة ومهجورة تسمى "خان العنب"[١٠٩] وهي تقع إلى الطرف الشرقي من الطريق وتبعد عنه ٢٠٠ م. وكنت اليوم أعاني من إرهاق شديد، فدخلت منذ الصباح داخل الهودج ولهذا لم أتمكن الذهاب إلى الخان وزيارته. وسألت من يعرفون عنه فقالوا أن هذا الخان قديم جداً. ويروى أنه كتب عليه من قبل بانيه ما يلي: "ملأت هذه القلعة بالعنب، ولو استطاع أخلافي من إملائها بالمؤن فطوبى لهم وألف طوبى" والغاية من هذه الكتابة هي التنبيه على إبقاء هذه القلعة عامرة. ويطلق البدو على هذا السهل . سهل القطران . "أرض كنعان" و"صحراء التيه"، إلا أن أرض كنعان . كما هو معروف عند أهل العلم . ليست هنا، بل تقع بين خليج العقبة والسويس. وتمتد الأراضي . هنا . بشكل مستوٍ، ولا أثر في أرجائها لإنسان أو حيوان فهي تخلو منهما بالكامل.

[١٠٨] تسمى اليوم القطرانة.

[١٠٩] هل المقصود به خان الزبيب؟ ولكن خان الزبيب يقع قبل القطرانة بالنسبة إلى القادم من عمان إلى الجنوب.

وفي الساعة الرابعة توقفنا حوالي ثلاثة أرباع الساعة. وتناولنا طعام الغداء وسقينا الإبل، ثم واصلنا سيرنا فتوجهنا نحو الجنوب ووصلنا إلى قلعة قطرانه في الساعة الثامنة حيث نصبنا الخيام، والمسافة بين البلقاء وقطرانه ٥٥ كم بالضبط.

قلعة قطرانة[١١٠]

وهي مربعة الشكل طول ضلعها ٢٠ م وبناؤها محكم إلى حدٍ ما، وهي بحاجة إلى الترميم، وأمامها حوض مربع الشكل طول ضلعه ٥٠ م وعمقه ٦ أمتار، ولم ينظف هذا الحوض أو يرمم بمرور الزمن. ولهذا يكاد يكون نصفه قد غمره الطين وحصلت الشقوق في سطوحه الجانبية. وهذه القلعة عرضها ٦, ٣٦ْ وطولها ٥٨, ٣٥ْ. وأراضيها بيضاء وقاحلة وتقع إلى الجهة الشمالية من وادي الندور.

٣ حزيران ٣٠٦ في الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد انطلقنا من قلعة قطرانه نحو الجنوب، وبدأنا بقطع الطريق على موازاة جبال الكرك الواقعة إلى الطرف الغربي من الطريق والمسافة من قطرانه إلى الحسا ١٣ ساعة / ٥٢ كم. وإحدى عشرة ساعة من هذه المسافة التي اجتزنا فيها بين حين وآخر تلالاً صغيرة عبارة عن وديان كبيرة مستوية، أما المتبقي منها فساعة ونصف عبارة عن وادٍ صخري والقسم الذي يمتد نصف ساعة فهو وديان وتلال ترابية. وعند اقترابنا من قلعة الحسا، كنا قد اجتزنا التلال الترابية، ثم اجتزنا رصيفاً تمّ بناؤه من قبل إبراهيم باشا، وجسراً ذا خمسة مجالات بني من قبل (اسما سلطان) فالقسم الآخر من الرصيف المذكور، ثم وصلنا إلى قلعة الحسا. وكما ذكرنا سابقاً فان قسماً من الأراضي سبخة وترابية ولهذا ليس من الممكن اجتياز الطين الحاصل بسبب الأمطار التي تسقط في فصل الصيف. فأقيم الجسر المار

---

[١١٠] ذكر بيركهارت (ص ١٧٥) أنه يشرف على قلعة القطرانة أوضا باشي (والصحيح أوده باشي = قائد حامية) يتم اختياره من أجناد دمشق، الأمر الذي يدل على وجود حامية فيها سنة ١٨٠٩ م، ومما يجدر ذكره أن قلعة قطرانة ورد ذكرها لأول مرة في كتاب الغزي ضمن ترجمته للسلطان العثماني سليمان القانوني، فذكر انه في ذي القعدة من سنة سبع وستين وتسعمائة "وصل أمر شريف من قبل المرحوم السلطان سليمان.. إلى دمشق بتعمير قلاع بطريق الحج الشامي، وتعيين صنجق (والأصح أمير سنجق أي متصرف لواء) لكل قلعة وفي صحبته سباهية ومعلمون وفعول ومعهم ما يكفيهم من الزاد، واحدة بالقطرانة وثانية بمعان وثالثة بذات حج ورابعة بتبوك، فعمرت كما أمر، وبقي الانتفاع بها إلى الآن. "انظر الشيخ نجم الدين الغزي (ت ١٠٦١هـ/١٦٥١م): الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، بيروت ١٩٩٧، ج٣، ص ١٤٠.

ذكره من قبل (اسما سلطان) [١١١] وبناء رصيف من قبل إبراهيم باشا فيما بعد، وهذا الرصيف يمتد ثلاثة أرباع الساعة. ويطلق العرب على الوادي الصخري الذي اجتزناه قبل الوصول إلى الحسا اسم (وادي الحسا) أو (وادي الغول). ويعتقد العرب أن الغول يعيش في هذا الوادي، ولهذا لا يمكن اجتياز الوادي ليلاً ويروون أن الغول ينادون الذين يعبرون هذا الوادي بأسمائهم، وان الشخص إذا اقترب منه غافلاً فان الغول ينقض عليه من الخلف ويأكله. وكانوا يذكرون ما يروى في هذا الصدد براحة بال، ولهذا فان البدو الذين لا يخشون من أي شيء لا يتجرؤون من عبور هذا الوادي، حتى لو قدم لهم الملايين.

والتلال الصغيرة والجبال التي تكون هذا الوادي معروفة بين العكامة وبأسمائها. وتقع قلعة الحسا تحت جبال الكرك. وتبدأ هذه الجبال من جنوب البحر الميت وتمتد من الشمال الغربي له والى الجنوب الشرقي وطولها ٤٠.٣٠ كم وعرضها ٨-١٠كم ويقدر ارتفاع هذه الجبال عن سطح البحر ٥.٤ آلاف متر. ولهذا فان مناخها معتدل جداً وتضم عيوناً متعددة وأراضيها خصبة ويتكون سكانها من المسلمين والنصارى على التساوي، وهم طويلو القامة ومقاتلون وشجعان بطبيعة الحال.

ومما يؤسف له أنه لا توجد لنا أية ناحية[١١٢] في هذه الأماكن. ويرى الأهالي أن هؤلاء عصاة، كما أشيع بأن هؤلاء لا يقبلون موظفين، إلا أن الشيوخ الذين التقيت بهم بهذا الصدد قالوا: "معاذ الله، لم نتمرد على الدولة؟ متى أرسلت الدولة موظفين ونحن لم نقبلهم؟ وإذا حل الموظفون والجنود في هذه الأماكن فانهم بطبيعة الحال سيضطرون إلى المحافظة على النظام المحلي، الأمر الذي يؤدي إلى راحتنا فننصرف إلى أعمالنا، وسندفع وبكل امتنان رسوم الأعشار والأغنام.

---

[١١١] عرفت سيدتان من سيدات القصر العثماني بهذا الاسم، سميت الأولى اسما سلطان الكبيرة (١٧٨٨-١٧٢٦م) ابنة السلطان احمد الثالث. جمعت أموالاً طائلة وأصبحت من غنيات عصرها وأقامت عدداً من الأبنية العامة وعرفت ببخلها. أما الثانية فسميت اسما سلطان الصغيرة (١٨٤٨-١٧٧٨) ابنة السلطان عبد الحميد الأول وسميت بالصغيرة للتمييز بينها وبين الأولى. جمعت كسابقتها أموالاً طائلة وعرفت بتدخلها المستمر في شؤون الدولة، وكانت كثيرة التجوال وعاشت حياة صاخبة، وينسب إليها عدد من الأبنية العامة أيضاً. أنظر: Meydan Larousse , 6:389.، ولم أجد في المصادر المتوافرة لدينا أية إشارة إلى قيامهما أو واحدة منهما بالسفر إلى بلاد الشام أو زيارة الحرمين الشريفين.

[١١٢] المقصود بهذا، عدم وجود مركز حكومي للدولة العثمانية في هذه الأقاليم.

وتشبه جبال الكرك الجبل الأسود في جزيرة العرب. وقد انتشر الجزويت في هذه الجبال وسيحيك هؤلاء دسائس ضارة، الأمر الذي يؤدي إلى وقوع مشاكل كبيرة تشهدها الدولة قد تقع في المستقبل ولهذا فإني أظن انه من المناسب إيلاء هذه الأماكن الأهمية المطلوبة.

قلعة الحسا(١١٣)

بنيت هذه القلعة من الحجر الصلد وهي مربعة الشكل طول ضلعها ٣٠ م ومتهدمة وفي داخلها بئر وناعور. والحوض الواقع أمام القلعة أبعاده ٢٥م× ١٣م ويتم إملاؤه من هذه البئر. وهذا الحوض في غاية القذارة وَطُمِر قسم منه بالطين، كما أن ماء البئر هذه مُرٌّ ولهذا من الصعوبة شربه وعلى الرغم من هذا فلم يكن لنا بد من شربه. والمحراب الموجود في داخل القلعة حفرت عليه الكتابة الآتية:

(ياحسبن لله معبد) (بناه للتقوى وثيد)
(ملك المسمى المصطفى) (سلطاننا من النسل أحمد)
(في جنة المأوى له) (دار منورة ومقعد) (١١٤)

---

(١١٣) ورد ذكر قلعة الحسا في بيركهارت (ص ١٧٥). ولم يذكر ما إذا كان فيها حامية عثمانية أم لا، بل ذكر أن الفلاحين الذين يعيشون حول القلعة يزرعون الذرة والشعير، كما يزرع الذين يعيشون في أعالي الجبال الغربية الأرض لأسيادهم عرب الحجايا ويأخذون نصف المحصول مقابل أتعابهم.

(١١٤) ثبتنا أعلاه الأبيات التي أوردها الرحالة وبنفس شكلها دون تغيير، والظاهر أنها تعرضت إلى التصحيف إذ أن معناها ووزنها غير مستقيمين، وقد أورد الباحث محمد الطراونة نقلاً عن:

Alois Musil, Arabia Petraea, Moab, Edom, 2 Volumes , Holand, 1907-1908, Vol, I,P.85

ان النقش التأسيسي الذي عثر عليه داخل القلعة تضمن:

يا حسنة لله معبد بناه للتقوى وشيد
ملك يسمى المصطفى سلطاننا من نسل أحمد
في جنة المأوى له دار منورة ومقعد "

وذكر ان المقصود بالمصطفى هو السلطان العثماني مصطفى الثاني (١١٧١هـ/١٧٥٧م – ١١٨٨هـ/١٧٧٤م)

أنظر محمد سالم الطراونة: تاريخ منطقة البلقاء ومعان والكرك، رسالة ماجستير (سنة ١٩٩٠)، نسخة الجامعة الأردنية، ص ٦١٠.

وأمام هذه القلعة نصبنا خيامنا، وقضينا الليلة هنا. وفي الساعة الثامنة من صباح الرابع من حزيران سنة ٣٠٦ غادرناها متوجهين نحو الهدف المنشود. ويكون الاتجاه اعتبارا من قلعة الحسا نحو الجنوب الغربي. والطريق الممتد تسع ساعات /٣٦ كم هو طريق صخري تحيط به جبال حجرية أما الأرض فصخرية سوداء. وبعد أن قطعنا هذه المسافة توقفنا لأجل تناول الغذاء، وبعد ساعة واصلنا السير. ثم دخلنا إلى السهل المسمى وادي موسى[١١٥]. وأراضي هذا السهل مستوية ومغطاة بصخور سوداء. وهذا السهل طوله من الشمال إلى الجنوب ١٢كم وعرضه من الغرب إلى الشرق ٥٠ كم، ويحده من الشمال (الكرك) ومن الجنوب عقبة الشام ومن الشرق وادي عربة[١١٦] ومن الغرب جبل عنيزة الذي يكوّن وادي العربة وجبل موسى[١١٧].

قلعة العنيزة

وبعد أن سرنا ثمانية كيلومترات في ساعتين داخل هذا السهل وصلنا إلى قلعة العنيزة الواقعة إلى جوار التل المسمى (ظهر العنيزة). وهذا التل حجري أسود ارتفاعه ١٠٠.٩٠ م ومحيطه ٦.٥ كم. والمسافة من قلعة الحسا إلى هنا يبلغ ١١ ساعة/٧٧كم. وكان وصولنا إلى العنيزة في الساعة الثامنة وعشر دقائق من يوم الاثنين، ٤ حزيران سنة ٣٠٦. وتبدو القلعة من الخارج منتظمة، وهي في الواقع أمتن وأحكم بناءً من قلعتي قطرانه والحسا، إلا أنها متهدمة من الداخل، وذلك لتركها وعدم الإقامة فيها، كما أن باب القلعة قد سرق من قبل الأهالي. وعندما بدت القلعة لي، توجهت نحوها راكباً لمشاهدتها. ولكن ناداني أحدهم من الخلف قائلاً: "سيدي ! لا تذهبوا إلى هناك، فقد غلبت الثعابين عليها ولهذا فقد تم تركها. "وقد فهمت أن الغاية من هذا هي عدولي عن الذهاب لكيلا أطلع على وضع القلعة. ولكي أثبت أنني لست من ينخدع بمثل هذه الأساطير، فقد واصلت السير، ووصلت إلى باب القلعة وترجلت. واعتذر الدركي الذي كان يرافقني عن الدخول فيها. ووافقت على هذا، ودخلت فيها وصعدت إلى أعلاها ولم أجد فيها أي ثعبان قط، بل لم يتعلق بنظري حتى وزغة[١١٨] صغيرة. وفي الطابق الثاني وعلى بوابة القلعة دخلت غرفة اسودت قبتها من الدخان وقمت بتدوين اسمي وتاريخ وصولي إليها بالسكين. وعندما رأى الدركي تأخري داخل القلعة بهذه المدة دون أن يحدث أي شيء تجرأ فدخل إلى الداخل وقال: أنتم محقون في أن الكلام

---

[١١٥] هذا لا يتفق مع الواقع الجغرافي اليوم إذ أن وادي موسى يقع غربي معان وليس شماله.

[١١٦] في الأصل (وادي عرب).

[١١٧] هنا خلط من المؤلف في الاتجاهات، فوادي عربة إلى الغرب وعنيزة إلى الشرق.

[١١٨] المقصود بالوزغة: أبو بريص.

عن وجود الثعابين هنا هو محض خيال. ثم تركنا القلعة معاً. وعلى بعد ٢٠٠ م من القلعة شاهدت حوضاً طوله ٢٠ م وعمقه ٨ م، وقد تهدم بشكل كبير، وعلى الرغم من وجود الماء فيه وبعمق ٥, ١ م، إلا أن قسماً منه امتزج مع الطين. وقضينا الليل في هذا المكان. وكانت تهب رياح شديدة ولهذا فقد استوجب شد حبال الخيام أكثر.

٥ حزيران ٣٠٦ في الساعة الثامنة من يوم الثلاثاء غادرنا قلعة العنيزة متوجهين نحو الجنوب الغربي. وكان خط سيرنا داخل السهل الكبير الذي ذكرناه وكانت الأراضي تبدو مستوية. وفي الساعة الرابعة وبعد أن قطعنا مسافة ٢٨ كم في ٧ ساعات عبرنا (وادي السوادين)، كما اجتزنا تلاً ارتفاعه ٣٠ م ثم نزلنا وادي معان. وبعد ثلاثة أرباع الساعة وصلنا إلى معان. ويغطي وادي السوادين[١١٩] ووادي معان أحجار بيضاء كروية الشكل، ويعتقد العرب أن هذه الأحجار هي رؤوس قوم عصاة لحق بهم غضب الله فتحولوا أحجاراً.

معان

يقع معان على خط العرض ١٠, ٣٠ درجة وخط الطول ٥٠, ٣٥ درجة ويبعد عن خليج العقبة ٣٣ ساعة أي ١٠٠ كم وعن ساحل البحر المتوسط ١٨٠كم. وفي شرقه وادٍ صغير يجري من جنوبه الشرقي نحو الشمال الغربي وفي غربه وادٍ يجري من الجنوب إلى الشمال. ويتصل هذان الواديان بعضهما ببعض بعد ربع ساعة. ويقع معان على تل بين هذين النهرين. وله محلتان تبتعد الواحدة عن الأخرى مسافة مدى رصاصة. والمحلة الواقعة إلى شمال المدينة تسمى محلة "معان الشامية". وتسمى المحلة الواقعة إلى الجنوب "محلة معان المصرية"[١٢٠] وأصل اسم معان هو معال، وسكنها في الماضي بنو أمية. وفي محلة معان الشامية توجد قلعة بناها السلطان عبد الحميد (أسكنه الله فسيح جناته) [١٢١] كما توجد في محلة معان المصرية قلعة بناها إبراهيم باشا

---

[١١٩] في الأصل (اللواوين)، وقد وردت الإشارة إليه في أعلاه.

[١٢٠] المعروف أن المحلة الواقعة إلى الجهة الغربية (ذكرها الرحالة في الجهة الجنوبية) من معان تسمى "معان الحجازية" (أنظر بيركهارت ص ١٧٦، فريدريك بيك ص ٣٦٠) كما أطلق عليها أحياناً الكبيرة أو المصرية (أنظر: محمد الطراونه: تاريخ منطقة البلقاء ومعان والكرك، عمان ١٩٩٢ ص ٣٢٥.

[١٢١] والمقصود بعبد الحميد هو السلطان عبد الحميد الأول (١٧٢٥-١٧٨٩م) بن السلطان احمد الثالث. تولى العرش في ٢١ كانون الثاني ١٧٧٤، وتميز عهده باستمرار الحرب الروسية – العثمانية وقيام بعض التمردات الداخلية وحدوث الضائقة المالية في الدولة. وعرف عنه اهتمامه بإقامة المؤسسات الخيرية والدينية. أنظر Meydan Larousse, I. 29-30.

المصري[١٢٢] وهاتان القلعتان متهدمتان[١٢٣]. وكلتا المحلتين متخاصمتان والنزاعات الساخنة مستمرة فيما بينهما. والبيوت العربية في هاتين المحلتين بنيت على شكل أبراج قلعة غير منتظمة ولهذا يبدو المنظر العام للقرية وكأنها قلعة كبيرة.

وأهالي هذه البلدة كلهم مدججون بالبنادق البردان المصرية والخنجر المسمى جبنه بالأصول العربية والسيف المنحني، كما أن بعضهم يتسلحون بالبنادق ذات القداحة وبشكل نادر بالمسدسات. ويتصفون فطرياً بالشجاعة والقتال، وهم بارعون في استخدام الأسلحة الجديدة. ويصنعون ما يحتاجونه من الرصاصة والخرطوش أما الكبسولة فيحصلون عليها من الخارج. ويكفي أن نقول انهم، ولكي يثبتوا براعتهم ومهارتهم في التهديف، يقومون برفع رأس ماسورة البندقية إلى الأعلى ويصيبون الهدف من مسافة ٥٠٠ أو ٨٠٠ أو ١٠٠٠ متر بتقدير العين دون أن يحركوا شارة التهديف. وبعد تمرد عرابي[١٢٤] وانهزامه في مصر تسربت الآلاف من بنادق البردان إلى الجزيرة العربية، ولهذا لا نجد اليوم بنادق الفتيل إلا عند ضعفاء العرب.

---

(١٢٢) لم يرد ذكر هذه القلعة في المراجع والبحوث التي تصدت لتاريخ معان، وإنما اكتُفي بذكر القلعة التي بناها السلطان سليمان القانوني، أنظر مثلاً: د. محمد عدنان البخيت، معان وجوارها "استعراض تاريخي"، دراسات تاريخية، دمشق، العدد ١٢، ايار(مايو) ١٩٨٣، ص ٤٩ وما بعدها، نوفان رجا الحمود، العسكر في بلاد الشام، بيروت ١٩٨١، ص ٤٩ وما بعدها، محمد الطراونه، ص ٣٦٩ من النسخة المطبوعة.

(١٢٣) ذكر الرحالة في ص ١٠٢ من رحلته أن السلطان سليمان القانوني هو الذي بنى قلعة معان الشامية وأن السلطان عبد الحميد قام بترميمها وتجديدها. وذكر فريدريك بيك (ص ٣٦٠) أن السلطان سليمان القانوني بعد بنائه هذه القلعة، عهد بحراسته إلى أخوين من وادي موسى يدعيان محمود وأحمد. إلا أنه وقع خلاف بين الأخوين وتمكن أحمد من السيطرة على القلعة وطرد أخاه منها. فاستقر أخوه في موضع آخر من معان وهكذا نشأت محلتا معان الشامية والحجازية.

(١٢٤) المقصود بعرابي هو احمد عرابي (١٨٤١ . ١٩١١) الزعيم السياسي المصري المشهور. وقد قاد حركة تحرير مصر ضد الاستعمار الإنكليزي. انتظم جندياً في الجيش وبلغ رتبة مير آلاي في أيام الخديوي توفيق. قاد مظاهرة سلمية مع فرق الجيش (١٨٨١م) من أجل عزل رئيس الوزراء وتأليف مجلس نواب، فاضطر الخديوي إلى الإذعان بتأليف وزارة جديدة برئاسة شريف باشا وبإعداد الدستور. في سنة١٨٨٢ تزعم ثورة الجيش المصري للقضاء على النفوذ الأجنبي في مصر، ثم قاد الجيش ضد قوات بريطانيا، إلا أنه انهزم وحكم عليه بالإعدام ثم أبدل الحكم بالنفي إلى سيلان: أنظر الموسوعة العربية العالمية، الرياض ١٩٩٦ مادة احمد عرابي ١: ٢٧٤ . ٢٧٥، الموسوعة العربية الميسرة، دار الجيل ١٩٩٥ ج١، ص ٦١.

وتتضمن محلة معان الشامية ٣٠ . ٤٠ بيتاً ومعان المصرية ٢٠٠ بيتاً. وفي كل من المحلتين يوجد ٥٠.٢٠ بستاناً خاصاً بها. وفي هذه البساتين يتم إنتاج مختلف أنواع الفواكه كالعنب الأسود والأبيض والتين والتوت الأسود والرمان، والمشمش، والخوخ والسفرجل. والجو هنا معتدل. وتسقط الثلوج في الشتاء، حتى أن جبال الكرك الواقعة في شمالها تسقط عليها عدة أذرع من الثلوج.

ووادي موسى الذي يمتد من قلعة الحسا وعلى وجه الخصوص من عنيزة وحتى العقبة الشامية، هو سهل واسع جداً وتغطيه أحجار الصوان الصغيرة وتحتها تراب أحمر كالحناء. ويضم في أرجائه غابات مثل الكرك وموسى، كما يتضمن سلاسل جبلية ولهذا فقد تسقط عليه سنوياً أمطار غزيرة. وعلى الرغم من سهولة الزراعة فيها وأهميتها .كما يبدو، إلا أنها قد تركت من قبل الأهالي وذلك لعدم وجود ما يصد البدو من الاعتداء، الأمر الذي يحول دون التمكن من الزراعة والمحافظة عليها من الإغارة.

ومن المعروف أن نهضة البلاد وإعمارها تتوقفان على التجارة والزراعة ويتحقق هذا بإشاعة الأمن. أما في هذه الأماكن حيث يحكم القوي الضعيف، فلا يعرف الحاكم أو الخادم، وما أن يعرف البدو بأن الأهالي المتغلبين على أمرهم يمتلكون شيئاً ما فانهم يقومون بالإغارة عليهم وسلبهم، ولهذا لا يجني الشخص ثمرة جهوده، بل تدخل في جيوب البدو المتسلطين، ولهذا لا يرغب أ حد بالزراعة والفلاحة.

تحتل معان موقعاً يحظى بأهمية كبيرة وذلك لملاءمة جوها وخصوبة أراضيها وقربها إلى ساحل البحر وما إلى ذلك. وتستحق معان أن تتخذ متصرفية أو مركز لواء من قبل الدولة. إذ أن غياب الإدارة الحكومية في موقع مهم كهذا وعدم خضوع هذا العدد من الأهالي بأي نوع من التكاليف الميرية أديا إلى قيام شيوخ البدو بالتحكم هنا كيفما شاءوا. ولهذا وبطبيعة الحال ينسحق الكثير من الذين لا حول لهم ولا قوة. وإذا تم تعيين متصرف نزيه وفعال وكفؤ في هذا المكان ووضع لواء مشاة وفوج نقلية أي الخيالة وفوج فرسان الهجين وبطاريتا مدفعية جبل، فانه يتم تأمين الأمن والنظام في أقرب وقت، كما ستتحقق آثار التمدن والرقي للبلاد. وتوجد في هذه الأرجاء عدة

ملايين من الأغنام ومثلها من الإبل فمن تعداد الأغنام تحصل الخزينة على الملايين[١٢٥]. ولكن مما يجدر عرضه والتنبه إليه أنه لا بد من إقامة متصرفية وقائمقامية في الأماكن التي تستوجب إقامتها في جبال الكرك ومرابطة العساكر السلطانية فيها. وذلك لأن هذه الجبال جبال وعرة يصعب عبورها ويتصف أهاليها بالجرأة والشجاعة. وعلى الرغم من أنهم لم يقوموا بأي عمل ضد الدولة لحد الآن، إلا أنه لم يطلب منهم أي شيء. والبدو الذين يقيمون في هذه الجبال يتفوقون على العشائر الأخرى ولهذا لا بد من إدخال هذه الجبال تحت السيطرة وذلك قبل تأمين النظام في معان.

وقمت بزيارة قلعتي مصر والشام[١٢٦] والبساتين الموجودة في معان. وكان معان قبل حوالي ٢٠ عاماً من ملحقات سنجق البلقاء ويقيم فيه قائمقام. بشكل دائم. ومن الغريب أن نجد أنه في الوقت الذي كانت تتم إدارة معان بهذا الشكل، قام ولاة سوريا بإبلاغ الباب العالي بعدم أهمية هذا المكان والحاجة إليه، الأمر الذي أدى إلى إلغاء القائمقامية فيه. ومما يدعو إلى الاستغراب، كيف يعقل ألا يتم إدخال نقطة مهمة كهذه تحت الانضباط والإعمار وهي تقع على خط في غاية من الأهمية يربط ساحل البحر المتوسط بولايتي الحجاز واليمن المهمتين والواقعتين على ساحل البحر الأحمر؟. والحال أن معان تستحق ربما أن تكون مركز لواء وليس قائمقامية، وذلك لأنها تحظى بأهمية كبيرة لموقعها المهم وكثرة العشائر الموجودة في أرجائها وضمها أهالي نصفهم مسيحيون ونصفهم الآخر مسلمون ولقربها من جبل الكرك ووقوعها في داخل وادي سرحان الذي يمتد على مسافة ٣٦ ساعة طولاً من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي وأربع ساعات عرضاً والذي يفيد في السوق والنقل العسكري إلى نجد ولا سيما إلى جبل شمر ولعلاقتها بقلعة الجوف الواقعة تحت إدارة ابن الرشيد[١٢٧]، ويضم وادي سرحان عدداً كبيراً من الآبار القديمة والجديدة كما يتضمن حوالي ٤٠ . ٥٠ قرية عربية وعدداً من العيون. ويعد هذا الوادي رابطة مهمة بين سورية والبصرة.

---

[١٢٥] المقصود بهذا ما تحصله خزينة الدولة العثمانية من الضرائب المفروضة على الأغنام. وكانت تسمى "ضريبة الأغنام "وهو الاسم المشترك للضرائب المختلفة والمفروضة على الأغنام والماعز، أنظر:

Baykal: Tarih Terimleri Sozlugu S.12

[١٢٦] المقصود بقلعتي مصر والشام هو القلعتان الموجودتان في محلتي معان الشامية والحجازية (التي سماها الرحالة بالمصرية).

[١٢٧] أورد الرحالة مبحثاً مستقلاً عن آل الرشيد وإمارة شمر، أنظر ص (٣٥٧ . ٣٨٤) من مخطوطة الرحلة

قلعة الجوف

أقيمت هذه القلعة على الطراز القديم على تل يشرف على قصبة الجوف وهي محكمة البناء إلى حدٍ كبير. وتضم الجوف أعداداً هائلة من بساتين النخيل والفواكه الأخرى. وعدد سكان القصبة حوالي ١٠٠٠ نسمة، أما وادي سرحان فجميعه من ملحقات الجوف ويضم ٣٥ ألف نسمة.

سيطرت الدولة العثمانية على قلعة الجوف في سنة ١٢٨٩ بعد أن أخذتها من ابن الرشيد وقامت بتعيين الحرس فيها. إلا أنه نتيجة للمراسلات التي قام بها فيما بعد والي الشام (حالت) ومحافظ المدينة خالد باشا المصري ومفاتحتهما للباب العالي بهذا الشأن فقد تم ترك قلعة الجوف هذه لابن الرشيد، على أن يقوم بدفع ضريبة مقدارها ٧٠ ألف قرش لخزينة الحرمين، وعلى الرغم من هذا فان ابن الرشيد لم يدفع ولحد الآن أي قرش إلى خزينة الحرمين.

والمياه الجوفية قريبة جداً من سطح الأرض، ولهذا فانه يتم استخراج الماء العذب من عمق قامة ونصف إلى قامتين. والقلعة الشامية بنيت في الأصل من قبل السلطان سليمان القانوني، وتم تجديدها وترميمها مؤخراً من قبل السلطان عبد الحميد(١٢٨). وأراضي معان طينية بيضاء ولهذا تحصل فيها العفونة عند تبللها. والمياه التي تنبع من العيون لا تؤخذ إلى الجداول، بل تجري بين الأراضي اللزجة، الأمر الذي أدى تحويل هذه الأراضي إلى مستنقعات قذرة وحصل تعفن شديد في الماء. ولهذا فان شرب هذا الماء يضر بالصحة. ومياه الآبار في هذه الأرجاء صالحة للشرب وممتازة. وأراضي معان طينية ولهذا يتم عمل اللبن الذي يجفف تحت أشعة الشمس ويستخدم في البناء، وهي (الأراضي) صالحة لعمل الآجر على حد كبير.

---

(١٢٨) حشر المؤلف هذه المعلومة المتعلقة بالقلعة الشامية بمعان والمكررة، في هذا المبحث المخصص لقلعة الجوف، وربما قصد بها قلعة الجوف والله أعلم.

وعلى بعد ساعتين من معان يقع نهر "شورا" وهو نهر كبير بحيث يمكنه إدارة عدة طواحين. والى جوار هذا النهر تقيم "الحويطات"[١٢٩] في فصل الصيف. وتنقسم هذه العشيرة إلى فرعين رئيسيين: يسمى الفرع الأول: "حرب أبو تايه" ويتكون من ١٥٠٠ خيمة. أما الفرع الثاني فيطلق عليه اسم "عرار بن جازي"[١٣٠] ويشتمل على ١٠٠٠ خيمة. وتقيم هذه العشيرة في الصحراء الشرقية أي جنوب نجد وبالقرب من وادي الصوان ووادي طبيق وأفرادها شجعان ومقاتلون وه مسلحون بأسلحة حديثة.

العشائر المتنقلة في منطقة معان

التسلسل	اسم العشيرة	عدد النفوس خيمة	المهنة	مكان التنقل
١	حويطات	٥٠٠	تربية الإبل البستنة	في قرية الشوبك وجوارها وهي قرية كبيرة تقع إلى غرب معان ويمر فيها نهر
٢	نعيمات	٨٠٠	وهم مزارعون ويقومون بالزراعة بالاشتراك مع أهالي معان[١٣١]	في داخل قرية الطفيلة وجوارها وهي قرية كبيرة تقع إلى غرب معان[١٣٢]
٣	حجايا	٦٠٠	وهم مزارعون ويدفعون العشر إلى شيوخ بدو الكرك	في الشمال الشرقي من معان بجوار قلعة العنيزة وبالقرب من جبال الكرك

وسبق أن ذكرنا أن معان تنقسم إلى محلتين: معان الشامية ومعان المصرية. وأهالي معان الشامية داخلون في حماية عشيرة (بني صخر) المنتشرة بين عين الزرقاء وقلعة البلقاء، أما أهالي معان المصرية ففي حماية عشيرة (حويطات).

[١٢٩] ورد الاسم في الأصل بشكل (الهوينات).

[١٣٠] ورد في الأصل بشكل (أعرار بن جازي).

[١٣١] في الأصل وهم مزارعون ويستفيدون بالمشاركة مع أهل معان.

[١٣٢] الطفيلة تقع إلى شمال غرب معان وليس إلى غربها.

٧ حزيران ٣٠٦ في الساعة السابعة وأربعين دقيقة من صباح يوم الخميس غادرنا معان. وما زلنا اليوم داخل وادي موسى. وأراضي هذا الوادي غير مأهولة وغير مزروعة وهي مغطاة بحجر الصوان، وكان اتجاهنا نحو الجنوب الشرقي. وفي الساعة الحادية عشرة مررنا من الجانب الغربي من (بئر الشيدية) التي تم تركها مؤخراً وذلك لعدم خروج الماء منها رغم حفر ١٥ قامة فيها. ثم قطعنا وبشكل مائل وادي القلعة الذي يمتد من الجنوب نحو الشمال بمسافة ثلاث ساعات وهو مغطى بالأشواك. ووصلنا في الساعة الرابعة وخمس وأربعين دقيقة إلى وادي العقبة. وفي نهاية وادي القلعة . وكما هو واضح . توجد قلعة وحوض أقامهما عثمان باشا لطريق الحج . على نفس الغرار . إلا أنهما تركا في وضعهما الراهن لسبب من الأسباب. ويتم المرور الآن من على بعد ساعة من شرقهما. وفي السهل من معان إلى هذا المكان صادفنا عدداً قليلاً من الأشجار المسماة مغيلان والتي تكون أوراقها خفيفة وتكاد تكون عديمة الظل. ويبلغ قطرها ٢٠ سم وارتفاعها بين ٣ . ٧ أمتار. ووديان بلاد الحجاز تكثر فيها أشجار المغيلان ويتم استخدامها كوقود في هذه الأرجاء. وتبلغ المسافة من بداية وادي العقبة إلى معان ٣٢ كم أي ٩ ساعات. ويبدأ هذا الوادي من الشمال الغربي ويمتد نحو الجنوب. والمسافة التي قطعناها من هذا الوادي بشكل طولي والبالغة ثلاثة كيلومترات مغطاة بأحجام مختلفة من حجر الصوان.

والحجاج الإيرانيون الذين جاءوا إلى الحجاز مع القافلة يعبرون هذا الوادي حفاة في حرارة الصيف وهم يأملون الحصول على الألماس ويأخذون الأحجار بأيديهم ويحركونها، وبين هذه الأحجار يصادف أيضاً حجر الصوان الأبيض كالبلور الشفاف ولهذا فان البعض كان يلقي بنفسه عليه باندفاع شديد ظناً منه أنه ألماس.

وفي الساعة الخامسة والربع وصلنا إلى نهاية المضيق المسمى عقبة الشامية بعد أن قطعنا مسافة ٧٠ كم في ١٠ ساعات وبنزولنا من هنا إلى الأسفل نكون قد انهينا برية الشام وبدأت الصحراء المسماة النفود[١٣٣] بالجزيرة العربية.

---

[١٣٣] ورد في الأصل بشكل (نفوض)

مؤلفی

سیار طوپجی نمونه الایی ایکنجی طابوری قول اغاسی

سویدمز اوغلی

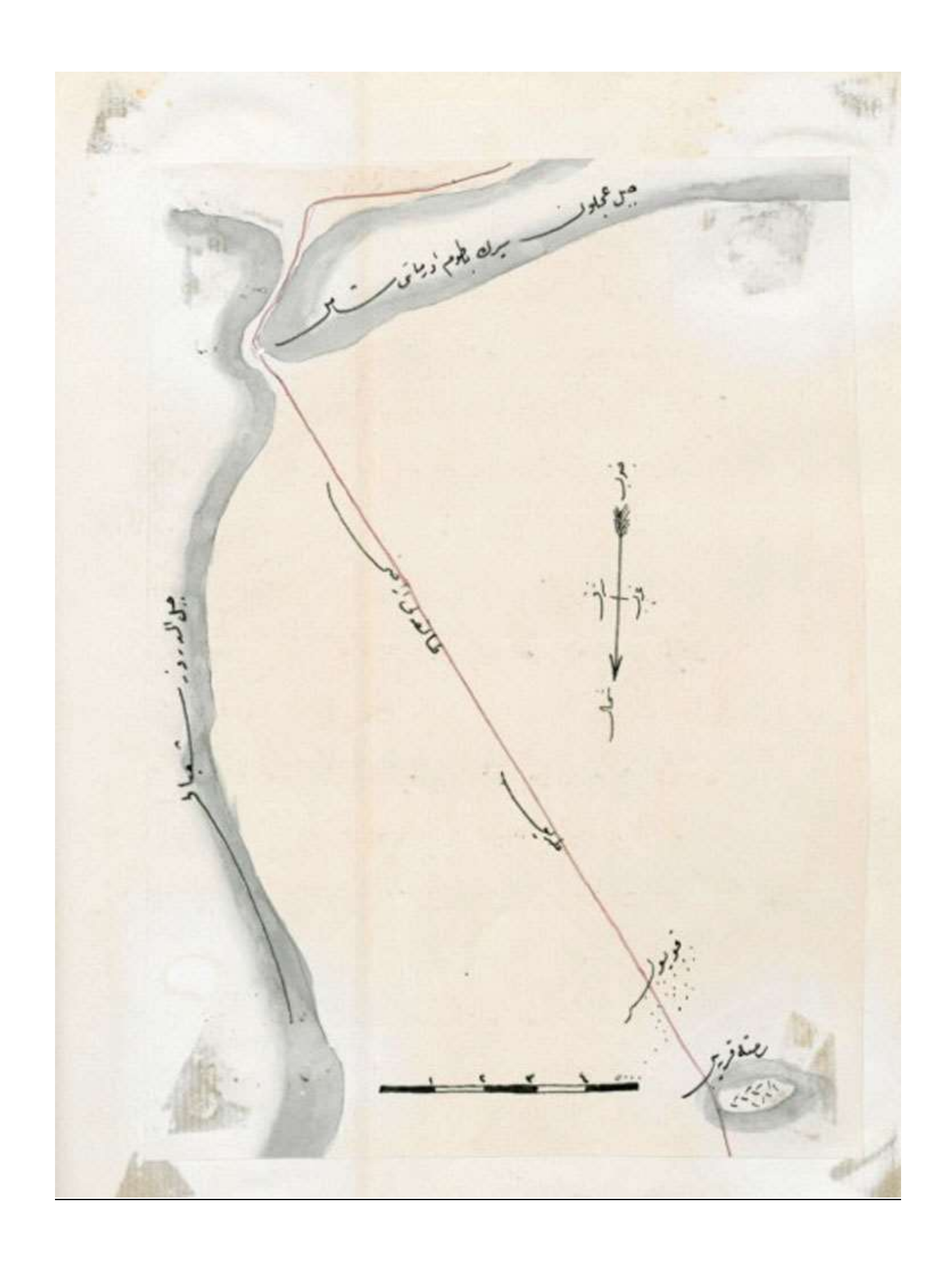
سلیمان شفیق بن علی کمالی

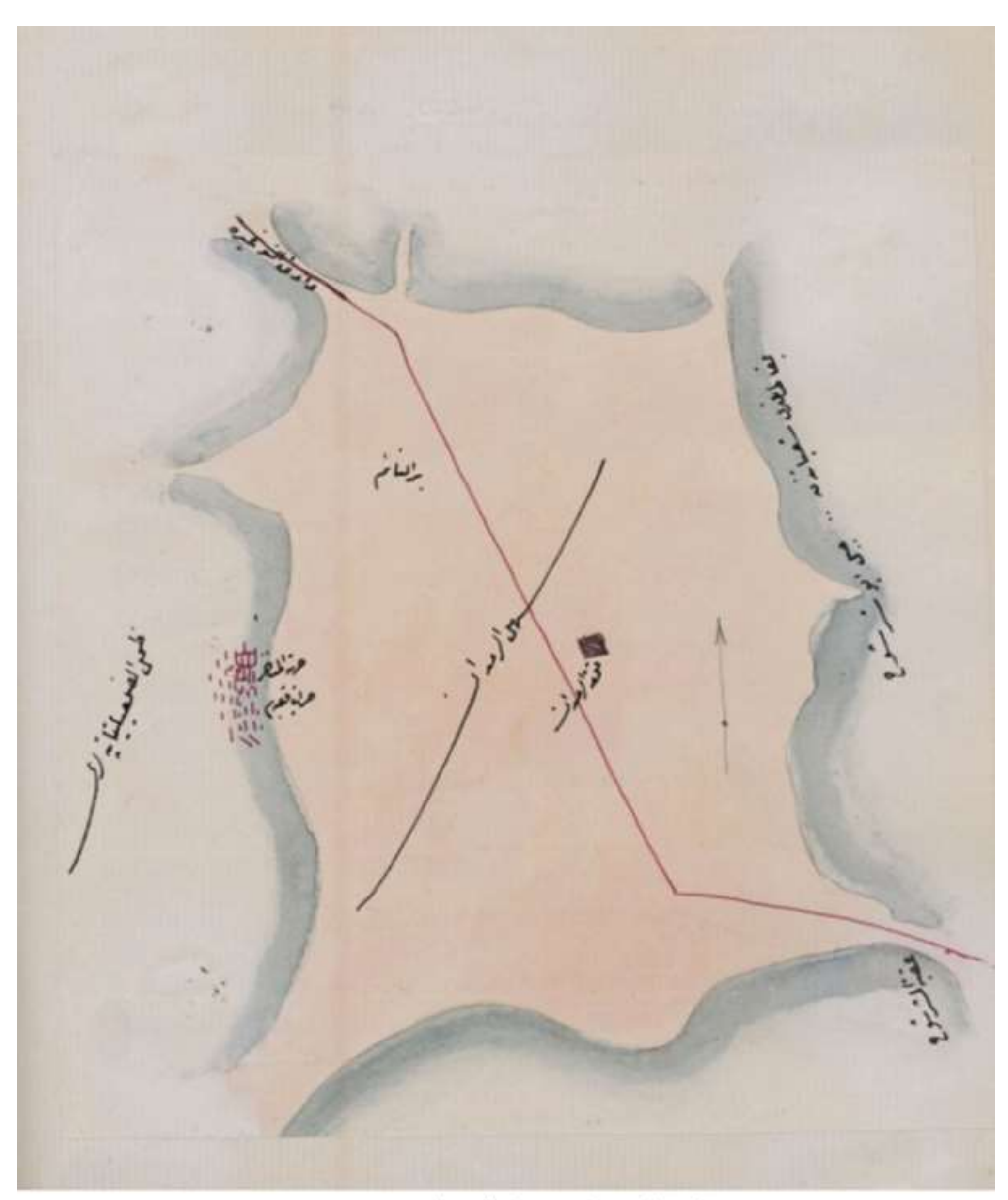
١٧ ربیع الاول سنه ٣١٠ و ٢٦ ایلول سنه ٣٠٨

دار الخلافه



المسجد العمري في الشيخ سعيد

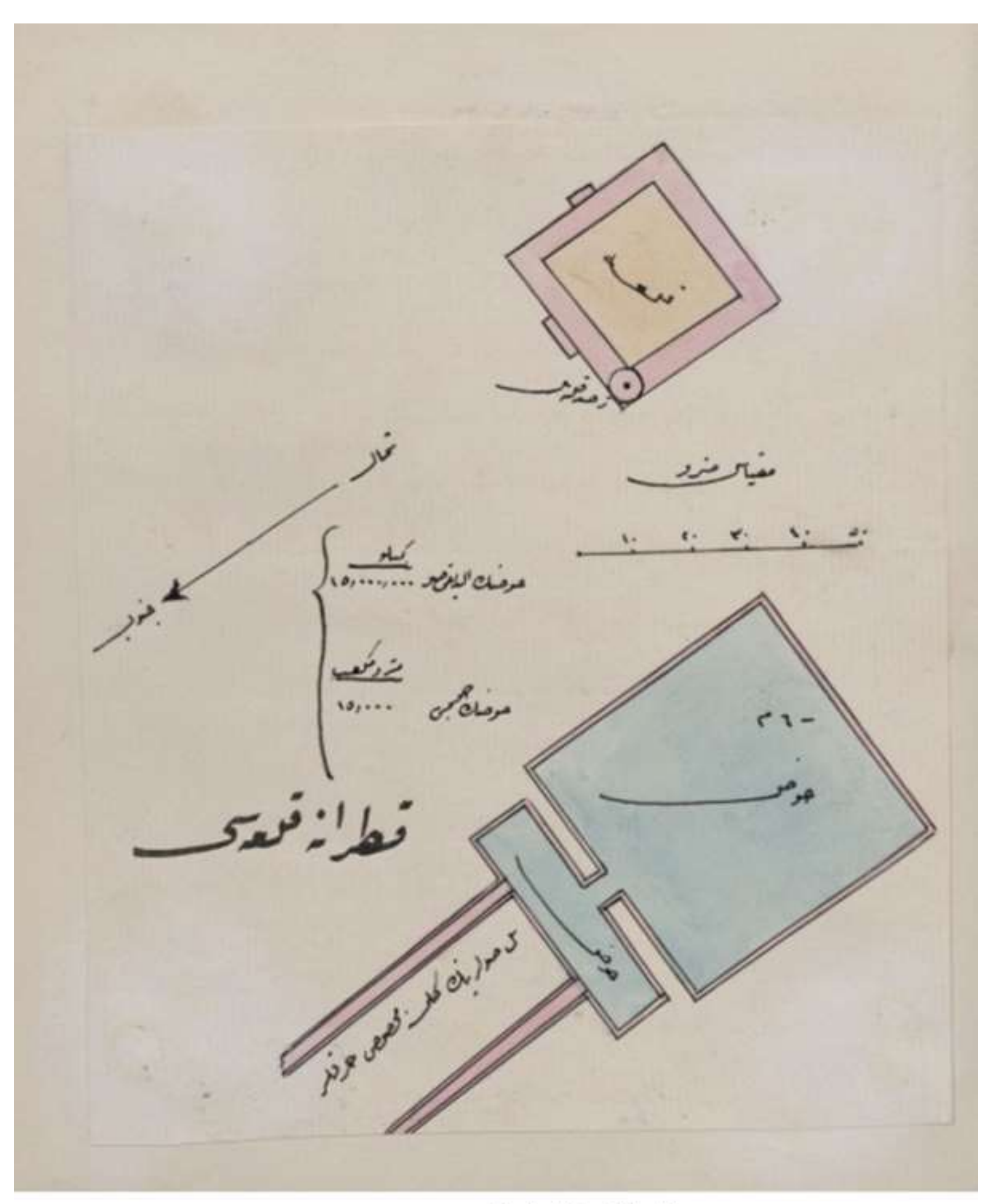

جبل عجلون



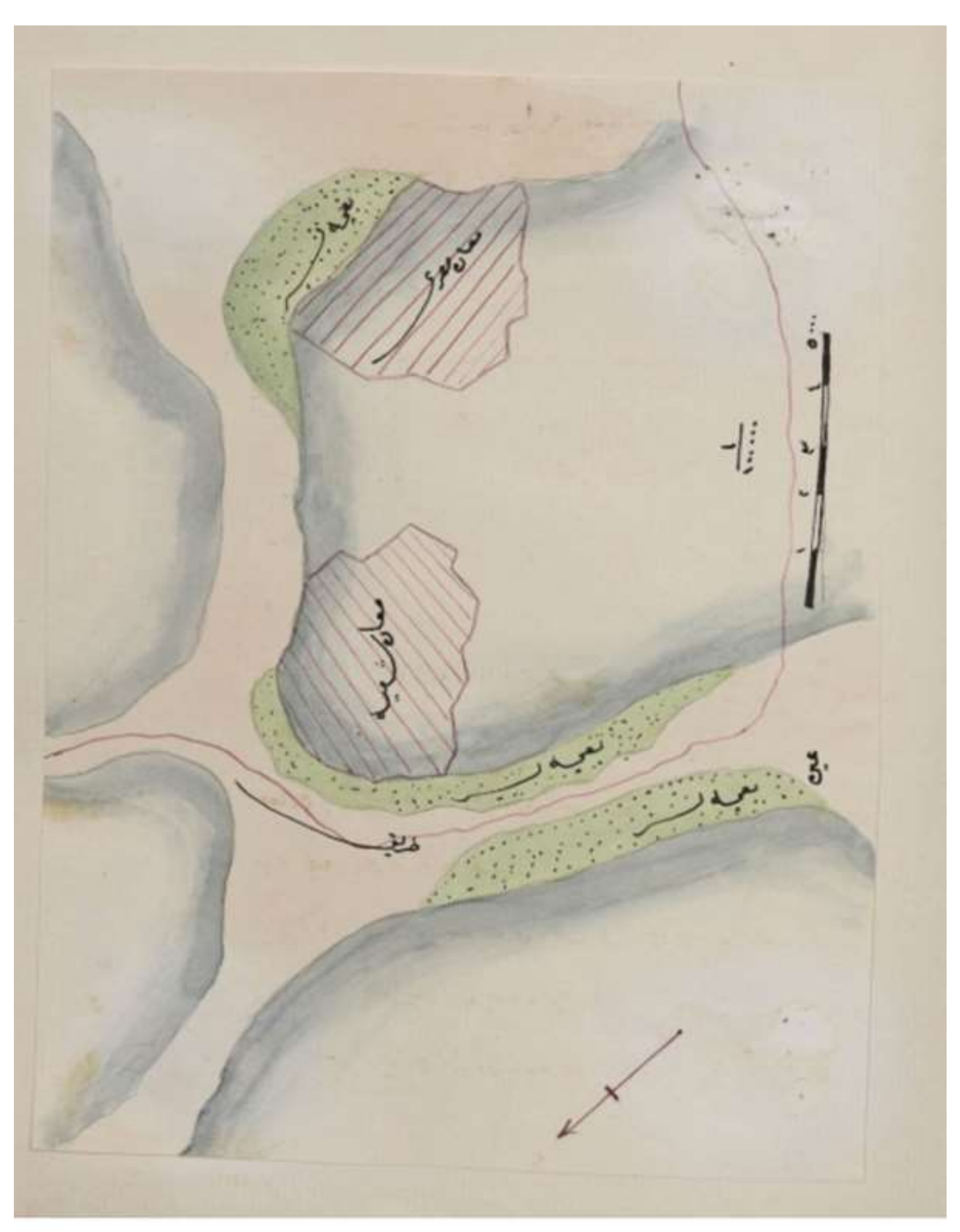
قلعة الرمدان وسهل الرمدان



قلعة القطرانة



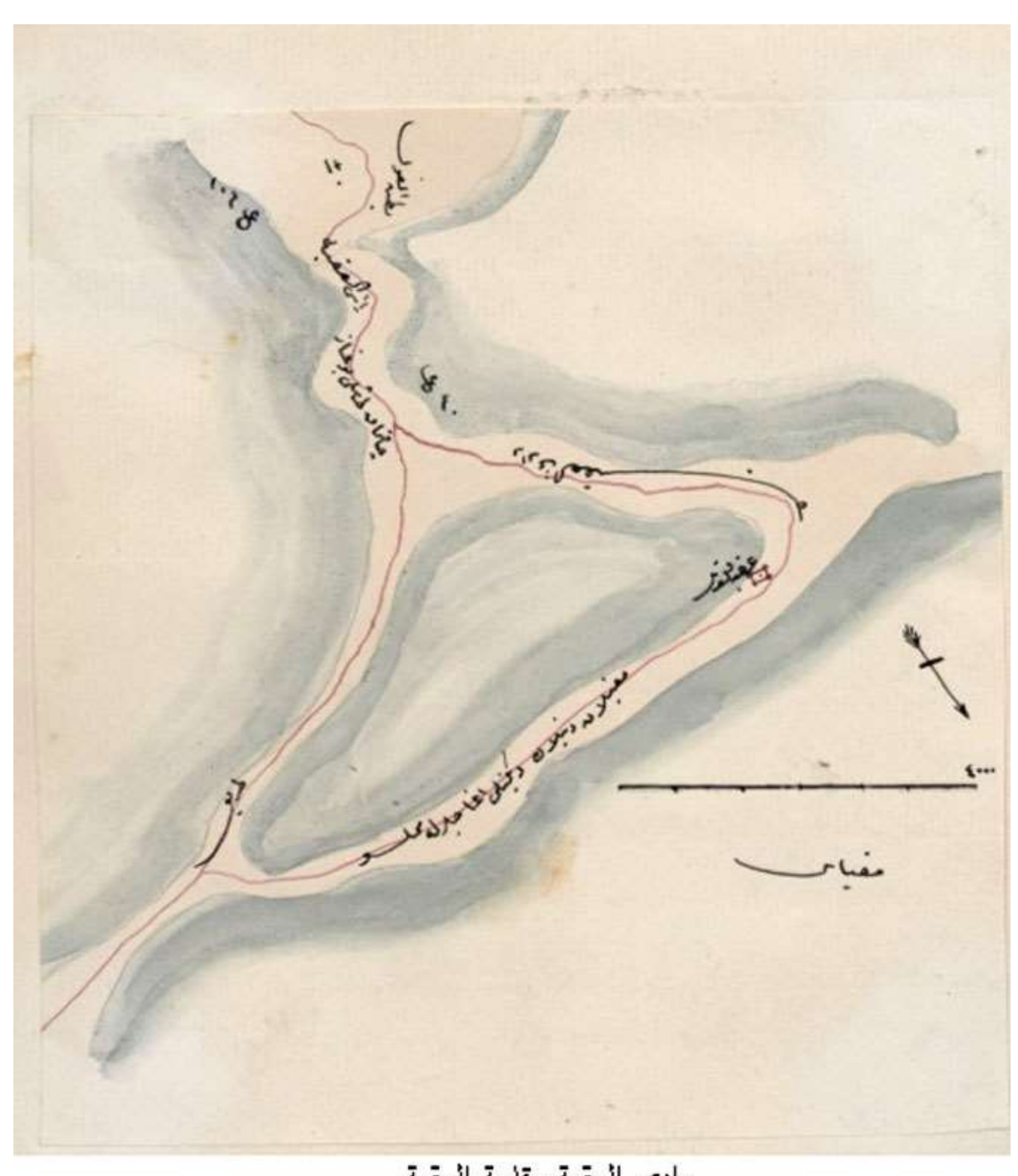
قلعة القطرانة والحوض



معان الشامية ومعان المصرية



محلة الشام في بلدة معان



وادي العقبة وقلعة العقبة

معان جوارنده جولان ایدن قبائل

نمره	اسم قبیله	مقدار نفوس جمعیه	صنعت	محل جولانات
١	حویطات	٥٠٠	دوه یتشدیرمك بغیرلق	معانك غربنده واقع صدقه شوبك ایله جیبو بیكرده ده و جوارنده
٢	نعیمات	٨٠٠	زراعت ایله معانه اهالیسیله مشتركاً انتفاع ایدرلر	معانك غربنده الجفنو قریه جیسوس زاهل و جوارنده
٣	حجایا	٦٠٠	زراعت ایله عشائرك محلل تعمیر ایلدكلری كرك عربانه مسابقه اعطا ایدرلر	معانك شمال قسمنده غربی قلعه سی جوارنده كرك جبالی قرینده

معانك شامیه و مصریه نامیله ایكی محلله منقسم اولدیغی بوقاره ده بولنمش ایدی

برنده ده (معان شامیه) اهالیسی عیسی زیاده ایكی قلعه سی قدریا بیلرده دیكر)

العشائر المتجولة بجوار معان



قلعة المعظم في منطقة تبوك

المصادر والمراجع :

١. أبو عليه، د. عبد الفتاح حسن، دراسة حول المخطوط التركي "حجاز سياحتنامه‌سي" الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

٢. أوزون جارشيلي، إسماعيل حقي، أمراء مكة في العهد العثماني، ترجمة خليل علي مراد، البصرة ١٩٨٥

٣. البخيت، د. محمد عدنان، معان وجوارها "استعراض تاريخي" دراسات تاريخية، دمشق، العدد ١٢ أيار (مايو) ١٩٨٣

٤. البديري، الحلاق، حوادث دمشق اليومية، تحقيق احمد عزت عبد الكريم، مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطبعة لجنة البيان العربي، ط١ سنة ١٩٥٩

٥. البستاني، بطرس، دائرة المعارف، بيروت، د.ت

٦. بيات، فاضل، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، المجلد الثالث، إرسيكا إستانبول ٢٠١٤م

٧. بيات، فاضل، التعليم في العراق في العهد العثماني، دراسة تاريخية في ضوء السالنامات العثمانية، المجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد ٥٧-٥٨ سنة ١٧، ١٩٩٠ م

٨. بيات، فاضل مهدي، سليمان شفيق باشا في البلاد العربية، مجلة العرب ج ٣ - ٤، السنة ٤٢ الرياض، أكتوبر- نوفمبر ٢٠٠٦) (ص ١٦٩ - ١٧٣)

٩. بيات، فاضل: العرب والبلاد العربية في منظور سليمان شفيق باشا، مجلة "الدارة" السعودية، العدد ١ السنة ٣٦، الرياض محرم ١٤٣١هـ ص٥١- ٨٣)

١٠. بيركهارت، جون لويس، رحلات بيركهارت في سوريا الجنوبية، ترجمة أنور عرفات، عمان، ١٩٦٩

١١. بيك، فريدريك، تاريخ شرق الأردن وقبائله، ترجمة بهاء الدين طوقان، الدار العربية للنشر، د.ت

١٢. الجالودي، عليان، قضاء عجلون ١٨٦٤-١٩١٨، عمان ١٩٩٤

١٣. جواد، علي، ممالك عثمانية نك تاريخ وجغرافيا لغاتي، استانبول ١٣١٤

١٤. جونز، أ.هـ .م، مدن بلاد الشام، ترجمة د. إحسان عباس، عمان ١٩٨٦

١٥. الحمود، نوفان رجا، العسكر في بلاد الشام، بيروت ١٩٨١

١٦. الدمشقي، محمد بن طولون الصالحي (ت ٨٥٣هـ)، أعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد احمد دهان، ط٢ دمشق ١٩٨٤

١٧. الدمشقي، محمد بن عيسى بن كنان الصالحي، المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، تحقيق حكمت اسماعيل ، دمشق ١٩٩٣
١٨. رافق، عبد الكريم، قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني، دراسات تاريخية، دمشق، العدد ٦، تشرين أول / أكتوبر ١٩٨١
١٩. سامي، شمس الدين، قاموس تركي، استانبول ١٣١٥
٢٠. ساحللي اوغلو، خليل، مخطوطات عن الجزيرة العربية، مجلة العرب، الرياض، ١-٢، سنة ١٢، حزيران وآب ١٩٧٧
٢١. سليمان شفيق كمالي باشا : بلاد العرب في مذكرات سليمان شفيق كمالي باشا، مجلة العرب، الرياض، أجزاء متعددة
٢٢. سويله مز أوغلي، سليمان شفيق بن علي كمالي، حجاز سياحتنامه سي، مخطوطة، نسخة مكتبة جامعة استانبول، رقم 4199، T4
٢٣. الشنوفي، علي، مكة المكرمة والكعبة المشرفة في كتب الرحالة المسلمين، تونس ١٩٨٩
٢٤. الطراونة، محمد سالم، تاريخ منطقة البلقاء ومعان والكرك، رسالة ماجستير (سنة ١٩٩٠ غير منشورة) نسخة الجامعة الأردنية، والنسخة المطبوعة، عمان ١٩٩٢
٢٥. العارف، يوسف حسن محمد: أضواء على مذكرات سليمان شفيق كمالي باشا متصرف عسير، نادي أبها الأدبي، ١٤١١هـ ١٩٩٠م، ص٢٨- ٣٤
٢٦. العقيلي، محمد بن احمد: مذكرات سليمان شفيق باشا متصرف عسير، نشر نادي أبها الأدبي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م
٢٧. الغزي، نجم الدين (ت ١٠٦١هـ/١٦٥١م) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، بيروت ١٩٩٧
٢٨. فريحة، أنيس، معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية، بيروت ١٩٩٦
٢٩. في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات الى الحج، مجلة العرب، الرياض ج٣ و ٤ سنة ١٣، أيلول / تشرين الأول ١٩٧٨
٣٠. فيشر، هربرت : أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة الأوروبية الى الثورة الفرنسية، ترجمة د. زينب عصمت راشد و د. احمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢
٣١. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، دمشق ١٩٩٢ -١٩٩٣
٣٢. الموسوعة العربية العالمية، الرياض ١٩٩٦
٣٣. الموسوعة العربية الميسرة، دار الجيل، ١٩٩٥
34. Akarli, Engin Deniz, Establishment of the Ma'an - Karak Mutasarrifiyya, 1891-1894 Dirasat , Amman , V.X111, January, 1986 Nu.1
35. ATATURK, Gazi Mustafa Kemal, Nutuk, Soylev, (T.T.K), Ankara, 1989

36. Baykal, Bekir Sitki , Tarih Terimleri Sozlugu, T.D.K, Ankara , 1992
37. Biyiklioglu, Tevfik, Trakyada Milli Mucadele, T.T.K, Ankara, 1992
38. Buluc, Sadettin , T**urkce** Yazma Iki Seyahatname , IX. Turk Tarih Kongresi, Ankara , 1989
39. G**o**kbilgin, Tayyip, 1840'den 1861'e kadar Cebel-i Lubnan meselesi ve Durziler, Belleten, X. sayi : 40, Ekim , 1949
40. Hayat Buyuk Turk Sozlugu, Istanbul, n.d
41. Ilhan, M. Mehdi, Kitap Tanitma, Belleten, CLSI, Agustos, 1997, Sayi, 231
42. Kansu, Mazhar M**u**fit, Erzurum'dan □Olumumune Kadar Ataturk'le Beraber, T.T.K, Ankara, 1988
43. Meydan Larousse, istanbul, 1993
44. **O**zalp, Kazim , Milli Mucadelede 1919-1922, Ankara 1988
45. Pakalin, Menmet Zeki, Osmanli Tarih Deyimleri ve Terimleri S**o**zlugu, istanbul, 1993
46. Sarihan, Zeki, Kurtulu**s** Savasi□ Gunlugu, T.T.K, Ankara, 1993
47. Suleyman Sefik Pasa, Hatiratim, Basima Gelenler ve Gorduklerim, 31 Mart vak’asi, aktaran, Humeyra Zerdeci, İstanbul, 2004
48. Serife Ozkan, Yuzellilikler and Suleyman Sefik Kemali: A legitimacy and Security Isssue, University of Bogazici, Institute of Ataturk, Master Thesis , 2005
49. Tevetoglu, Fethi , Milli Mucadele Yillarindaki Kuruluslar , Ankara, 1991
50. Turk Ansiklopedisi, Ankara, 1980
51. Turkgeldi , Ali Fuad, G**o**rup □**is**itiklerim, T.T.K, Ankara, 1987
52. Uznuncarsili, Ismail Hakki, Mehmet I, Islam Ansiklopedisi, Istanbul 1993
53. Uzun**c**arsili, Ismail Hakki, Osmanli Devleti'nin Saray Te**s**kilati , Ankara, 1988
54. □□**Uc**ok, Bahriye , □**S**ecer-**u**d-dur, Islam Ansiklopedisi, Istanbul, 1979, XI,
55. Yeni Rehber Ansiklopedisi, Istanbul, 1993



يأتي برنامج مكتبة الأسرة الأردنية، بهدف توفير طبعة شعبية زهيدة الثمن، تكون في متناول يد الأسرة الأردنية في كل بيت.

ويهدف هذا البرنامج إلى تعميم الثقافة والمعرفة، وربط الأجيال بالتراث الثقافي والحضاري للأمة، والتواصل مع الثقافات الإنسانية.

إن الكتاب الجيد هو سفر باتجاه الذات ومعرفتها ومعرفة الآخر وهو ومضة لإضاءة عصرنا هذا، من أجل إنجاز رسالتنا التنويرية، القائمة على مشروع الدولة الأردنية منذ انطلاقة الثورة العربية الكبرى ومشروعها النهضوي.

لقد تباينت إصدارات هذه السلسلة في موضوعاتها، ومضامينها، واتجاهاتها، ورؤاها آملين أن تقدم للقارئ زادًا معرفيًا متكاملاً، وتلبي رغبات وحاجات مختلف الشرائح الاجتماعية.





هاتف: 5696218 962 + فاكس: 5691640 962 + ص.ب: 6140 عمان - الاردن
website:www.culture.gov.jo E-mail:info@culture.gov.jo

الكتاب متوفر على منصة الكتبا
https://alkutba.gov.jo

السعر : (٣٥) قرشاً